الأخلاقية

نظرة جديدة في عوامل السقوط

ⓒ **اطياف للنشر والتوزيع ، ١٤٤٢هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

سيف ، فوزي محمد تقي ال
الأمراض الأخلاقية. / فوزي محمد تقي ال سيف .- القطيف ، ١٤٤٢هـ

٣٧٠ ص ؛ ..سم

ردمك: ٨-٦٢-٨٢٨١-٦٠٣-٩٧٨

١- الوعظ و الارشاد أ.العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٤٢/٣٨٢٥

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٣٨٢٥
ردمك: ٨-٦٢-٨٢٨١-٦٠٣-٩٧٨

الأمراض الأخلاقية

نظرة جديدة في عوامل السقوط

فوزي آل سيف

الطبعة الأولى
٢٠٢٠م

أطياف للنشر والتوزيع
Atiyaf For Pub. & Dist.
المملكة العربية السعودية - القطيف - تلفاكس : 00966138549545
atyaf.qatif@gmail.com

الإخراج الطباعي

mojaded@gmail.com

خطوط الغلاف
الثلث صالح الحداد
النسخ أديبة الغنام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

(١)

كان يوم ٧ يناير ٢٠٢٠م حين أعلنت السلطات الصينية عن أن فيروس (كورونا الجديد) هو المسبب لحالات الالتهاب الرئوي الذي أدى إلى وفيات، يوما استثنائيا، لا سيما وأن هذا الفيروس لم يلبث أن تحول إلى وباء عالمي، وانتقل بشكل مذهل إلى مختلف دول العالم المتقدمة منها قبل النامية، ولم تمر خمسة أشهر حتى تحدثت التقارير عن أن عدد الاصابات على مستوى العالم يقارب الملايين الستة بينما تجاوزت الوفيات الثلاثمائة ألف! حتى كتابة هذه السطور.

هذا المرض استنفر كل قوى العالم الطبية والصحية، فبينما انهارت بعض الأنظمة الصحية في بعض البلدان، أصبح بعضها الآخر ينوء تحت ضغط الإصابات! وتعطل اقتصاد العالم شاهدا ما يشبه الركود، وتوقفت الحركة الاجتماعية والسياحية مع فرض الدول حظر التجول بشكل كلي أو جزئي! بل لقد تأثرت الشعائر الدينية والعبادية في كل الديانات، فلا حج ولا عمرة ولا مساجد ولا زيارة ولا كنائس ولا معابد!

لقد تأثر كل شيء في العالم! بسبب هذا الفيروس وما نتج عنه من المرض! وكان من الطبيعي أن يستجيب العالم بهذا النحو وإلا واجه الكارثة!

هذا في مرض الأبـدان والأجسام! ترى لو كان المرض أخلاقيا هل كان سيستجيب العالم له بهذا النحو؟ هل سيتنادى رؤساء الدول وحكوماتها للتخفيف من آثار الأمراض الأخلاقية التي وإن لم تؤثر بشكل مباشر على أبدان الناس لكنها بلا ريب تفسد أرواحهم وتهدم بناءهم الداخلي!

هل ستتسابق الدول فيما بينها، وتسابق الزمن لإنتاج عقار يحمي من أمراض الحسد؟ وبذاءة اللسان؟ والحقد؟ والتكبر؟ أو أنها ستحاول اكتشاف تطعيمة ضد الخيانة؟ والظلم؟ أو ستقوم بفحص مواطنيها عن أدواء الكسل واليأس والاستبداد؟

للأسف أن ذلك لم يحدث ولا يحدث!

ماذا لو أن الشعوب أعلنت حالة الطوارئ في مقابل الخيانات المالية التي تنتج فسادًا عريضًا في إدارة المال العام؟ أو مقابل الخيانة الزوجية التي تشكل تحديًا لأوامر الخالق وتدميرًا لبناء الأسرة؟ كما يتم اعلان حالة الطوارئ الطبية وحظر التجول أمام الفيروس الجديد؟

بالطبع لا نريد أن نهون من خطورة هذا المرض؟ ولكننا نعتقد أن الأمراض الأخلاقية تستحق اهتماما أكثر من المجتمع البشري.

(٢)

الأمراض الأخلاقية.. هل يمكن وصف السيئات بأنها أخلاق؟ يتصور البعض أن كلمة الأخلاق مرادفة للخصال الحسنة، والحال أنها ليست كذلك، فقد ورد كثيرا في كتب اللغة وقد أضيف إليها ما يعني السوء، مثل قولهم: رجل سيء الخلق أو

امرأة سيئة الخلق، أو سوء الخلق. ولعل مراجعة سريعة لها تبين هذا الأمر بوضوح. بل قد ورد ذلك في الروايات عن المعصومين كما في قولهم:«سُوءُ الخُلُقِ شَرُّ قَرين» و «مِنْ مَكارِمِ الأخلاقِ: أنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ» وأشباهها كثير.

ولعل الوهم المذكور مما قد يثير استغراب البعض من عنوان الأمراض الأخلاقية وأمثاله، راجع إلى ما تعارف استعماله في وسط العامة من ذكرهم كلمة الأخلاق مجردة لتدل على الحسن منها، فيقال: فلان رجل صاحب أخلاق، يقال ذلك في سياق المدح والثناء، كما يقال فلان ليس له أخلاق، في سياق الذم. والصحيح هو أن يوصف بالخلق الحسن أو بحسن الأخلاق عند المدح، أو ينعت بسوء الأخلاق عند الذم.

(٣)

لماذا نتكلم في الجانب السلبي؟ لماذا عن الأمراض لا العلاجات؟ ولماذا رذائل الأخلاق ومساوئها لا مكارم الأخلاق؟ لماذا لا نكون إيجابيين؟ فإن القارئ قد يُصدم بعنوان مثل الأمراض الأخلاقية! أو الرذائل النفسية! أو مساوئ الأخلاق! بينما يرتاح إذا كان الحديث عن الأخلاق المثالية! والنفس الزكية! وما شابه..

والجواب هو ما أخبر عنه حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله ﷺ؛ الذي ربما بلغ هذه المنزلة لأنه كان بينما (كان الناس يسألون النبي عن الخير، وكنت أسأله عن الشر)! إن الوقاية من الأمراض تقتضي أن يتعرف الإنسان على أخطارها ومسبباتها! ربما أكثر مما ينبغي أن يتعرف على الصحة. إن مراجع المستشفى لا يخبر الطبيب عن أعضائه الصحيحة، وإنما يخبره عن العضو السقيم. وكذا المستفتي لا يطلب رأيًا في صلاته الصحيحة وإنما في الخاطئة.. وهكذا.

بالطبع لا يمكن أن نحيط في هذا الكتاب بكل الأمراض الأخلاقية والصفات

السيئة، ورذائل الأخلاق فإن ذلك مثل أن يتجرد الانسان للحديث عن كل الأمراض التي تصيب البدن! ولا شك أن هذا متعذر أو متعسر! ولذلك اقتصرنا على اثنتي عشرة صفة أخلاقية سيئة قد تكون منبعًا لغيرها من الصفات السيئة أو مصدرا لممارسات فعلية خاطئة في الحياة، وتم ترتيبها على أساس الحروف الالفبائي ليسهل الوصول إليها مع جعل الصفة الأساسية هي العنوان الرئيس وباقي العناوين المرتبطة بها تتمة لها واستمرار. فمثلا في حرف الباء جاء العنوان الرئيس بذاءة اللسان.. وجاءت العناوين التابعة له بعده كعنوان لماذا يكونون بذيئي اللسان، حتى وإن كان عنوان المقال لا يبدأ بحرف الباء.. وهكذا.

وهذا الترتيب الذي جاء متأخرًا ربما يؤثر بعض الشيء على ما في المتن كأن يقال في الإشارة لشيء كما مر أو كما ذكرنا، بينما هو بحسب الترتيب المتأخر، الصحيح أن يقال فيه كما سيأتي، وهكذا مما يفترض أنه لا يخفى على القارئ النبيه.

(٤)

كان الأصل في هذه المقالات، أنها أحاديث ألقيت في أيام الجمع، وعلى أثر تشجيع بعض المؤمنين في ذلك تم كتابتها من التسجيل، ثم أعدت صياغتها وكتابتها معتمدا على ما هو مكتوب أمامي منها. ووفرت لنا أيام الحجر المنزلي بمناسبة فيروس كورونا في شهر رمضان المبارك ١٤٤١ هـ هذه الفرصة للعمل عليها بشكل مناسب. وهنا ينبغي أن أتوجه بالشكر للأخت الفاضلة أمجاد عبد العال التي تولت كتابة هذه المحاضرات بكاملها (٢٥محاضرة) فاختصرت علي جهدا كبيرا ووقتا طويلا، وربما لو لم تكن هذه المحاضرات مكتوبة لما كان بإمكاني إعادة صياغتها وكتابتها من جديد، وأسأل الله لها الأجر الجزيل والثواب العظيم. كما أتوجه بالشكر للأخ الفاضل المهندس م غريبي الذي راجع قسمًا جيدًا منها وأبدى

ملاحظات مفيدة، كما أشكر الأخت الفاضلة أفراح البراهيم، وأخيرا الأخ الفاضل أبا علي عبد الأمير ـ البحرين ـ الذي بذل جهدا رائعا في التدقيق جزاهم الله جميعا كل خير.

(٥)

تم الاعتماد في المصادر غالبًا على نسخ الكتب الالكترونية الموجودة على مواقع الانترنت، أو التطبيقات الخاصة، مثل برنامج مكتبة الشيعة **ishia book** وكذلك مكتبة مدرسة الفقاهة **ar.lib.eshia.ir** لكتب شيعة أهل البيت، وتم الاستفادة من كتب تطبيق **app.turath.io** لكتب مدرسة الخلفاء..

فوزي بن المرحوم محمد تقي آل سيف

تاروت ـ القطيف

يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر رمضان المبارك من سنة ١٤٤١ هـ

الاستبداد بالرأي منشؤه وأثره

استبداد[1] الشخص برأيه وعدم الاستماع للغير فضلا عن قبول آرائهم، هو من الصفات الأخلاقية السيئة.

وبالرغم من أننا لا نجد هذه الكلمة في القرآن الكريم، لكننا نجد واقعها وحقيقتها فيما تحدث عنه القرآن مقدما صورتين؛ سلبية لمن كان يحمل هذه الصفة، وأخرى إيجابية لمن اجتنبها.

الصورة الأولى هي صورة فرعون؛ سلطان مقتدر له الكثير من الأعوان، موقفه الرسمي واعتقاده الجازم بأنه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ

(١) كلمة الاستبداد بهذا اللفظ وضمن هذا المعنى لم نجدها في القرآن، نعم هي في أحاديث المعصومين في كلمات الصديقة الزهراء عليها السلام في قولها (واطمئنوا للفتنة جأشا، وابشروا بسيف صارم، وهرج شامل، واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيدا، وجمعكم حصيدا،) وكذلك في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، في جوابه سائل من بين أسد (يا أخا بني أسد، إنّك لقلق الوضين ترسل في غير سدد! ولك بعد ذمامة الصّهر وحقّ المسألة، وقد استعلمت فاعلم: أمّا الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسبا، والأشدّون برسول اللّه، صلى الله عليه وسلّم، نوطا..).

الرَّشَادِ﴾.[١] فالنظر الصحيح هو نظري، والفكرة السليمة هي فكرتي ليس إلا! ولا ينبغي أن تفكروا إلا في إطار تفكيري وقواعدي.

وإن من الطبيعي جدًا في من يعتقد أنه ربهم الأعلى ويخاطبهم على هذا الأساس، ألّا يسمح لهم بالتفكير خارج الحدود التي عينها لهم.

وبشيء من التدبر نلحظ أن فرعون لم يكن لديه خصلة الاستبداد بالرأي فحسب، بمعنى أنه يطبق رأيه ولا يهتم لرأي غيره، بل هناك مرحلة أسوأ وهي أنه يستنكر على الناس أن يكون لهم رأي غير رأيه. أو أن يفكروا بغير طريقته، وأن يروا الأمور بغير الصورة التي يراها هو! (مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى). وهذا من أقصى درجات الاستبداد المطلق بالرأي.

وفي مقابل ذلك يقدم القرآن الكريم صورة بديعة في المشاورة مع الآخرين وتقليب الرأي بحضورهم والاستماع إليهم وهي صور ملكة سبأ التي ما إن جاءها كتاب سليمان ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى استدعت وزراءها وأركان مملكتها قائلة لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾[٢]، أي أني أحتاج إلى رأيكم وإني لا أقطع بالقرار حتى نتناقش فيه وتبينوا آراءكم!

ومن المفارقة، أن الموقف الجميل في المشاورة، يأتي من امرأة مع ما اشتهر اجتماعيًا عن النساء من تسرعهن في اتخاذ القرارات بصورة عاطفية! بينما الموقف القبيح الاستبدادي يأتي من رجل! يفترض فيه أنه أقرب إلى الحكمة والتعقل.

---

(١) غافر: ٢٩.

(٢) النمل: ٣٠ و ٣٢.

وبينما يستنكر فرعون الرجل على جلسائه أن يفكروا ـ مجرد تفكير ـ بغير طريقته! تقرر هذه الملكة بأنها لن تقطع بأمر أو قرار إلا بعد مشاورتهم!

والاستبداد بالرأي ليس خاصا بالملوك والسلاطين وأهل السياسة والحكم، بل قد نجده في الحياة الاجتماعية والأسرية، وربما تشجع الثقافة العامة في المجتمع على الاستبداد من خلال الأمثلة والأشعار(١) ويتأثر بها الناس في لا وعيهم.

فقد نربي أولادنا على الاستبداد، حينما نقرن الإصرار على الرأي، وعدم قبول رأي الآخرين، ورفض التراجع، نقرن كل ذلك بالقوة ونشير إليه بالإعجاب، فنقول عن فلان في سياق المدح أن (كلمته ما تتثنى)! مع أن هذا من أسوأ الصفات! فهل هو رب العالمين الذي قوله الحق؟ أو هو النبي العظيم وأوصياؤه الطاهرون؟

إن الفخر ينبغي أن يكون بمن إذا رأى كلامه خاطئا، يتراجع. وإذا رأى غيره على الحق يتبع رأيه! لا أن يقال: كلامه لا يتثنى ولا يتغير!

إن أبناءنا عندما يسمعون هذا الاعجاب بمن كلمته لا تسقط على الأرض ولا تتثنى بهذا المعنى، يعتقدون بأن الاستبداد هو الطريقة التي تجلب المدح والثناء والاعجاب! فنربي مستبدين في بيوتنا، حتى إذا خرجوا في الحياة العملية طبقوا

---

(١) من ذلك ما يتم تبسيط المعارك السياسية به، مثلما نقله الطبري في تاريخه ٧ / ٣٢٠ عن دور منادم سماه أبا العود وأنه حرض هارون الرشيد على البرامكة فقال: فكان فيمن يحضر إنسان كان معروفا بالأدب وكان يعرف بكنيته يقال له أبو العود فحضر ليلة فيمن حضره فأعجبه حديثه فأمر خادمًا له أن يأتي يحيى بن خالد إذا أصبح فيأمره أن يعطيه ثلاثين ألف درهم ففعل فقال يحيى لابي العود أفعل وليس بحضرتنا اليوم مال يجيء المال ونعطيك إن شاء الله ثم دافعه حتى طالت به الايام قال فأقبل أبو العود يحتال أن يجد من الرشيد وقتا يحرضه فيه على البرامكة وقد كان شاع في الناس ما كان يهم به الرشيد في أمرهم فدخل عليه ليلة فتحدثوا فلم يزل أبو العود يحتال للحديث حتى وصله بقول عمر بن أبي ربيعة وعدت هند وما كانت تعد * ليت هندا أنجزتنا ما تعد واستبدت مرة واحدة * إنما العاجز من لا يستبد.. فقال الرشيد أجل والله إنما العاجز من لا يستبد حتى انقضى المجلس.

استبدادهم هناك، وإذا تزوجوا مارسوا الاستبداد مع زوجاتهم وأبنائهم، وإذا دخلوا المعترك السياسي كذلك! وكأننا بهذا نقول لهم: عندما تريد احترامي كن مستبدًا! وعندما تريد تقديري لا تستمع لغيرك من الناس مهما كان رأيه صحيحا وصالحا!

إن النتيجة التي يقدمها القرآن الكريم، لعاقبة استبداد فرعون وعاقبة مشاورة بلقيس، هي أن فرعون باستبداده ذاك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[(١)] بينما تلك وصلت إلى قصر سليمان، واعترفت بأنها ظلمت نفسها ولكنها في النتيجة ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(٢)].

مع كمال عقل المعصومين يشاورون غيرهم:

ما يعيق البعض عن المشاورة، ويدفعهم للاستبداد أنهم يتوهمون بأن المشاورة تعني الضعف وعدم القدرة على حل الأمور، بينما الاكتفاء والاستبداد يعني أن الشخص فاهم في كل الأمور ولا يحتاج إلى غيره، وهذا ـ لعمري ـ فكر خاطئ بيّن الخطأ.

ذلك أننا نعتقد –كمسلمين– بأن النبي المصطفى محمدًا ﷺ هو أكمل الخلائق عقلًا ورأيًا –بل هذا ما يعتقده فيه حتى الكفار فلم يجربوا عليه حتى قبل رسالته خطلًا ولا زللًا– وأنه لا ينبعث إلى أمر إلا كان ذلك الأمر هو أحسن الاختيارات الممكنة، (ويوجد بحث في أن هذا هل هو ناشئ من التسديد الالهي في كل التفاصيل أو أن الله أكمل لنبيه العقل فهو يتصرف على هذا الأساس)..

ومع كل ما سبق إلا أن ذلك لم يكن مانعا للنبي ﷺ أن يشاور المسلمين فيما هو

---

(١) هود: ٩٨.

(٢) النمل: ٤٤.

أعلم به منهم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١].

وقضية الخندق مشهورة في مشورة سلمان الفارسي[٢] على النبي والمسلمين[٣].

وفي حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، يتحدث فيه عن أبيه الإمام موسى بن جعفر الكاظم ويشير إلى جهة المشورة فيقول: « كان عقله لا يوازن به العقول، وربما شاور بعض عبيده فيشير عليه من الضيعة والبستان فيعمل به، فقيل له: أتشاور مثل هذا؟ فقال عليه السلام: ربما فتح على لسانه[٤].

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) ذهب بعض العلماء إلى أن مشورة سلمان على النبي صورية وليست حقيقية وأن ما جاء في الآية المباركة هو أمر أخلاقي لتطييب نفوس المسلمين.

(٣) «يميل السيد عبد الرزاق المقرم في كتابه العباس عليه السلام ١/ ٢٠ إلى أن» الرسول الأعظم، وهو المسدَّد بالفيض الأقدسّ والإرادة الإلهية المستغني عن الاستعانة بأيّ رأيّ، يمشي وراء العادة، فيشاور أصحابه إذا أراد المضيّ في أمر، ولعلّ النكتة فيه مضافاً إلى ذلك تعريف خطأ الاستبداد وإن بلغ الرجل أعلى مراتب العقل، فكانت الصحابة تبصر من أشعة حكمه فوائد الاستشارة كالاستخارة، وتمضي على قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أُعجب برأيه ضلّ، ومن استغنى بعقله زلّ » و « لا يندم من استشار» ثم أورد أمثلة على ذلك منها؛ ما شاورهم فيه في أصل المعركة أو تركها ، ثم لما وصل إلى بدر، قَبِل مشورة الحباب بن المنذر في تغيير المكان الذي تم اختياره، وكذلك في غزوة الخندق عندما طلب منه عيينة بن حصين والحارث بن عوف ثلث أثمار المدينة، ليرجعا بمن معهما من غطفان، فشاور في ذلك السعود الثلاثة: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وسعد بن فزارة، فأشاروا عليه ألا يعطيهم شيئاً، فعمل بمشورتهم وكان النصر حليفه.. وكذلك كان الأئمة من بعده يقول السيد المقرم فقد شاور موسى بن جعفر الكاظم أهل بيته وشيعته لما عزم الحاكم العباسي موسى الهادي على قتله، فأشاروا على الإمام أن يغيب وجهه عنه، فعمل بمشورتهم، ونقل كذلك ما جاء في المتن من ثناء الإمام الرضا على والده أنه كان أكمل الناس عقلا وربما شاور بعض غلمانه.

(٤) الحر العاملي؛ محمد بن الحسن: وسائل الشيعة – ط الإسلامية ٨ / ٤٢٨.

لماذا يستبدون؟

لا يقتصر سلوك الاستبداد على الحاكمين، وإن كان هو الأظهر والأشهر في تاريخ المسلمين وحاضرهم، وما يشاهد بالعيان فهو مستغن عن البرهان! وإنما وكما ذكرنا يتمدد ليصبح حالة اجتماعية نراها في الأسر والعوائل، فمن السهل أن ترى بنتًا معضولة لم تتزوج لأن والدها لا يريد تزويجها أصلًا أو يريد تزويجها إلا لشخص معين، وتمر سنوات عمرها واحدة بعد الأخرى لتتلف زهرة شبابها، بينما تذهب محاولات القريب والبعيد في إقناع أبيها بأن (يتنازل) عن رأيه، ضائعة أدراج الرياح. ذلك أنه قد تعلم من الصغر أن كلمته لا تتثنى! وأنه قد قال قولته! وأن كلمة الرجل واحدة! إلى آخر هذه السخافات.

ولا سبيل مع هذا إلا التوسل بالفقه والقانون لرفع ولايته عن ابنته! وتحريرها من رقه وعبوديته.

وتجد حالات كثيرة من الاستبداد الأسري فهذا أخ، ليس له من ميزة سوى أنه أكبر سنًّا، يحرم اخته أو أخاه الأصغر من ميراثهما لأنه يرى أن الاحتفاظ بالمال عنده أحسن من وضعه عندهما! ولا يخضع لحكم شرعي يقول له إن الحيلولة بين صاحب الميراث وبين ميراثه حرام شرعًا، ويساوي في بعض درجاته الغصب! وتكون يد هذا الأخ الأكبر يد عدوان على ذلك المال! حين لا يعطي أصحاب المال إلا بمقدار ما يرشح الصخر!

والزوج الذي يتحكم بزوجته ويستبد بها فلا يسمح لها حتى بالمطالعة وقراءة الكتب! بينما لا يعطيه الفقه والقانون أكثر من حق الاستمتاع الجنسي والاستئذان في الخروج! إلا أنه يرى نفسه وكأنه مالك لهذه (الجارية)!

فلماذا يفعل هؤلاء مثل هذه الممارسات؟

إن أحد الأسباب المهمة في ذلك هي أن هذا الإنسان لا يعرف حدوده! ولا يرى نفسه عبدا حقيقيا لله. ولا يفهم رسم العبودية، يمارس أفعال العبادة، فيصوم ويصلي ويحج لكن حقيقة العبودية مفقودة في داخله..

إن حقيقة العبودية هي التي نقرأها في الدعاء: «اَللَّهُمَّ إِنِّي أَمْسَيْتُ لَكَ عَبْداً دَاخِراً لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لاَ ضَرّاً وَ لاَ أَصْرِفُ عَنْهَا سُوءاً أَشْهَدُ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِي وَ أَعْتَرِفُ لَكَ بِضَعْفِ قُوَّتِي وَ قِلَّةِ حِيلَتِي فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِ مُحَمَّدٍ وَ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي وَ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ مِنَ الْمَغْفِرَةِ فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ، وَ أَتْمِمْ عَلَيَّ ما آتَيْتَنِي، فَانِّي عَبْدُكَ الْمِسْكِينُ الْمُسْتَكِينُ، الضَّعِيفُ الْفَقِيرُ الْمُهِين»(١).

هذا الموقع مختلف تمامًا عن الموقع الذي يراه المستبد لنفسه، فالعبد يرى أنه لا يملك أمر نفسه، ولا يستطيع لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا يصرف عنها سوءًا، بينما المستبد يرى أنه يدبر نفسه وغيره وأنه لا يحق لغيره أن يزاحم إرادة المستبد حتى في شؤون ذلك الغير! يقرر على ابنته أو ابنه شيئًا وليس من حق ابنه أو ابنته أن يعترضا عليه أو أن يفكرا بشكل آخر.

إن عبد الله يفكر في أن الله سبحانه وتعالى ماذا يأمر في هذا الموضع؟ وما هو الحكم الشرعي الذي يجب أن يجري على الجميع ـ هو وغيره ـ! بينما المستبد لا يرى ذلك! فإن استجابوا له والا فالقوة ـ من أي نوع كانت ـ تحسم الموقف! هو هنا في الواقع لا يفهم شيئا اسمه الحلال والحرام، ويجوز أو لا يجوز.. وإنما يفهم أنه قال كذا ويجب على الجميع أن يستمع ويخضع!

أحيانًا يقال له: إن الله لا يرضى بهذا! ولا يجيزه! لكنه هنا يصم سمعه ويعمي بصره فلا يكاد يسمع أو يرى شيئًا!

---

(١) الحسني؛ السيد ابن طاووس: الاقبال بالأعمال الحسنة؛ ط دفتر تبليغات ١/ ٣٤٨.

فمن أسباب الاستبداد؛ نسيان الإنسان قدر نفسه! وتشبهه بربه! وإلقاء رسم العبودية لله عن عنقه! وهو بالنسبة لبعضهم يجاهرون بأنهم أرباب! وأنهم فوق مستوى البشر لكن البعض الآخر منهم يمارسون هذا السلوك من دون الاعلان عنه!

ومن الأسباب: توهم المستبد كون المشاورة ضعفا وقلة معرفة، وبالإمكان تجربة هذا من الذات، فلو كانت هناك قضية معينة، هل ترى نفسك تميل إلى استشارة غيرك، أو أنك تحب أن تقرر فيها من دون أن يعلم أحد بذلك؟ ثم لماذا تحب التكتم عليها وعدم المشاورة؟ البعض يقول لو شاورت آخرين قد يتصورون أني عاجز عن حلها بنفسي وضعيف عن تولي أمرها..

وقد سبق أن بينّا أن العكس هو الصحيح، وأن المشاورة قوة وحزم، بينما الاستبداد والاكتفاء بالرأي ضعف وهذا بالإضافة إلى ما تؤكده التجارب الاجتماعية حيث يميل الناس في البلدان المتقدمة إلى تشكيل مجالس إدارات تسهم في نجاح المشاريع والشركات من خلال تبادل الرأي والمشاورة بين أهل الرأي والتخصص.. هي قبل ذلك ما أخبرت عنه الأحاديث الشريفة، فعن النبي محمد ﷺ روي قوله «الحَزْمُ مُشَاوَرَةُ ذَوِي الرَّأْيِ وَاتِّبَاعُهُم»[١].

فالحزم ليس أن تنفرد بالقرار لنفسك، والقوة ليس أن تقف على رأيك ولا تتغير، هذا ليس حزمًا، بل ينتهي إلى الهلاك. فمن استبد برأيه هلك.

بل في حديث آخر: «مَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ خَفَّتْ وَطْأَتَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ». يعني كأن من مصلحة الأعداء أن يكون من يواجههم مستبدا في آرائه، وذلك لأنه ستكثر أخطاؤه، وتفشل خططه.

(١) الري شهري؛ الشيخ محمد: ميزان الحكمة ١/ ٦٠٥.

اَلْبُخْل وَشُحُّ النَّفْسِ

أحد الأمراض الأخلاقية السيئة: البخل. وهو كما ورد في تعريف الراغب الأصفهاني[1]: إمساك المقتنيات عمن لا يحق حبسها عنه، ويقابله الجود. ومفهوم البخل إجمالًا واضح لدى أكثر الناس، ولكن يوجد في تعريف الراغب ملاحظة دقيقة وهي أنه أشار إلى أن البخل هو حبس المقتنيات، كانت: مالًا أو لباسًا أو طعامًا. عمن لا يستحق أن يُحبس عنه. وليس مطلق الامساك والحبس. إذ أنه قد يكون شخص مستحقا لحبس المال عنه، ويكون ذلك إحسانًا إليه وللمجتمع، مثل حبس المال عن السفيه في الانفاق المالي. حيث يجب على الحاكم الشرعي أن يحبس عنه ماله، فضلًا عن مال غيره. لأن هذا المال سيكون عرضة للإتلاف لو لم يُحبس[2].

على ضوء هذا، لا ينبغي للأب – مثلا – أن يعطي ابنه السفيه أو المبذر المال. ولو حبسه عنه، لا يقال عنه أنه بخيل. لأنه حبسه عمن يستحق أن يُحبس المال عنه.

---

(١) الاصفهاني؛ الراغب: المفردات في غريب القرآن الكريم ١/ ٣٨.

(٢) ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾.

بخلاف ما إذا كان لا يستحق أن يُحبس عنه، كأن يكون عاقلًا مدبرا، فينبغي على الأب حينئذ أن يكون سخيًا معه. أو كانت زوجة صالحة، فينبغي للزوج حينئذ أن يكون جوادًا بالنسبة إليها.

وما دمنا في إطار التعريف نشير إلى أنهم قد ذكروا عنوانًا آخر قريبًا من البخل وهو الشح والفاعل منه الشحيح. وقد ورد كلا اللفظين في القرآن الكريم. فكما ورد البخل في مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾، ورد أيضًا: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾، وأيضًا: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾، وهو: جمع شحيحة. فهل هما متساويان؟ أم أن بينهما فرقا؟

وقد ذكر بعض بأن الفرق بينهما هو أن البخيل: من يحبس ماله عن الغير، بينما الشحيح من يحب أن يُحبَس مال الآخرين أيضًا عن ذلك الغير. فتارة هو يمنع رفده وعطاءه، من أن يصل إلى الآخرين. وهذا هو البخيل. وأخرى لا يمنع ماله الشخصي فقط، وإنما يرغب لو أن مال غيره لم يصل إلى الآخرين أيضًا. فلو سمع أن سخيًا أعطى لشخص مبلغًا من المال. فإنه يتأذى! ويستنكر عليه ويتساءل لماذا يعطيه هذا المبلغ؟ ما الداعي أن يصرف عليه؟ مع أنه ـ أي الشحيح ـ لم يخسر فلسًا من جيبه! لكنه مع ذلك يتأذى من وصول حتى مال غيره للآخرين! وسيأتي – بعد قليل – أن هذا يشبه الإنسان الحاسد في بعض جوانبه.

فالبخيل هو الذي يضن بمال نفسه ولا يسخو به، والشحيح هو الذي يضن بمال غيره، ولا يتمنى أن يكون غيره سخيا على الآخرين.

وقيل إن الشح أشد من البخل (في درجته) وربما يشير إليه ما ورد أيضًا في مفردات الراغب من أن الشح: بخل مع حرص!

وهناك من فرق بينهما بالنحو التالي، فقال: إن البخل هو الحالة الخارجية لهذا

الإنسان، وهي: المنع. فعندما يمنع الإنسان عطاءه عن غيره، هذا بخل. ولكن الشح هو: الحالة النفسية الداخلية التي تمنعه عن العطاء، ولذلك يضاف الشح عادة إلى النفس ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾. ووصفت الأنفس بالشحيحة ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ فكأنما الشح هو الصفة الداخلية، المحركة للبخل. أما البخل فهو المنع الخارجي. ولعل هذا الفرق أدق من الفرق السابق..

وهذا من الصفات الذميمة التي إذا استوطنت داخل إنسان أفقدته لذة الحياة، وأفقدت من يعيش معه أيضًا تلك اللذة فلا هو يتنعم بحياته، وماله ولا أهله ومن يعيش معه، وانما الذي يتنعم بها مالكو البنوك!. إن قسما من هؤلاء البخلاء مع تضخم أرصدته في البنك، يعيش أشبه بالفقراء، ويعيش معه أبناؤه منتظرين ملك الموت أن يقبض روحه حتى يستطيع العازب منهم أن يتزوج ومن يسكن بالإيجار أن يشتري له مسكنا.. وهكذا! ولا يعدم البخيل هنا تبريرا بأنه يريدهم أن يعتمدوا على أنفسهم وينشؤوا عصاميين! لكن حقيقة الأمر هي (وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ) ربما تراه يمنع ابنه من الزواج لحاجة الابن إلى المال بالرغم من احتمال انحرافه، وأحيانا خسارة الأب الأموال الكثيرة مجبرا عليها لتدارك انحراف ابنه أو ابنته وقد كان بإمكانه المنع من ذلك وقاية، بشيء من السخاء!

إن بعضهم كأنه بوضع ماله في البنك واحتجابه عن الصرف على نفسه وأهله، فضلا عن المجتمع وأعمال الخير، يقول لمالك البنك: تفضل، اعمل بها، افتتح لك فروعا جديدة، تنعَّم! وأنا سأنتظر حتى آخر السنة، لأجني من كل مائة ٤ ريالات، أو أقل! وحديثنا هنا ناظر للموضوع الأخلاقي مع غض النظر عن الحكم الشرعي في هذا السلوك.

حتى إذا (ربح) هذا المقدار الضئيل من النسبة المئوية، لا يأخذ الأرباح وإنما

من جديد يقرر: أن يلحقها برأس المال. ليربح أكثر في سنة أخرى فيتركها سنة، ثانية، ثالثة، ورابعة. وبينما هو يقتر على نفسه، يتنعم أصحاب البنوك بها ويتوسعون ويعيشون حياة أفضل بأموال هذا البخيل الذي دأبه أن يجمعها ويكومها في جيب مالك البنك! وإلى أن يأتيه الموت وهو على هذا الحال، يتمتع الغريب في ماله ويتنعم فيه بينما يحرم نفسه ويمنع الأقربين من الاستفادة من هذه الأموال! فيعيش عيشة الفقراء! احتياطا للمستقبل الذي لن يأتي! وهذا ما أشار إليه مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، عندما قال: «عَجَبًا لِلْبَخِيلِ! يَتَعَجَّلُ الفَقْرَ الَّذِي مِنْهُ هَرَبَ». فهو يعيش الفقر الفعلي الحاضر من خوف فقر مستقبلي لا يعلم هل يأتي أو لا يأتي!

ها هو الآن يعيش الفقر لعشرين أو ثلاثين سنة، ويبقي أسرته أيضًا في ظل هذه العيشة الصعبة، وقد يخسر حب زوجته وود أولاده، وربما انفصلوا عنه وتركوه! او دخلوا معه في نزاعات، هذا فضلا عن المجتمع الذي يتحاشاه ولا يحترمه! إذ السخاء هو طريق مودة الناس.. حتى إذا انقضت هذه الأيام حوسب في الآخرة حساب الأغنياء وأنه من أين اكتسب هذه الأموال وما هي مصادرها!

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم قصة أحد المسلمين البخلاء في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مبيّنًا فيها أن البخل قد يسبب النفاق: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ. فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(١).

وحيث أن القصة قد وقعت محلا لجدل طويل عريض نوردها بتمامها ونشير إلى رأينا:

---

(١) التوبة: ٧٥ ـ ٧٧.

فقد نقل ابن جرير الطبري[١] في تفسيره القصة هكذا: عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يرزقني مالا! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويحك يا ثعلبة قليل تؤدِّي شكره خير من كثير لا تطيقه! قال: ثم قال مرة أخرى فقال: أما ترضى أن تكون مثل نبيِّ الله، فو الذي نفسي بيده، لو شئتُ أن تسيرَ معي الجبال ذهبًا وفضة لسارت! قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوتَ الله فرزقني مالا لأعطينّ كلّ ذي حق حقه! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم ارزق ثعلبة مالا! قال: فاتَّخذ غنمًا فنمت كما ينمو الدُّود فضاقت عليه المدينة، فتنحَّى عنها فنـزل واديًا من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما.

ثم نمت وكثرت فتنحّى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهي تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة. فطفق يتلقَّى الركبان يوم الجمعة، يسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما فعل ثعلبة؟ فقالوا: يا رسول الله، اتخذ غنمًا فضاقت عليه المدينة! فأخبروه بأمره، فقال: يا ويْحَ ثعلبة! يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة! قال: وأنـزل الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[سورة التوبة: ١٠٣] الآية، ونـزلت عليه فرائض الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة رجلا من جهينة ورجلا من سليم وكتب لهما كيفَ يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما: مرَّا بثعلبة وبفلان، رجل من بني سليم، فخذا صدقاتهما! فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٣٧١ ومثله أسباب النزول للواحدي ١/ ٢٥٢، وإنما نقلنا الخبر من تفسير الطبري باعتبار أنه وقع محلا للثناء من السيوطي في الإتقان ج٢ ص١٩٠ بعد ذكر جماعة ممن يذكرون التفسير بالأسانيد كابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما «ثم ألف في التفسير خلائق فاختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال تترى فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل.

فقال: ما هذه إلا جزية! ما هذه إلا أخت الجزية! ما أدري ما هذا! انطلقا حتى تفرُغا ثم عودا إليّ. فانطلقا وسمع بهما السُّلمي فنظر إلى خِيار أسنان إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهم بها. فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك. قال: بلى، فخذوه فإنّ نفسي بذلك طيّبة وإنما هي لي! فأخذوها منه.

فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرَّا بثعلبة فقال: أروني كتابكما! فنظر فيه، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية! انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال: يا ويح ثعلبة! قبل أن يكلِّمهما ودعا للسلميّ بالبركة فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلميّ فأنـزل الله تبارك وتعالى فيه: « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ »، إلى قوله: (وبما كانوا يكذبون)، وعند رسول الله رجلٌ من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة! قد أنـزل الله فيك كذا وكذا! فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته. فقال: إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك!

فجعل يَحْثِي على رأسه التراب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني! فلما أَبَى أن يقبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رجع إلى منـزله وقُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقبل منه شيئًا. انتهى.

ولدينا هذه الملاحظات في ظلال هذه القصة:

١. أن هذه القصة قد أحرجت القائلين بعدالة الصحابة أجمعين وأنهم أفضل الناس بعد النبي وأنهم من أهل الجنة.. فإن من الواضح أن صاحب القصة هو من أصحاب النبي بشهادة مخاطبته للنبي وسؤاله إياه أن يدعو له بالغنى والثروة، وقد أشارت الآيات المباركات إلى بعض ما جاء في القصة من

معاهدة هذا الرجل للنبي بأنه سيتصدق ويكون من الشاكرين لكنه أخلف الله ما وعده! وأن نتيجة ذلك كانت: ابتلاءه بالنفاق! وسواء قلنا كما ذهب إليه بعض المفسرين أن فاعل (أعقبهم) هو البخل يعني أن البخل أنتج النفاق، أو أن الفاعل هو (الله سبحانه). فهذا لا يغير المطلوب.

ولأنها تسبب هذا الحرج الكبير حتى لتأتي على أساس تلك الفكرة، فقد جهد المحدثون والرجاليون منهم في تضعيف القصة بكل طرقها تارة، وبادعاء وجود أشخاص متعددين وليس واحدا كبطل للقصة، وغير ذلك!

كما أن بعضهم سلك طريقا آخر لتكذيبها بافتعال تعارض بين ما رووه عن النبي من أنه قال: لعل الله اطلع إلى اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم! وقيل إن حاطب هو أحد من شهد بدرا، فإذن لا يمكن أن يكون قد أعقب نفاقا في قلبه! ونقول: إن المشكلة لا تزال باقية فإما أن تكون الآية غير صحيحة! أو أن الحديث المذكور غير تام! أو أنه لو صح فتفسيره بما هو معروف غير صحيح!

٢. إن ما حصل من نفي المفسرين والمحدثين لهذه القصة ليدل دلالة واضحة على مقدار تدخل العقائد في نفي وإثبات الحقائق التاريخية، فإن من هؤلاء من لا يتردد في نفي حقيقة ثابتة وقصة واقعة، لأنها تعارض بعض عقائده وتنافيها. وفي المقابل محاولة تقوية رواية ضعيفة وحشد الشواهد لها من أجل أنها تعضد بعض عقائده وآرائه! فكم من التاريخ قد ألغي وكم من المفتعلات والمصطنعات قد قوي؟

ولولا أن نخرج عن مسار البحث، لكان هناك مجال واسع للتفصيل في إثبات القصة وبيان الدروس والعبر منها!

ومما أشار إليه القرآن الكريم، الدور الخبيث الذي يقوم به البخيل في إشاعة

هذه الخصلة السيئة في المجتمع فهو لا يكتفي بالآثار التي ستترتب عليه هو حيث يبخل (عن) نفسه ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾، واستعمال الحرف (عن) أبلغ من على، فإن في معنى (عن) التجاوز والتخطي، يعني أنه يبخل متجاوزا حظ نفسه، وهو أنسب لما بعده من قول الله تعالى ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾. بل يتجاوز الأثر الفردي إلى الاجتماعي عندما يكون من أولئك الجماعة ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ فهؤلاء أولا هم جماعة متعاضدة مترابطة وليسوا أفرادًا، وهم أيضًا يأمرون الناس بالبخل، ويظهر أن الأمر لا يختص بكتمان العلم كما ذهب إليه بعض المفسرين، وإنما يشمله والمال أيضًا وشاهده أن ما بعد هذه الجملة جاءت بكتمان العلم ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، مما يشير إلى تخالفهما وتغايرهما ولذلك لا نعتقد أنها خاصة باليهود كما ذهب إليه بعضهم.

إن البخيل يرى في وجود السخي فضيحة له، فيتمنى لو لم يكن هناك أسخياء، وإذا وجدوا سعى لتحذيرهم من العطاء، وتوعده بالفقر والمستقبل المظلم، وأن طريقته تلك تنتهي إلى إتلاف الأموال[1]!

أو ربما قال له إن من تعطيهم كذابون، وليست حاجتهم حقيقية، وإنهم مزورون! ولا بد من التأكد قبل دفع الأموال، بالرغم من أنه لا يخسرها من جيبه! لكن كما قلنا فإن وجود السخي هو فضيحة للبخيل! فلا يستطيع تحمل وجوده!

---

(١) قال ابن أبي الحديد في شرح النهج ٦/ ٦٥.. ان قيس بن سعد بن عبادة كان مع بعض أصحاب النبي في سفر في حياة رسول الله ﷺ، فكان ينفق عليهم ويفضل. فقال له أحدهم إن هذا لا يقوم به مال أبيك، فأمسك يدك!، فلما قدموا من سفرهم، وعلم والده سعد بن عبادة بمقالته قال له: أردت أن تبخّل ابني؟، إنا لقوم لا نستطيع البخل!.

توسعة مفهوم البخيل في الأحاديث:

بالرغم مما قدمنا من تعريف البخل والبخيل، وأنه من يمنع ماله وفضله عمن لا يستحق أن يُمنع عنه، وكأنه أخذ فيه جانب التفضل والامتنان على الغير، إلا أن بعض الروايات أضافت مصاديق أخر للبخيل، وكأنها وسعت دائرة البخيل. فمن تلك الروايات، ما عن نبينا المصطفى محمد ﷺ، يقول: «إِنَّمَا الْبَخِيلُ حَقُّ الْبَخِيلِ مَنْ لَمْ يُؤَدِ الزكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ مِنْ مَالِهِ، وَلَم يُعْطِ النَّائِبَةَ فِي قَوْمِهِ، وَهُوَ يُبَذِّرُ».

فبينما تراه مثلا في القضايا الاجتماعية سخيًا ففي كل يوم له دعوة، وبيته لا يخلو من المدعوين إلى الطعام! وهذا بالتعريف السابق ليس بخيلا، إذ أنه لم يمنع ماله من يستحقه، بل ربما دعا من لا يستحق وأطعمه، فهو بناء على هذا ليس بخيلا بالتعريف المذكور، ولكنه في ما يرتبط بالواجبات المالية التي أوجبها الشرع كالزكاة (والخمس عند الإمامية) يكف يده ولا يؤدي ما فرض عليه! هنا قد عبرت عنه الرواية النبوية أنه البخيل حق البخيل! وكأن النبي ﷺ يريد القول: إنه إذا كانت القضية قضية سخاء نفس وسبق عطاء، فينبغي أن يكون سخاء الإنسان في أداء حق الله عز وجل أسرع من حركته في العطاء الاجتماعي المستحب، لا سيما مع قيد أنه البخيل من يمنع من لا يستحق! ولا ريب أن ما جعله الله واجب الانفاق كالزكاة وباقي الحقوق المالية هي مما لا يصح أن تمنع، وأن حق الله أولى بالمراعاة.

يقال لمثل هؤلاء؛ إنه قد لا يكون مطلوبا منك في شهر رمضان مثلا أن تقوم بعمل إفطارات، وتنفق فيها ما تنفق بمقدار ما هو مطلوب منك أن تؤدي الحق المالي المفروض عليك.

والزكاة الواردة في الحديث تعبير عن عموم الحق المالي الواجب، لا الزكاة الاصطلاحية فقط – أي: بخل عن أداء حقه الشرعي، فهذا لا يعد سخيًا، وإن كان

يعزم الناس، ويعقد القراءات، ويصنع الاحتفالات، وما شابه ذلك. فهذه توسعة لدائرة البخيل، شملت: من منع حق الزكاة المفروضة.

وتشير إلى هذا المعنى أيضًا رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، يقول فيها: «إِنَّمَا الشَّحِيحُ مَنْ مَنَعَ حَقَّ اللهِ وَأَنْفَقَ فِي غَيْرِ حَقِّ اللهِ».

كما أن هناك توسعة لمفهوم البخيل في جهة أخرى، وهي اعتبار الروايات المتوقفَ عن الصلاة على النبي وآله، هو البخيل حقاً، فإن مفاد روايات: أن البخيل حقا هو من بخل بالصلاة على النبي محمد وآله. ففي الخبر عنه صلى الله عليه وآله «الْبَخِيلُ حَقًّا مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»[1]. وفي هذا الحديث دقة متناهية ذلك أن الإنفاق المالي يفقد المنفق بعض ماله عادة وهذا ما يجعل البخيل يمتنع من الانفاق خوفا على ماله من النفاد، فيمكن أن يجد له تبريرا من جهة نفسه! فلو كان له عذر وتبرير (ولو صوري) هنا فما الذي يخسره عندما يصلي على النبي وآله عندما يذكر؟ وما الذي يفقده عندما يرسل الصلوات عليه وعليهم؟ إنه سيربح الكثير من الثواب والأجر ولن يخسر مالا، ولا يكلفه ذلك مشقة أو جهدًا بدنيًا متعبًا؟ فلماذا لا يفعل؟ إنه البخيل حقًا !

كما أن الروايات اعتبرت من يترك إلقاء السلام على الآخرين، أحد مصاديق البخيل، بل ربما عبرت عنه بعضها بأنه أبخل البخلاء!

---

(١) فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: حيثما كنتم فصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني (وعنه أيضا: الصلاة عليّ نور على الصراط. وكذلك: عنه صلى الله عليه وآله: من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب. وما يتصل مباشرة بالموضوع: إن أبخل الناس من ذكرت عنده ولم يصل علي.. إلى كثير من الروايات التي نقلها في ميزان الحكمة ٢/ ١٦٦٢.

إن السلام والتحية به (السلام عليكم) هو شعار المسلمين[١]، وتحية الله للناس، وقد جعل الله جنته دار السلام. هذه التحية الدنيوية والأخروية ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾، ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ فإذا امتنع الشخص منها مع ما يترتب عليها من الثواب الأخروي حيث أنها من موجبات المغفرة، وفيها قرابة سبعين ضعفا للمبتدئ من الدرجات بالقياس للراد والمجيب، بالإضافة إلى المنافع الدنيوية، ولا أقل من تحصيل الأمان بإلقاء السلام وتحبيب نفسه لمن يسلم عليهم، وفي مقابل ذلك لا يخسر البادئ بالسلام شيئا، ولذا فإن من يمتنع مع هذا عنه يكون «أَبْخَلُ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلَامِ».

---

(١) ورد التاكيد على السلام في كثير من الأحاديث منها كما جاء في ميزان الحكمة ٢/ ١٣٤٨ عن رسول الله ﷺ: (إذا تلاقيتم فتلاقوا بالتسليم والتصافح).

وعنه ايضا (إن من موجبات المغفرة بذل السلام)، (إن أولى الناس بالله وبرسوله من بدأ بالسلام) وعن الإمام علي عليه السلام: السلام سبعون حسنة، تسعة وستون للمبتدي وواحدة للراد وعن الإمام الصادق عليه السلام: السلام تحية لملتنا، وأمان لذمتنا.

هل أنت بخيل مع اللّه؟

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾[1].

البخل بمفهومه الذي تقدم، له تعلقات متعددة، فقد يتعلق بالأسرة، وقد يتعلق بعموم المجتمع، وقد يتعلق بالله سبحانه.. وهذه الصفحات تتناول هذا الجانب وهو البخل مع الله عز وجل.

ذلك أن من جملة ما تعبد الله الإنسان به، تعبده بالعطاء والإنفاق الواجب والمستحب. فكما شرع الله عبادات ترتبط بالبدن: كالصوم والصلاة مثلا. شرع عبادات ترتبط بالمال والإنفاق: كالزكاة والخمس، والصدقة المستحبة، وأمثال ذلك.

وفيما تجد قسما من العباد يحسنون العلاقة مع الله في كلا الجانبين العباديين

---

(١) الليل:٥-١١.

(البدني، والمالي) فتراه كما يصلي يزكي. وكما يصوم ينفق. تختل العلاقة المالية لقسم آخر مع الله عز وجل. سواء في القسم الواجب منها أو المستحب. ولعل مرجع ذلك إلى التمسك بالمال، والحرص عليه، والبخل به. حتى ليصل الأمر إلى درجة التكذيب، كما سيأتي الحديث عنه.

وتصنف هذه الآيات المباركات الناس إلى صنفين: ﴿مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ و ﴿مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾.. وهما موجودان في كل الأزمنة، وليسا فرضيين ونظريين! فقد ذكروا في سبب نزول الآيات حادثة حدثت في زمان رسول الله محمد ﷺ، ونقلها الواحدي في كتابه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فَرْعُهَا فِي دَارِ رَجُلٍ فَقِيرٍ ذِي عِيَالٍ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا جَاءَ وَدَخَلَ الدَّارَ فَصَعِدَ النَّخْلَةَ لِيَأْخُذَ مِنْهَا التَّمْرَ فَرُبَّمَا سَقَطَتِ التَّمْرَةُ فَيَأْخُذُهَا صِبْيَانُ الْفَقِيرِ، فَيَنْزِلُ الرَّجُلُ مِنْ نَخْلَتِهِ حَتَّى يَأْخُذَ التَّمْرَةَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَإِنْ وَجَدَهَا فِي فَمِ أَحَدِهِمْ أَدْخَلَ إِصْبَعَهُ حَتَّى يُخْرِجَ التَّمْرَةَ مِنْ فِيهِ، فَشَكَا الرَّجُلُ ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ - صلى الله عليه وَسَلَّمَ - وَأَخْبَرَهُ بِمَا يَلْقَى مِنْ صَاحِبِ النَّخْلَةِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وَسَلَّمَ - «اذْهَبْ»، وَلَقِيَ صَاحِبَ النَّخْلَةِ وَقَالَ: «تُعْطِينِي نَخْلَتَكَ الْمَائِلَةَ الَّتِي فَرْعُهَا فِي دَارِ فُلَانٍ وَلَكَ بِهَا نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ؟».

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: لَقَدْ أَعْطَيْتُ، وَإِنَّ لِي نَخْلًا كَثِيرًا وَمَا فِيهَا نَخْلَةٌ أَعْجَبُ إِلَيَّ ثَمَرَةً مِنْهَا، ثُمَّ ذَهَبَ الرَّجُلُ فَلَقِيَ رَجُلًا كَانَ يَسْمَعُ الْكَلَامَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُعْطِينِي مَا أَعْطَيْتَ الرَّجُلَ نَخْلَةً فِي الْجَنَّةِ إِنْ أَنَا أَخَذْتُهَا؟

قَالَ: «نَعَمْ»، فَذَهَبَ الرَّجُلُ فَلَقِيَ صَاحِبَ النَّخْلَةِ فَسَاوَمَهَا مِنْهُ فَقَالَ لَهُ: أَشَعَرْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَعْطَانِي بِهَا نَخْلَةً فِي الْجَنَّةِ فَقُلْتُ: يُعْجِبُنِي ثَمَرُهَا؟ فَقَالَ لَهُ الْآخَرُ: أَتُرِيدُ

بَيْعَهَا؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أن أُعطَى لها مَا لَا أَظُنُّهُ أُعْطِيَ. قَالَ: فَمَا مُنَاكَ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ نَخْلَةً قَالَ لَهُ الرَّجُلُ: لَقَدْ جِئْتَ بِعَظِيمٍ، تَطْلُبُ بِنَخْلَتِكَ الْمَائِلَةِ أَرْبَعِينَ نَخْلَةً؟ ثُمَّ سَكَتَ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ: أَنَا أُعْطِيكَ أَرْبَعِينَ نَخْلَةً، فَقَالَ لَهُ: أَشْهِدْ لِي إِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَمَرَّ نَاسٌ فَدَعَاهُمْ فَأَشْهَدَ لَهُ بِأَرْبَعِينَ نَخْلَةً، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وَسَلَّمَ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ النَّخْلَةَ قَدْ صَارَتْ فِي مِلْكِي فَهِيَ لَكَ، فَذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وَسَلَّمَ- إِلَى صَاحِبِ الدَّارِ فَقَالَ: «إِنَّ النخلة لَكَ وَلِعِيَالِكَ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾.(١)

فما أبعد ما بين السعيين! وما أشد فرق الشخصيتين! الأول الذي ينتزع التمرة من فم طفل فقير ويستخرجها من أعماقه! وهو مستغن عنها.. ولا يثق بوعد رسول الله إياه أن يعطيه الجنة بتلك النخلة المائلة! فلا يرى الجنة ثمنا لها أو لا يثق بوعد النبي ويكذب بالحسنى.. لكنه يثق بالمال الدنيوي الحاضر والنخلات الأربعين!

والثاني الذي هو أجنبي عن القضية! لكنه بعدما سمع القصة ورق قلبه للفقير وأولاده وسمع النبي يعده بالجنة لو أعطى تلك النخلة، فذهب يشتري النخلة ليعطيها للفقير وأولاده، ومع عظم الثمن لجشع مالك النخلة حيث بلغ أربعين ضعفا وهذا يكشف عن نفسية جشعة حريصة على الجمع بقدر ما كانت بخيلة شحيحة على الغير! لكن هذا الذي يصدق بالحسنى والجنة، ويثق بوعد النبي محمد ﷺ يقدم على هذه الصفقة ويراها رابحة له، ما دامت ستجلب له الجنة، وستجعل هذه العائلة تشبع من تمر النخلة تلك.

هما عقليتان: عقلية: وما عاقل باع الوجود بدين، والتي أوردت عمر بن سعد

---

(١) الواحدي؛ علي بن أحمد: أسباب النزول ١/ ٤٥٦.

مهلكته في إقدامه على قتال الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء طمعا في ملك الري الذي كان أمنيته الدنيوية، في مقابل عذاب الآخرة!

وعقلية: أعطى واتقى وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى!

ويقدم القرآن هذين النموذجين بعنوان عريض: إن سعيكم لشتى ـ يعني مختلف ـ وإنما المدار هو على السعي والموقف والعمل لا الادعاء، فإن كلا الطرفين في الحادثة كان عنوانهما العام أنهما مسلمان وممن عاصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن السعي مختلف والموقف متفاوت، ما بين بخيل لا يثق بوعد النبي ولا ينتظر الآخرة وثوابها وبين آخر يعطي ويتقي ويصدق بالحسنى!

هل أنا أو أنت عزيزيّ القارئ والقارئة، من الصنف الأول أو الثاني؟ هل أصدق بالحسنى وبما وعد الله سبحانه سواء كانت الدعوة في أمر عبادي بدني كالصلاة والصوم أو في شأن عبادي مالي كالزكاة والانفاق؟

إن الله سبحانه وتعالى وهو الغني الذي يرزق عباده لا يحتاج إلى المال، حتى تعطيه! ولكن العطاء لأخيك المؤمن ـ في سبيل الله ـ هو امتحان واختبار! والطريف أن القرآن الكريم يعبر عن تلك العملية بالإقراض حيث أن المقرض ينتظر عودة ما أقرضه، والمقترض يرى نفسه مطالَبا بإعادة ما اقترضه للمقرض! هذا مع أن كل شيء هو من الله تعالى ومن عطاياه!: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾(١) وإذا كان الربا في القرض ما بين البشر محرمًا، فإن الله سبحانه كتب على نفسه أن يعيد لمن (يقرضه) العطاء أضعافا كثيرة! وسبحان الله فإن الله يعطي البشر وينعم عليهم ثم يستقرضهم بعضها ثم يرد لهم ما استقرضه ـ منهم وهو في الأصل من عطائه إياهم ـ لا بالمقدار الذي تم اقتراضه وإنما أضعافًا كثيرة!

---

(١) البقرة: ٢٤٥.

ومن هنا نعرف كم يكون العبد جاحدًا لربه عندما يتخلف عن العبادات المالية، فإنه كما ذكرنا مع أن الله سبحانه هو الذي أعطى عبده ورزقه من غير استحقاق بل ومن غير طلب أو بعد الطلب ثم استقرضه بعض ما رزقه واعدا إياه بالأضعاف الكثيرة في الدنيا والآخرة!! ولكن العبد يأبى ذلك ولا يقبله كما اشار إليه الإمام السجاد في دعاء أبي حمزة الثمالي (وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي أَسْأَلُهُ فَيُعْطِينِي، وَإِنْ كُنْتُ بَخِيلًا حِينَ يَسْتَقْرِضُنِي)[١] وأوضح منه ما في تتمة[٢] دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة (وَانْتَ الْوَهّابُ ثُمَّ لِما وَهَبْتَ لَنا مِنَ الْمُسْتَقْرِضينَ).

ولو أردنا أن نمثل بمثال يتبين فيه مقدار الجحود، لقلنا إن شخصًا قد بادر وأعطاك مبلغًا ضخمًا من المال مع أنه كان بإمكانه ألّا يفعل، وفي اليوم التالي لذلك العطاء حصلت له حاجة، فجاء يستقرض مما أعطاك ٣٪ على أن يؤديها لك بعشرة أضعافها، فإذا بك ترفض إقراضه من المال الذي منحه لك مجانا مع حاجته له واستغنائك عن ذلك المقدار! ألا يعد هذا من أظهر أنحاء الجحود وقلة الأخلاق؟

ربنا سبحانه وتعالى ابتدأنا بالنعم، وأولها نعمة الوجود بعد أن لم نكن ﴿شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ فلما أوجدنا عطف علينا قلوب الحواضن وكفّلنا الأمهات الرواحم، وكلأنا من طوارق الجان، وسلمنا من الزيادة والنقصان، ثم رزقنا بأنواع المعاش وصنوف الرياش[٣] وواتر علينا النعم، وسخر لنا الفلك تجري في البحر بأمره وسخر لنا الأنهار، وسخر الشمس والقمر دائبين وسخر الليل والنهار، بل آتانا من

(١) القمي؛ الشيخ عباس: مفاتيح الجنان.

(٢) هناك نقاش في أن تكون الفقرة التي ذكرها السيد ابن طاووس الحسني بعد الدعاء المعروف هي جزء منه أو أنها ليست جزءا، وإنما أضيفت إليه وأنها للشيخ الصوفي عطاء الله الاسكندري المتوفى سنة ٧٠٦ هـ ولتحقيق الأمر يراجع سلسلة حلقاتنا في شرح دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.

(٣) لتفصيل هذه النعم ومراحلها يراجع دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.

كل ما سألناه[١]!

ها هو ربنا سبحانه يقترض منا! لصالح عباده الآخرين بعض ما أعطانا إياه، مع أنه تعالى وعدنا وهو ﴿لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٢]. بأنه يخلفه في هذه الدنيا ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾، وأضعافا كثيرة في الآخرة ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، ولكن البخيل منا يأبى ذلك ويرفض! ولذلك -وكما ذكرنا في صفحات سابقة- كان من لم يؤد ما افترض الله عليه من فرائض المال من أوضح مصاديق البخيل بل الشحيح! ففي الحديث عن زرارة، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إِنَّمَا الشَّحِيحُ مَنْ مَنَعَ حَقَّ اللهِ وَأَنْفَقَ فِي غَيْرِ حَقِّ اللهِ».

ويمثل بعض التربويين العلاقة بين العبد البخيل وبين خالقه بهذا المثال. يقول: إنه كان صاحب مال وفير عزم على سفر يطول، ولديه بالإضافة إلى عياله عبد أراد أن يوكله في أموره حين سفره الطويل، فجاء إليه ووهبه كل ثروته وكانت عظيمة، بشرط أن ينفق ٨٠٪ منها على عياله، وللعبد ٢٠٪، فرآها العبد شيئا كبيرا جدا! وقبل على الفور، ثم انطلق التاجر للسفر وقبل أن يجد به السير، فكر قائلا لعل العبد يستقل المبلغ، فرجع وقال له: لك ٤٠٪ من كل ثروتي هذه لكن أنفق منها ٦٠٪ على عيالي! فاستعظم العبد هذا المبلغ، ولكن التاجر أصر عليه، وهكذا انطلق للسفر، ولكنه عاد ليخبره أن له ٦٠٪ شريطة أن ينفق ٤٠٪ على العيال.. وهكذا لم يزل ينزل حتى استقر على أن يكون للعبد ٨٠٪ بينما يعطي لعيال التاجر ٢٠٪، وسافر لكن العبد لم ينفق حتى هذه العشرين بالمائة من ثروة سيده على عياله وإنما

---

(١) ابراهيم: ٣٢ـ ٣٤، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

(٢) آل عمران: ٩.

استهلك المال كله لنفسه! أترى هذا العبد شاكرا؟ أو جحودا؟

ربنا سبحانه أعطى عباده هذا المال بكامله والنعم بتمامها ثم أوجب عليهم زكاة أموالهم وهي بمقدار إثنين ونصف في المئة، وخمس ما زاد عن مؤونتهم، وندب إليهم مساعدة الضعفاء من خلقه، فلم يقم البعض بأداء هذه الفرائض، واستحق بذلك لقب (الشحيح) كما في رواية الإمام الصادق عليه السلام.

إن ما يدفع هؤلاء للامتناع عن الاستجابة لما فرض الله عليهم في أموالهم وما أنعم الله عليهم، هو أمور منها:

١. سوء الظن بالله عز وجل، وكونه بما في يده أوثق منه بما عند الله عز وجل. فلسان حاله يقول: إذا أعطيت زكاتي وخمسي، كيف سأعيش غدا إذا كبرت؟ وضعفت مني القوى؟ وأولادي كيف أوفر لهم حياة كريمة؟ لماذا نقول إن هذا من سوء الظن بالله عز وجل.؟ لأن الله قال ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فلم نصدق قوله، بينما وعدنا الشيطان الفقر وصدقنا مقالته ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، بل قد يكون الشخص أحسن ظنا بالرصيد الموجود في حسابه من ربه مالك كل شيء! ربنا الذي وعد بأن ما أنفق الإنسان من شيء فإن الله يخلفه عليه، بل تهدد الممسكين بتلف المال وبشر المنفقين بسعته كما في حديث «إِنَّ للهِ مَلِكًا يَنْزُلُ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ فَيُنَادِي اللهُمَّ أَعْطِ كُلَّ مُنْفِقٍ خَلَفًا وَكُلَّ مُمْسِكٍ تَلَفًا».

سل نفسك من أصدّق؟ الخمسمائة ريال والمئة دولار؟ أو ربَّ كل شيء؟ نصدق الله سبحانه وتعالى، أو نصدق هذه الورقة؟!

---

(١) البقرة: ٢٦٨.

من كان هكذا، ينبغي أن يراجع إيمانه. ذلك أن الإنسان البخيل، لا تنحصر مشكلته في يد لا تعطي، بل مشكلة قلب يسيء الظن بالله عز وجل. فيصل إلى مرحلة الخلل العقيدي: فلا يعتقد بالحسنى، ولا بيوم القيامة. ليقول: بيعوا هذا الكلام في سوق أخرى.

٢. الخوف المَرَضي من الفقر. فيشح على الآخرين، ويشح على أهله، بل يشح على نفسه. فهو يعيش في دائرة من الخوف والوجل التي تجعله يعيش في هذه الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب حساب الأغنياء! وهذا يرتبط أيضًا بشدة التعلق بالمال.

يذكر الجاحظ في كتابه: البخلاء[(١)] عن بخيل بلغ الغاية فيه كان إذا جاء إليه الدرهم وصار في يده، قلبه يمينا وشمالا، ثم خاطبه وناجاه. (وشتان بينك العبد الصالح تناجي ربك في جوف الليل وهذا يناجي درهمه!!) فقال مفديا إياه: «بأبي أنت وأمي، أنت ديني وصلاتي وصومي وجامع شملي ومؤنس وحشتي، كم أرضًا قطعت، وكم كيسًا فارقت وكم من خامل رفعت، وكم من رفيع أخملت، إن لك عندي ألا تعرى، وألا تجوع فيها وألا تضحى»، ثم يدخله إلى جيبه وكيسه، ويقول: «نم قرير العين»!.

لعل هذا الصورة، مضحكة بالنسبة إليك لكنها قد تكون صورة عملية عند قسم من الناس، وإن لم يقل هذا الكلام. لكنه يعتقد أن هذا الدرهم هو كل شيء بالنسبة إليه. ولذا فهو مستعد أن يرد أمر الله عز وجل، في مقابل أن يحتفظ بدرهمه.

ويستمر في حياته كذلك حتى إذا شارفت على الانتهاء، تأسف في أنه لم يعمل ما كان واجبًا عليه، فلا هو ذهب إلى الحج الواجب عليه، ولا دفع الزكاة المستحقة

(١) الجاحظ؛ عمرو بن بحر: البخلاء ١/ ١٧٤.

عليه فضلًا عن أن يكون عمل أعمالا خيرية ومبرات، وها هو قد وضع رجله على أول عالم الآخرة ليكون بعد قليل من أهل القبور! ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾.وقد ورد في تفسيرها عن المعصومين: «هُوَ الرَّجُلُ يَدَعُ مَالَهُ لاَ يُنْفِقُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ بُخْلاً، ثُمَّ يَمُوتُ، فَيَدَعُهُ لِمَنْ يَعْمَلُ فِيهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ، أَوْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ؛ فَإِنْ عُمِلَ بِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ رَآهُ فِي مِيزَانِ غَيْرِهِ، فَزَادَهُ حَسْرَةً وَ قَدْ كَانَ الْمَالُ لَهُ، وَإِنْ كَانَ عُمِلَ بِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ قَوَّاهُ بِذَلِكَ الْمَالِ حَتَّى عَمِلَ بِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ»[1].

(١) الكافي ٤/ ٤٢ ط الاسلامية.

البخل العاطفي والبخل المالي

قد يكون الإنسان بخيلا بماله وقد تقدمت الاشارة إليه وقد يكون بخيلا بعواطفه ومشاعره، وكلا الأمرين سيء من الناحية الأخلاقية.

ويتصف بعض الناس بالبخل في المشاعر والعواطف، فتراه لا يبدي محبته لمن يحب، ولا يظهر إعجابه لمن يعجب به، ولا يعبر عن حنانه لمن يحن عليه. وهذا قد يكون راجعًا إلى خشونة الطبع أصلا وقد يكون البخل العاطفي حتى مع وجود العواطف والمشاعر ولين النفس.

وحياة القسم الأول عسيرة، وحياة من يعيش معه أكثر عسرًا، فإن هذا تحيته مشاجرة! وترحيبه صراخ! وأهون ما عنده هو الخشونة! وكأن الله سبحانه حين قسم الرحمة في قلوب عباده، كان هذا غائبًا (!).

نقل في سيرة سيدنا ومولانا رسول الله محمد ﷺ أنه دخل عليه أحد الأعراب - قيل أنه: الأقرع بن حابس، وقيل عيينة بن حصن فرأى هذا الرجل النبيَّ ﷺ قد وضع الحسن والحسين على فخذه، وينحني تارة فيقبل هذا، وأخرى يلاطف ذاك. فما استحسن هذا الرجل الأمر، وقال له: مَاذَا تَفْعَلُ؟ إِنَّ لي عَشَرَةً فَلَا وَاللهِ مَا قَبَّلْتُ

أَحَدَهُم يَوْمًا». فقال النبي ﷺ فيما روي عنه: «مَا أَصْنَعُ إِنْ كَانَ اللهُ قَدْ نَزَعَ الرَّحْمَةَ مِنْكَ».[١]

إن من كمال إنسانية الإنسان أن يحن ويحب وأن يشفق ويرفق، وكلما كان أكثر إنسانية أبدى عواطفه وأظهر مشاعره، بل إننا نجد الحيوانات، بالنسبة إلى صغارها، تبدي هذا الأمر وتتعطف عليها وتتحنن.

وأما القسم الآخر فهو يمتلك عواطف ومشاعر في داخله تجاه أهله وأسرته والآخرين، لكنه ـ لأسبابٍ ـ لا يبديها! ومن تلك الأسباب ما هو ثقافة خاطئة في الحياة الزوجية، مثل الربط بين الضعف وبين التحنن وابداء المشاعر، وبين قوة الشخصية وإظهار القسوة.

إن تربية (البداوة) تجعل من إبداء المحبة للأبناء، والبنات، وللزوجة، والأخوات ليس مناسبًا من الرجال ولا هو شغلهم! فالرجل لا بد أن يكون قويًا كما يقولون، ولأجل هذا لا ينبغي أن يظهر تلك المشاعر فإنها من علائم الضعف!

وفي موضوع الزوجة فالأمر أوضح فإنهم يتصورون أن إبداء المحبة والعواطف لها، يجعلها (تركبه)! وأن عليه أن يريها (العين الحمرا) حتى تخضع له وتستجيب! ويتبادل هؤلاء كلمات في كل منطقة تشير إلى توهين شخصية من يتعشق زوجته ويتحبب إليها مثل أنه (خروف) أو أمثال ذلك!

---

(١) وردت الرواية بصيغ متعددة كما في ميزان الحكمة ٤/ ٣٦٧٠:.. كان رسول الله ﷺ يقبل الحسن والحسين فقال عيينة – وفي رواية غيره: الأقرع بن حابس –: إن لي عشرة ما قبلت واحدا منهم قط، فقال ﷺ: من لا يرحم لا يرحم. وفي رواية حفص الفراء: فغضب رسول الله ﷺ وسلم حتى التمع لونه وقال للرجل: إن كان الله قد نزع الرحمة من قلبك فما أصنع بك! من لم يرحم صغيرنا ولم يعزز كبيرنا فليس منا.

وربما تكون العائلة عمومًا أو الزوجة خصوصا قد تعودت على هذا حتى لو أبدى الرجل عواطفه، لرأوا ذلك عجيبا بل ومستهجنا!

نقل أحدهم، قائلا: أنا وزوجتي من أعمار الخمسينات، وكانت حياتنا السابقة مؤطرة بجفاف عاطفي، ومع أننا لم نكن متغاضبين، لكن حياتنا كانت هكذا آتي للمنزل، والغداء جاهز، فنأكل، وهي بدورها تطلب هات الشيء الفلاني، وأوصل الشيء الكذائي، طفلك مريض خذه للمستشفى، والآخر يحتاج إلى مذاكرة، والممارسة الجنسية أيضًا هي بحسب الحاجة! وأما إبداء العواطف والمشاعر فلا وجود لها، يقول المتحدث: بعد هذا سمعت عن استحباب قول الرجل لامرأته إني أحبك،[1] وأنه ينبغي أن يبدي لها ذلك..

فالتفت إلى أن حياتنا خالية من هذا! فأحببت أن أغير في حياتنا بحيث تكون عاطفية أكثر وحميمية، فذهبت إلى البيت، وقلت لزوجتي: فلانة أنا أحبك كثيرًا، وأنت حياتي، وجمال عمري. فأصبحت تمعن النظر فيَّ متعجبة: وكأنها تقول: ماذا حدث له! هل أصيب في عقله بشيء؟! أو أنه ـ لا سمح له ـ تناول شيئا؟! فلما أفهمتها أني في كمال وعيي وأني أريد (تلوين حياتنا وجعلها عاطفية أكثر) فاجأتني بالقول: «خلك ثقيل شوي»!. فكان هذا آخر عهده بإبداء هذا الكلام معها وإظهار المشاعر لها!

وقد يكون هذا في صفوف المتدينين ـ مع الأسف ـ أكثر من غيرهم، فإن بعضهم يفكرون أن هذه الأمور لا تليق بهم إنما بالأفلام والممثلات!

بينما لو نظرت هذه إلى مقدار المشاعر والعواطف التي كان يبديها رسول الله ﷺ لزوجته خديجة وابنته فاطمة عليها السلام لما اعتبرت قلة العواطف وعدم إبدائها

---

(١) الكافي ٥ / ٥٦٩ عن رسول اللّه ﷺ: قول الرجل للمرأة إني أحبك لا يذهب من قلبها أبدا.

متانة في الشخصية! بل عكسها هو الذي يعبر عن متانة الشخصية وتعادلها، فكل شيء في موقعه يعبر عن التوازن! لقد كان النبي يكرر أنه رُزق حب خديجة في أيام حياتها ويذكر صفاتها الحسنة أيام حياتها، بل بعد موتها. مع أن عادة الرجل عندما تتوفى زوجته، يقل حضورها في حياته، ولا سيما بالنسبة لرسول الله الذي تزوج عدة نساء بعد خديجة. لكنه مع ذلك كان يكثر الثناء عليها، ويتحرى مواضع إرسال رسائل المودة المعربة عن ذلك فيكرم فلانة لأنها كانت تزور خديجة.

وعندما يسمع صوت أخت خديجة وهي تطرق الباب وتسلم، فيسمع في صوتها صوت خديجة مع أن عمره الشريف آنئذ كان في حوالي الخمسينات من العمر، ولا نراه يقول ـ كالزوجة التي مر علينا ذكرها: كن ثقيلًا، أونحن كبرنا على هذه المسائل. بل بالعكس، إذا كبر الإنسان، فقد أصبح ناضجًا وهو محل العواطف والمشاعر ارسالًا واستقبالًا. فإذا كانت العواطف في مرحلة ممزوجة بالأمر الجنسي والدافع البدني والجسدي، فإنه مع كبر الإنسان ينضج فيه الجانب العاطفي والمشاعري ويقوى أكثر. بخلاف البدن الذي يتراجع: حتى لقد قال النبي: إن الله قد رزقني حبها.(١)

وكذلك عندما يتحدث عن ابنته فاطمة، فهو يبدي محبته لها ويقول «فَاطِمَة بَهْجَةُ قَلْبِي»، «بِضْعَةٌ مِنِّي»، «رُوحِي الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيَّ»، «ثَمَرَةُ فُؤَادِي».

واما الإمام الحسين عليه السلام فإنه يتحدث عن زوجته الرباب بما اشتهر عنه:

لَعُمْرُكَ إِنِّي لَأُحِبُّ دَارًا   تَحِلُّ بِهَا سُكينةُ وَالرَّبَابُ
أحبهما وأبذل كل مالي   وليس لعاتب عندي عتاب

---

(١) ينابيع المودة ٢/ ٥١.

ويطول الحديث لو أردنا أن نتعرض إلى ما كان لسائر الأئمة عليهم السلام من سخاء في إبداء العواطف لزوجاتهم وبناتهم وأبنائهم لطال الحديث.[١] وسيتبين أن البخل العاطفي والجفاف في المشاعر وعدم إبداء تلك العواطف والمشاعر ليس عليه سيرة أئمة الهدى عليهم السلام.

هذا عن البخل العاطفي. وأما عن البخل بالمال، فأسوأ شيء أن يبخل الإنسان بماله على أسرته. إذ لمن تجمع المال؟ إنما لكي تنفق على نفسك، وعلى أقرب الأقربين إليك، وزوجتك هي أقرب الأقربين، وكذلك أبناؤك و بناتك، ودائرة أرحامك، كل بحسب قربه منك..

وللأسف فإننا نجد صورا سيئة فيما يرتبط بالشح والبخل بالأموال على من يعول الإنسان.

فقد يشتكي بعضهم، إنه قد تأخر به العمر، مع أن والده متمكن ماليًا وحتى الآن لم يهيئ أموره للزواج، بينما يبخل عليه والده بالمساعدة بحجة أنه يريد منه أن يعتمد على نفسه وأن يعرف قيمة المال عندما يحصل عليه بتعبه!

ومع أن هذا الكلام له وجه صحة، فإنه لا تدل التجارب على أن كل من رغب في الزواج بمجرد بلوغه ينبغي المسارعة إلى تنفيذ تلك الرغبة وإن كان ربما تشير إليه بعض الأحاديث [٢]، غير أنها بجمعها مع سائر الأحاديث يمكن تقييدها بكونه ناضجا ومتحملا لمسؤولية الزواج وإدارة المنزل!

إلا أنه لا يصح أن يتخذ مبررًا وسببًا للبخل على الأبناء، والتضييق عليهم، وهذا

---

(١) للتفصيل يراجع كتابنا الحياة الشخصية لأئمة أهل البيت عليهم السلام.

(٢) جامع أحاديث الشيعة ٢١/ ٣٣٢، كما عن رسول الله صلى الله عليه وآله من حق الولد على والده ثلاثة يحسن اسمه ويعلمه الكتابة ويزوجه إذا بلغ.

ما يلاحظ في حال الآباء البخلاء، والشاهد الذي لا يخطئ أنه لو تم تدبير المال للزواج من مصدر آخر (كأقارب أو طلب مساعدات) لوجدت هذا الأب يركض في اليوم الثاني مباركا الزواج ومشجعا عليه!

إن مثل هؤلاء يكون عندهم الريال والدولار أكثر أهمية من انحراف أولادهم، أو تعثر زواجهم! مع أن هذه الأموال مصيرها أن تصير إليهم قهرًا بالميراث!

نقلت إحدى النساء التالي: تزوجت من مدة، من شاب متوسط الحال، ومكافح. وعلى أثر التغيرات الاقتصادية التي حدثت في البلاد، أصبح وضعه المالي حرجًا. فاضطررنا للبحث عن مسكن أرخص ايجارًا إلى أن يتيسر الحال، وعلمت أن لوالدي شقة سكنية فارغة، فرجوت أن يسكنني فيها حتى نتمكن من وضع قيمة الايجار المفترضة في شؤوننا الأخرى. لكنه فاجأني عندما طلبت منه ذلك بالقول: لا بأس، نحن نؤجرها بألف و٢٥٠، فسنؤجركم إياها بألف و٢٠٠ ريال!

تقول: فاجأني الأمر جدا، فهذه شقة والدي، وأنا ابنته، محتاجة إليها! وليس الزوج هو من طلبها، بل أنا من طلبتها منه، إلى أن قبل أخيرا أن ينزل عن ايجارها بمقدار ثلاثمائة وخمسين ريالا أي أقل من ١٠٠دولار! هذا مع أن الوالد كان صاحب قدرة مالية حسنة! ومن يطلب منه السكن ابنته! وفي ظرف حاجة واضطرار! وماذا سيزيده مبلغ الاجار هذا في ثروته وهو يخسر مودة ابنته؟ وهل أنها بزواجها قد انخلعت من أبيها وأمها؟ أو انقطعت علاقتك معها؟

الصحيح أن الإنسان يبقى بدرجة من الدرجات مسؤولا مسؤولية أدبية وشرعية عن إعانة أولاده الفقراء والمحتاجين، والإحسان إلى المتمكن منهم! ومساعدتهم بما يستطيع على تحقيق معيشة حسنة.

أيها الأب! إنك إنما تنفق على نفسك وتدهن جلدك، عندما تنفق على فلذة

كبدك ـ ابنًا أو بنتًا ـ فماذا لو- لا سمح الله - ذهبت ابنتك ومدت يدها إلى أجنبي فاستغلها؟ وماذا لو اضطرت الأمور ابنك الشاب -وليس هذا تبريرًا للخطأ- فذهب إلى طريق منحرف لكي يحصل على الأموال، ماذا ربحت حينئذ؟ وكم صنعت لك تلك المئة دولار؟

وقد تكون هذه الصفة السيئة أعني البخل المالي في الأولاد بالنسبة لوالديهم! لقد وجدنا حالات للأسف تجد في إحدى الأسر سبعة من الأبناء ومثلهم من البنات، وأكثرهم في حالة مادية معقولة، ثم يُتورَط (!) بخدمة والدتهم التي خدمتهم حتى كبروا، وهي تحتاج الآن لأن تُخدم فيبخل عليها هؤلاء بعاملة تخدم الوالدة، مع أنها لا تكلف كلا من الأبناء أكثر من ٢٠٠ ريال! أي حوالي ٥٠ دولارا في الشهر!!

ربما يصرف كل منهم ضعف هذا المبلغ في بعض شؤونه (كأكلة مع أصدقائه) لكنه يبخل على أمه التي قاست معه حتى بلغ ما بلغ! ولو التفتوا ـ هم وغيرهم ـ إلى حديث رسول الله ﷺ، لرأوا عظمة الانفاق على الأهل والعيال: فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «دِينَار أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَدِينَار أَنْفَقْتَهُ في رَقَبَةٍ، وَدِينَار تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ وَدِينَار أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ»(١).

وفي رواية أخرى ساوت بين الإنفاق على الأهل وبين الصدقة على المحتاجين في الأجر والثواب: «مَنْ دخل الى السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله كانَ كحَامِلِ صَدَقة إِلَى قوم مَحَاوِيج»(٢).

---

(١) النيشابوري؛ مسلم: صحيح مسلم ٣/ ٧٨.

(٢) ا العاملي؛ محمد بن الحسن الحر: وسائل الشيعة ٢١/ ٥١٤.

بذاءة اللسان وعفته

على سبيل المقدمة نشير إلى أن الخير الذي يصل إلى الإنسان من خلال لسانه لا حدود له.وأثره هو -والقلب كأعضاء- لا مثيل له في سعادة المرء في الدنيا والآخرة.

١. فالعبادة التي هي غاية خلق الإنسان يكون جزؤها الأكبر من خلال حركة اللسان. فالصلاة مثلا لا يكتفى فيها بالنية القلبية ولا بالحركات والأفعال، وإنما لا بد أن يرافق ذلك حركة اللسان، بل حتى الأفعال كالركوع والسجود لا تكتمل إلا بذكر لساني في تلك الأفعال. هذا فضلا عن القراءة حيث (لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب)، وإنما (تحريمها التكبير وتحليلها التسليم) وهما فعلا اللسان. ومثل ذلك الدعاء والاستغفار..الخ.

فأساس الصلاة هو حركة اللسان، ولو تصورنا إنسانا لا يريد أن يحرك لسانه في صلاته فإنه لا يستطيع أن يأتي بها صحيحة كاملة!

وأوضح من ذلك تلاوة القرآن فإن التلاوة لا تصدق على إمرار المعاني في الذهن أو الكلمات في القلب، وإنما لا بد من تحريك اللسان بها لتصبح تلاوة

وقراءة، ولهذا لا يكتفى بها في الصلاة لو لم تتحول إلى (قراءة وتلاوة) حتى في الصلاة الإخفاتية لا يكتفى بإمرار المعاني في القلب بل لا بد من تحريك اللسان بالألفاظ غاية الأمر أنه في الاخفاتية لا يظهر جوهر الصوت. فهذا الخير في العبادة لا يتيسر إلا باللسان.

٢. وكذا الحال في العلم الذي به يتفاضل الناس، فهو إنما ينتقل في جزئه الأعظم بالتعليم، والتعليم راجع إلى النطق واللسان. حيث يحتاج الطالب من الابتدائية إلى ما بعد الجامعة إلى معلم ناطق متكلم.

٣. حاجات الإنسان في الحياة اليومية، وتواصله مع المجتمع في علاقاته، غالبا تقوم على أساس حركة اللسان. ولذلك فلا مقارنة بين نعمة اللسان إذا خلا من الآفات، وبين ما يقابل اللسان والنطق وهو السكوت. ولذلك ورد في الحديث عن إمامنا زين العابدين عليه السلام، أنه لما سئل عن الكلام والسكوت، أيهما أفضل؟ هل الأحسن أن يتكلم الإنسان أو يسكت؟

الشائع عند الناس خطأ، أنه إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. لكن هذا ليس صحيحا على إطلاقه - فأجاب عليه السلام بقوله: «لِكُلٍّ مِنْهُمَا آفَاتٌ، فَإِذَا سَلِمَا مِنَ الآفَاتِ، كَانَ الْكَلَامُ أَفْضَلَ مِنَ السُّكُوتِ»[1]. السكوت له آفات وسلبيات، والكلام له كذلك. فإذا ارتفعت عنهما وفرغا منها، كان الكلام خيرا من السكوت.«قِيلَ: كَيفَ ذَلِكَ يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ؟ قَالَ: لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَا بَعَثَ الأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْصِيَاءَ بِالسُّكُوتِ».

٤. بعثة نبينا المصطفى محمد صلى الله عليه وآله أنه جاء بشيرا ونذيرا. والتبشير والإنذار إنما

---

(١) العاملي؛ الحر محمد بن الحسن: تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشّريعة ٤/ ١٨٨ عن الاحتجاج للطبرسي.

هو من خلال الكلام، من خلال اللسان. أما لو فرضنا أن نبيا جاء وجلس ساكتا، كيف يهدي الناس؟ وكيف يعظهم؟ وكيف يعلمهم؟

وهكذا ما بلغ إلينا من علم أمير المؤمنين عليه السلام، وقد وصل قسم منه إلينا في نهج البلاغة، لم يأت بالسكوت، وإنما أتى من خلال الكلام واللسان. يقول الإمام عليه السلام: «إِنَّمَا بَعَثَهُم بِالْكَلَامِ وَلَا اسْتُحِقَّتْ الجَنَّةُ بِالسُّكُوتِ».

٥. مهر الجنة الذكر، سواء الذكر القلبي: أي تذكر الله عز وجل، أو الذكر اللساني واللفظي، كقول: سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر، الصلاة على النبي، وأمثال ذلك. هذه كلها إنما تكون من خلال الكلام واللسان. «وَلَا اسْتُحِقَّت الجَنَّةُ إِلَّا بِالْكَلَام، مَا اسْتُحِقَّتْ بِالسُّكُوتِ، وَلَا اسْتُوجِبَتْ وَلَايَةُ اللهِ بِالسُّكُوتِ، وَلَا تُوقِّيَت النَّارُ بِالسُّكُوتِ، إِنَّما ذَلِكَ كُلُّهُ بِالكَلَامِ».

٦. إحدى جهات التفضيل للإنسان على الحيوان، هو اللسان، وصحيح أن العقل، هو الميزة الكبرى، ولكن فضل الإنسان بجهات متعددة، منها أنه ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1] والبيان إنما يكون باللسان.. هذا كله إذا خَلِيَ من الآفات.

آفات اللسان ومخاطره:

لكن هذا اللسان نفسه، الذي يحمل كل ما سبق من المواصفات، إذا طرأت عليه آفة، يتحول إلى ما تصفه الأحاديث: بأنه «سَبُعٌ إِذَا خُلِّيَ عَقَرَ»[2].فيمسي ذلك الذي يستوجب الإنسان به الجنة، سَبُعًا متوحشا مفترسا.

الأولى من تلك الآفات، بذاءة اللسان:

(١) الرحمن: ٤.

(٢) نفس المصدر ٤/ ١٩٢ عن نهج البلاغة.

قد يكون شخص عفيف اللسان، وآخر يكون بذيء اللسان. وكلاهما من الممكن أن يكونا متدينين ـ بحسب الاصطلاح ـ! لذلك ينبغي أن يختبر الإنسان في كل الأوقات. وألّا يلجأ لتبرير فعله، فقد نرى من يقول: «استفزني فسببته وشتمته»، أو يقول إنني جئت من العمل فاستقبلتني زوجتي بشكل غير مناسب فشتمت أهلها وأنها بغير تربية!!

وكأن هذين وأمثالهما يعتقدان أن الظروف غير الحسنة تجعل الكلام السيء غير سيء! أو ترفع الحساب عن الشخص! بينما موقع الامتحان هو هذا المكان! فلا يتصور أن شخصًا مرتاح النفسية وشبعان البطن ولا يكدر خاطره شيء سوف يبدأ بالسباب والشتم إلا إذا كان مجنونًا! من يكون كذلك لن يتوقع منه بذاءة في اللسان! هذا طبيعي.. إنما يلاحظ عفاف اللسان وبذاءته في مواضع التوتر وعندما يُستفز، يُستغضب، يعتدى عليه هنا يتبين هل يحفظ لسانه ويحافظ على عفاف كلماته؟ أو أنه يطلقه فيعقر غيره بكلمات ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾[1].

الإنكار على الفاحش بذيء اللسان:

قد وردت الروايات عن المعصومين محذرة عن البذاءة ومستنكرة على الإنسان البذيء فعله ففي الحديث عن نبينا المصطفى محمد ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ لَيَبْغُضُ الْفَاحِشَ البَذِيءَ»[2]. وهنا لا بد أن نلاحظ أن الحديث يقول: يكره الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان، ويبغضه، وإن كان مسلمًا، ومقيمًا للصلاة، لكنه فاحش الكلام، بذيء اللسان، غير محترم التعابير وفي أحاديث أخرى أنه أبعد الناس شبهًا

(١) المرسلات ٣٢.

(٢) سنن الترمذي ٣/ ٢٤٤، وفي الكافي ٢/ ٢٩١ عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ (ألا اخبركم بأبعدكم منّي شبها؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الفاحش المتفحّش البذيء البخيل المختال..).

بالنبي.

وهناك فرق بين بغض العمل وبغض الشخص العامل.. ونلحظ في الحديث كما سبق أن العمل مبغوض عند الله سبحانه، لكن يسري بُغض عمله إلى بغضه ذاته. أي أن الله يبغض هذه الذات. يبغض هذا الإنسان نفسه وليس فقط عمله البذيء.

لا تبرير للبذاءة والفحش:

هناك مرتبة أسوأ من البذاءة والفحش في الكلام، وهي أن يبرر بذيء اللسان فعله، ويجد هذا الفعل طبيعيا أو أن الشخص الآخر مستحق لما يقال فيه[1].ويشير إلى هذا المعنى ما روي من موقف الإمام الصادق عليه السلام من أحد أصحابه القريبين له، فقد روي أنه كان للإمام الصادق عليه السلام صديق مقرب إلى حد أن تقول الرواية عنه؛ لا يكاد يفارقه « تقول الرواية « فقال هذا الرجل يوما لغلامه: يا ابن الفاعلة أين كنت؟ قال: فرفع أبو عبد الله عليه السلام يده فصك بها جبهة نفسه ثم قال: سبحان الله تقذف أمه قد كنت أرى أن لك ورَعًا، فإذا ليس لك ورع! فقال: جعلت فداك ان أمه سندية مشركة، فقال: أما عملت أن لكل أمة نكاحا؟ تنح عني.. قال الراوي: فما رأيته يمشى معه حتى فرق بينهما الموت.[2] يعني أن الورع: ليس أن تمشي الهوينا وتتكلم بصوت خفيض أو تتماوت في حركات الصلاة. الورع: أن تمسك لسانك عن الفحش، ويدك عن الاعتداء، وقلبك عن الحقد. هذا هو الورع!.

وبدل أن يقول ذلك الرجل للإمام إنني آسف، أستغفر الله من هذا الأمر. غلبني غضبي! وإنما كما يقول المثل: شين وقوي عين! أقبل يقول: «جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا بْنَ

---

(١) لا بد أن نفرق هنا بين ما نحن فيه من بذاءة اللسان، ومن اللعن مثلا لطوائف ورد الأمر بلعنهم في الكتاب الكريم والسنة الشريفة. فهما موضوعان مختلفان.

(٢) الكليني؛ محمد بن يعقوب: الكافي ٢/ ٣٢٤.

رَسُولِ اللهِ إِنَّ أُمَّهُ سِنْدِيَّةٌ مُشْرِكَةٌ». هي إحدى المشركات، وإذا كان كذلك فهو ابن زنا! ما دامت لم تعقد نكاحها بالطريقة الموجودة لدى المسلمين! فقال ﷺ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ نِكَاحًا»، هذه امرأة تزوجها أبوه ضمن قانونهم. وهو وإن لم يكن متفقا مع قانون الاسلام، ولكنه النكاح الموجود عندهم، وإن «لِكُلِّ أُمَّةٍ نِكَاحًا. تَنَحَّ عَنِّي». أي لا ترافقني بعد هذا. قال الراوي: «فَمَا رَأَيْتُهُ يَمْشِي مَعَهُ حَتَّى فَرَّقَ الْمَوْتُ بَيْنَهُمَا».

هذا مثل أناس عندما يبدي الفحش بلسانه في حق شخص، فتعاتبه بأن هذا الكلام ليس مناسبا، يقول لك: «يستاهل». هذه الثانية أسوأ من الأولى ـ المسبة؛ لأنها تبرير للخطأ وكان ينبغي الاعتذار عنه لا تبريره.

أسفه السفهاء من يفتخر بالبذاءة

هناك نموذج أسوأ مما سبق، وهو من يفتخر بالبذاءة وفاحش القول، وهذا يسميه أمير المؤمنين علي ﷺ فيقول ﷺ: «أَسْفَهُ السُّفَهَاءِ الْمُتَبَجِّحُ بِفُحْشِ الْكَلَامِ»[1]. فهذا النموذج لا يكتفي ببذاءة اللسان وفحش القول، بل يخطو خطوة فوق ذلك، يفتخر بذلك، ويتبجح به. ويتباهى قائلا: «غسلته غسل، ما خليت ولا بقيت! مسحت بيه الأرض!!»، هذا يعبر عنه الإمام ﷺ بأنه: «أَسْفَهُ السُّفَهَاءِ».

وقد تبدأ هذه العادة السيئة والآفة الممقوتة من الصغر حين يتعلمها الطفل من محيط العائلة التي يعيش فيها. ولذلك كانت التربية أمرًا مهمًا.

تقول إحدى النساء: مشكلتي مع زوجي، أنه إذا غضب لا يترك كلمة سيئة في قاموسه يعرفها إلا ويقولها لي، وأمام أطفالي أيضًا. ومنها ما فيه التهمة في العرض

---

(١) النوري؛ ميرزا حسين: مستدرك الوسائل ١٢/ ٨٣.

والشرف. يقول ذلك لي أنا زوجته، وأم أولاده، وهم يسمعون هذا الكلام!

إن الطفل الذي ينشأ، وهو يسمع مثل هذا الكلام منذ كان عمره ثلاث سنوات، إنها طامة كبرى وجريمة بحق ابنك أن تسمعه كلاما يلوث شخصيته لأنه فاقد للتمحيص كونك بالنسبة إليه القدوة الأولى، ماذا يُتوقع منه عندما يكون شابًا! لا سيما وهو يتخذ أباه وأمه قدوة!. يسمع منهما ويخزن ما يسمع، ثم يعيد إخراجه من جديد. مع زوجته ومع المجتمع.. ولهذا كان من الضروري (تعقيم) بيئة المنزل من بذاءة اللسان. حتى على المستوى البسيط، كتغيير الأسماء، حتى في هذا ينبغي التدقيق فيه! لا تنادِ ابنك: «عبدوه»، و«حمدوه»، وما شابه. لا تقل: هو شيء بسيط. إذا تعود الشخص أن يسمع كلامًا على غير جهته، أو فيه مقدار من الاستهزاء أو السخرية أو البذاءة، غدا هو يفرغ هذا على غيره، وينادي الآخرين بالنحو الذي تعلمه!

عن الإنتخاب اللفظي في القرآن الكريم:

إننا نلاحظ أن القرآن الكريم ينتخب الألفاظ بدقة عالية، حتى مع كونها غير بذيئة ولكن ينتخب أجمل الألفاظ وما لا يحمل إيحاءات سلبية، فمثلا: عندما يريد أن يعبر عن الجماع بين الرجل والمرأة، لا يستعمل هذا التعبير. وإنما يقول: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[1]. مباشرة، أي اجعل البشرة على البشرة. أو كما في آية أخرى، يقول: ﴿أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ﴾[2]. أو مثل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾[3]، وأمثال هذا. بينما تجد قسم

(١) البقرة: ١٨٧.

(٢) النساء: ٤٣.

(٣) البقرة: ١٨٦.

من الناس يعبر لك عن هذه الكلمات -عن هذا الفعل- بألفاظ مباشرة، جنسية، واضحة، صريحة، في مسمع ومرأى من لا يناسب أن يسمعها كالأطفال. وفي ذلك خدش لبراءة وطهارة الطفل والطفلة.

ومن ذلك في الروايات ما تم التوجيه إليه من أنه يستحب للفتيات مثلا أن يتعلمن سورة النور قبل أن يتعلمن سورة يوسف. لماذا؟ لأن طابع سورة النور العام طابع نورانية، وتوجيهات أخلاقية، أحكام شرعية. لكن في قصة يوسف، مع أن القرآن الكريم عالجها بأفضل ما يمكن معالجته من خلال الألفاظ، لكن حيث أن القصة في جزء منها، فيها جانب دعوة إلى الممارسة الجنسية من قبل امرأة العزيز، يأتي التوجيه أن تعلمها سورة النور أولا. أي امنحها الأرضية الأخلاقية اللازمة قبل أن تنفتح على أمر العلاقة الجنسية، وعلاقة الحب وما شابه ذلك.

وحتى فيما يرتبط بغير القضايا الجنسية، فالقرآن لا يباشر في الكلام. وإنما يكنّي ويورّي فإذا أراد أن يتحدث عن عملية الإفراغ والإخراج، يترك الألفاظ المباشرة المستهجنة، ويأتي بما يلازمها مما يكون مفهومًا وفي نفس الوقت عفيفًا وناعمًا فالقرآن الكريم عندما يتحدث عنها يقول: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾[1] أتدري ما معنى الغائط في اللغة؟ معناه: المكان المنخفض. يقال: ذهبنا إلى غائط من الأرض.. وقد كانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة ولم يكن في البيوت (كُنُف وبيوت خلاء) يذهبون في العراء إلى مكان منخفض، وهو الذي يقال له في اللغة الغائط. وربما لو استعمل القرآن الكريم العبارات المباشرة في العملية الجنسية، أو عملية الإخراج وقضاء الحاجة، لم يكن ذلك استعمالًا خاطئًا، ولكن الله من خلال كتابه يريد أن يعلمنا عفة اللسان حتى بهذا المقدار.

---

(١) النساء: ٤٣.

إن من يستخدم العبارات البذيئة والكلمات الفاحشة، ويتعود على السباب، والشتائم، لا بد أن يُبحث في وضعه النفسي ولا ريب أنه وضع غير طبيعي؛ لأن الإنسان فُطِر وخُلق ومعه الحياء. و«الحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[١]، فإذا تخلى إنسان عن هذه الفطرة فلا ريب أنه غير سوي! وهذا لا يرتبط بما هو معروف من القول المشهور: لا حياء في الدين.!! بل، كل الحياء في الدين[٢].

الحُطيئة المثال السيء للبذاءة

الحطيئة، جرول العبسي، هو شاعر مخضرم أدرك الفترتين، الجاهلية والإسلام أيضًا، وكان مضرب المثل في الهجاء وفي سلاطة اللسان. قيل إنه كان ولد جارية، ولم يعرف والده. ولعل هذا ساهم في أن ينمو ناقمًا على المجتمع سيء القول فيمن حوله! يتلذذ بجلد الآخرين بسياط شعره مثلما يراهم يجلدونه بنظرات استخفافهم به!

كبر شاعرا متميزا، فأصبح يتكسب بالهجاء. ويحصل على حاجاته منه! بل حتى من يعطيه لأجل مدحه إياه إنما يفعل ذلك في الغالب خوفا من هجائه[٣] لو لم يكرمه بالعطاء! أو حتى لو لم يكرمه بالعطاء الذي يتوقعه هذا الشاعر! قيل إنه مدح الزبرقان بن بدر التميمي بقصيدة. ويظهر أن هذا أعطاه مبلغا بسيطا، فما لبث أن

---

(١) البروجردي؛ السيد حسين: جامع أحاديث الشيعة ١٤/ ٢٨١.

(٢) وفي المصدر المذكور أحاديث في فضل الحياء منها ما روي عن النبي ﷺ من قوله: الحياء خير كله. ومنها ما عن أمير المؤمنين عليه السلام: الحياء سبب كل جميل، ومنها ما عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: الحياء من الايمان والايمان في الجنة.. نعم، لا بد من التفريق بين الحياء والخجل، ولا منافاة بين أن يكون الإنسان حييا ومع ذلك لا يخجل في مسائله الشرعية، فيظل مدة من الزمان من جاهلا بها؛ لأنه خَجِل أن يسأل عن غسل الجنابة. او خجلت أن تسأل عن الحيض وأحكامه..

(٣) البروجردي؛ السيد حسين: جامع أحاديث الشيعة ١٣ / ٣٩٨ : (شر الناس من اتقي مخافة شره).

هجاه الحطيئة بقصيدة أخرى، مطلعها:

دع المكارم لا تذهب لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي.

وقد آذت تلك القصيدة وخصوصا البيت الزبرقان وتألم لها فاشتكاه للخليفة الثاني وكان في ززمانه، فلم يتبين للخليفة عنده: لما قرئ عليه هذا البيت- أهو مدح أم هجاء.. فحُكِّم حسان بن ثابت وهو الشاعر العارف بفنون الشعر فَسُئل: هل هجاه؟ أي بهذا البيت. قال: لا. بل سلَح عليه!. سلح عليه يعني: تغوط عليه!. إشارة إلى أنه أقذع في ذمه غاية الإقذاع.

وكان -شاعر الهجاء ذاك- معروفا بهجائه إلى حد أنه هجا أمه، فقال:

جزاكِ الله شراً من عجوز ولقّاكِ العقوق من البنينا

أغربالا إذا استُودعتِ سرا وكانونا على المتحدثينا

الغربال هو المصفاة ومن المعلوم أن المصفاة لا تحتفظ بما في داخلها، فكذلك يشبه أمه الكانون: هو الشخص الثقيل الوخم الذي يزعج بمجالسته وثقل ظله.

انظر إلى خطابه لأمه في في قوله السيء « جزاك الله شرا من عجوز.. ولقاك العقوق من البنينا، تأمل في هذا الكلام وتعجب! أيقول شخص لأمه التي حملته في بطنها تسعة أشهر ولقيت من العناء في تربيته ما لقيت.. هذا الكلام؟ سبحان الله، لكن قد تعود هذا سوء القول والفحش باللسان حتى هجا أمه وأباه، وأخيرا هجا نفسه! في قوله:

أبت شفتاي اليوم إلا تكلّما بشرٍّ فما أدري لمن أنا قائله

أرى لي وجهًا شوّه الله خلقه فقبح من وجـه وقبح حامله

إن علينا أن نتذكر باستمرار كلام النبي ﷺ، «إِنَّ اللهَ لَيَبْغُضُ الْبَذِيءَ الْفَاحِشَ، وَأَسْفَهُ السُّفَهَاءِ الْمُتَبَجِّحُ بِبَذَاءَةِ اللِّسَانِ»، لنتجنب فحش القول وبذاءة اللسان!

لماذا يكونون بذيئي اللسان؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[1].

هذا اللسان الذي به تُنال الجنة، تُبلَّغ الرسالة، ويُذكر الله، يُفعَل الخير، من الممكن أن يتحول إلى منزلق لنار جهنم، ووسيلة في تقطيع الأرحام، ومكتسب للسيئات والإثم. وذلك عائد إلى طريقة إدارة هذه الوسيلة.

فاللسان وسيلة. وعضو من أعضاء البدن. يتحرك من خلال توجيه القلب والعقل. فيكون رحمة تارة، ونقمة أخرى. مثلما أن اليد عضو من أعضاء البدن. تمسح رأس اليتيم مرة وتكتسب الخيرات، وتلكم الفقير مرة أخرى فتكتسب الإثم والسيئات.

تجد من الناس، من يستجيب لنداء الله عز وجل في قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾، ويترتب على ذلك أن تُصلَح أعمال الإنسان. ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ إذا

---

(١) الأحزاب: ٧٠ـ ٧١.

قلتم قولا سديدا. فالله سبحانه وتعالى يصلح لكم أعمالكم، ويغفر لكم ذنوبكم. أي يحصل لكم التوفيق في هذه الدنيا، والسعادة في الأخرى.

من بذاءة اللسان ما نراه من البعض مع أسرته، ولا سيما إذا تجاوز الحدود الشرعية مثل الرمي والقذف سواء كان من طرف الزوجة لزوجها بأن تتهمه وتقذفه بأنه صاحب علاقات و(عاهرات) أو عكس ذلك عندما يرمي زوجته بالزنا والانحراف.. وهذه كما هو المعلوم توجب للمرمي والمقذوف حقا يستطيع استيفاءه بحكم الشرع، فضلا عن العقوبة الالهية الأخروية.

وبالرغم من أن حد القذف[1] الثابت في القرآن الكريم، هو في حدود القذف بالفاحشة والزنا فلا يعم غيرها كما ذكر العلماء، ولا يطلق على ذلك ـ في غير الاتهام بالزنا ـ أنه قذف. إلا أنه يوجب ـ لو كان في غيره ـ عقوبة يمكن استيفاؤها من خلال التعزير.

في مقابل من ذكرنا في الصفحات السابقة من أقسام بذيئي اللسان، سواء منهم المبرر لنفسه ذلك الفعل أو المتبجح والمتفاخر به.. نجد النموذج العفيف لسانه، الذي إذا تصور أنه قد جرح شخصا بكلمة، تراه لا يستقر حتى يعتذر إليه ويتحلل منه، ومع ذلك يظل يستشعر الإثم. هذا القسم لا يُعوِّد لسانه إلا الحسن من القول والجميل من اللفظ. يتمثل هذا القسم ما نقل عن المسيح عيسى بن مريم –على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام– أنه كان في جماعة حواريه، ومر عليهم خنزير

---

(١) الخوئي؛ السيد أبو القاسم: تكملة منهاج الصالحين / ٤٢ قال: الثامن – القذف وهو الرمي بالزنا أو اللواط، مثل أن يقول لغيره زنيت أو أنت زان، أو ليط بك، أو أنت منكوح في دبرك، أو أنت لائط أو ما يؤدي هذا المعنى..وبالرغم من أن الآية القرآنية تحدثت عن رمي النساء وقذفهن ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النور: ٤، إلا أنه لا فرق من هذه الجهة بين الرجال والنساء.

متسخ. فأشار عليه، وقال: «مُرْ بِسَلَامٍ». بمعنى: اعبر بسلام، يخاطب الخنزير. فاستنكر عليه بعض أصحابه، أن هذا خنزير! نجس العين! وفوق ذلك هو قذر، ولا يفهم منك شيئًا. فلو قلت له: اذهب أو تعال أو قف، لا يفهم منك ذلك. فماذا يعني ما قلته له؟ قال: «أَكْرَهُ أَنْ أُعَوِّدَ لِسَانِي غَيْرَ الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ»(١).

إن نبي الله عيسى يشير إلى حقيقة، هي أن الكلام الذي تمرره على لسانك، هو كسائل تمرره على ثوبك الأبيض. فإذا كان هذا السائل قذرا فإنه يوسخ الثوب، وإن عبر إلى الناحية الأخرى. أما إذا كان ماء زلالا صافيا رقراقا، فيمر من هنا ويعبر، وربما نظف الثوب الذي مر عليه.

إن الكلام السيء كما يمر على لسانك، فهو في الواقع يمر على روحك وشخصيتك أيضًا. فلو كان طيبًا حسنًا، أثّر فيها حُسنًا. وهذا أحد الأسباب التي من أجلها أُمر الإنسان أن يشغل لسانه بذكر الله عز وجل. سبحان الله، أستغفر الله، الحمد لله، الله أكبر، فهذه أشبه شيء بماء زلالٍ صافٍ تمرره على ثوب شخصيتك، فيكسبها نظافة وطهارة.

أسباب بذاءة اللسان:

١. مهانة الشخصية؛ فالذي لا يرى لشخصيته قيمة، ولا يرى لذاته اعتبارًا، وحسب تعبير أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا يُبَالِي مَا قَالَ وَلَا مَا قِيلَ فِيهِ». هذا النمط من الناس متبلد الاحساس إلى درجة أنه لا يفكر كم سيؤثر هذا الكلام في المخاطب، وكيف سيجرح مشاعره! بل ولا يستشعر لو تكونت حوله فكرة سيئة أو لامه الناس أو تهجموا على أسلوبه الخاطئ.. إنه لتبلد احساسه لا

(١) السيوطي؛ جلال الدين: الدر المنثور في التفسير بالماثور ٢ / ٢١٢.

يشعر بأي شيء من ذلك لا تجاه الغير ولا تجاه نفسه. وبالطبع لن يكون هذا الشخص إلا عديم القيمة عند نفسه فضلا عن الغير! وربما عبرت الآثار عن هذه الشخصية بـ (السِّفلة من الناس)!

وأما من يستشعر بقيمة ذاته، بين نفسه وبين محيطه الاجتماعي، وعلامة ذلك أنه عندما يتكلم بالفحش أو البذاءة فإنه يستنكر عليه من يسمعه: كيف تتكلم بهذا الكلام؟ لا يُتوقع منك ذلك أبدا! هل هذا المتكلم هو فلان الذي نعرفه؟ أو فلانة التي نعرفها؟ أ من المعقول أن يخرج منه أو منها هذه الألفاظ؟

هذا القسم من الناس تكره مصاحبتهم، ومخالطتهم ـ ولعل ذلك لأجل ألّا يتأثر الصاحب بأخلاقهم وطريقتهم ـ بل تكره حتى مبايعتهم. فقد ذكر الفقهاء في مكروهات المعاملات أنه: يكره مبايعة الأدنين من الناس[1].

إذا عرف الإنسان قيمة نفسه وبماذا أكرمه الله تعالى، حيث سخر له سائر

---

(١) قال الشيخ حسين آل عصفور في الحدائق الناضرة ١٨/ ٣٨ ومنها كراهة مبايعة الأدنين ثم نقل عن الشهيد الثاني ما قاله في المسالك بأنه فُسّر الأدنون بمن لا يبالي بما قال ولا ما قيل فيه. وبالذي لا يسره الاحسان ولا تسؤه الإساءة. وبالذي يحاسب على الدون.

أقول: والذي يدل على الأول: ما رواه في الكافي والتهذيب مسندا عن أبي عبد الله عليه السلام والصدوق مرسلا، قال عليه السلام: « لا تستعن بمجوسي ولو على أخذ قوائم شاتك وأنت تريد أن تذبحها. وقال: إياك ومخالطة السفلة، فإن السفلة لا يؤول إلى خير قال الصدوق – رحمه الله – جاءت الأخبار في معنى السفلة على وجوه:

منها: أن السفلة: الذي لا يبالي ما قال ولا ما قيل فيه.

ومنها: أن السفلة: من يضرب بالطنبور.

ومنها: أن السفلة: من لم يسره الاحسان ولم تسؤه الإساءة.

والسفلة: من ادعى الإمامة وليس لها بأهل. وهذه كلها أوصاف السفلة. من اجتمع فيه بعضها أو جميعها وجب اجتناب مخالطته.

مخلوقاته، وفضّله عليها تفضيلًا، وأسجد لأبيه الأكبر ملائكته، وأعد له جنته، فإنه سيأنف ـ والحال هذه ـ أن يجري على لسانه فاحش القول وبذيء الكلام.

٢. ومن الأسباب البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الإنسان. فعندما يكون في بيئة اجتماعية نظيفة اللسان وعفيفة القول، فإنه يكتسب ذلك العفاف والنزاهة في لسانه، لا بشكل حتمي وجبري وإنما بنحو الاقتضاء والتأثير.. وهذه البيئة تبدأ بالأسرة والبيت، وتمر بالمحلة والمدرسة والجامعة، وخلطة الأصدقاء والبلدة.. وهكذا.

من هنا نذكر ونؤكد على الإخوة والأخوات أهمية الالتفات إلى مفردات الكلام الصادر منا في منازلنا، سواء كان بشكل مباشر مع أهلنا وأسرتنا أو ما يسمعونه منا بشكل غير مباشر، فلو اتصل بك شخص وأخبرك تلفونيا أن شخصًا قد شتمك، وأغضبك بذلك وأحفظك، فلا ينبغي أن ترخي العنان لنفسك في شتمه وسبه بألفاظ غير مناسبة، بحيث يسمعك أفراد أسرتك، فإن ذلك يعني أنك تخبرهم بشكل غير مباشر بأن هذا النحو من الكلام لا محذور منه ولا مشكلة في استعماله!! وبالتالي أنت تطبّعهم على استماع واستعمال هذه الكلمات الشائنة والسيئة، وهم سيطبقونها في المكان الذي يرونه، وربما يكون ذلك في مواجهتك فيما بعد! وآنئذ:

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها فـأول راض سنة من يسيرها

إذا سببت أحدًا أو شتمته من خلال التلفون أو بشكل مباشر، فإنك تعطي رسالة للزوجة بأن وجود هذا الكلام في البيت أمر عادي؛ لأنك تكلمت به. وحيث لم تجعل للبيت حرمة فلن تمتنع الزوجة أن تسب آخرين أمامك، وأن تتكلم فيهم وعنهم بهذا الكلام؛ لأن زوجها -وهو أحد القدوات بالنسبة إليها- يصنع ذلك. وأما الأثر على الأولاد فأكثر من ذلك بكثير.

والأولاد بل عموم من يتصل بنا يلاحظون الأعمال ويتأثرون بها قبل الأقوال والنصائح، فإذا صرخت على زوجتك وجبهتها بكلام عنيف أمام أبنائك، فإنك تعلمهم طريقة التعامل مع زوجاتهم في المستقبل، ولا ينفع فيما بعد أن تتحدث معه ناصحا حول الهدوء والرقة! بل حتى لو قلت له: «لا ترفع صوتك على أمك». سيظل في باله: «لكنك رفعت صوتك عليها في محضري». والفعل أكثر تأثيرا من القول. ولا يفهم الولد أنني أنا زوجها أختلف عنك وأنت ولدها!

وكذلك تأثير البيئة الاجتماعية الأوسع، فعندما يذهب ابنك إلى المدرسة، قد يتعلم بعض الكلمات. وهذه إحدى شكاوى الأسر والعوائل، ويأتي إلى البيت، بعدما التقط كلمة من المدرس قد قالها إلى أحد من الطلاب، مثل: «يا حيوان»! أو «يا غبي» فكما يتعلم بعض الدروس الأكاديمية، يتعلم هذه البذاءة ويمارسها ويجربها مع أخيه الأصغر منه في المنزل، فينعته بنفس الوصف الذي حفظه عن المدرس!

ونشير هنا إلى ضرورة متابعة هذا الأمر مع المدرسة، بالتحذير من تأثر الطلاب لا سيما في المراحل الأولى الابتدائية حيث فيها تتشكل العجينة الأولى لشخصياتهم، تأثرهم ببعض مدرسيهم ممن لا يدققون في اختيار كلماتهم أثناء غضبهم!.

٣. انعدام الرقيب الداخلي الديني والأخلاقي: يغفل هؤلاء الناس عن أنه: عندما يتكلم، فهناك من يسجل عليه. فيشتم هذا، ويسب ذاك، فهل أنت ملتفت إلى أنك تعبئ مَلَفًّا هو ملفك؟ وأنك تلقى هذا الملف يوم القيامة عندما يؤتى به إليك بما كتبت فيه وملأته؛ هل ملأته بذكر الله عز وجل؟ أو بالدعوة إلى الخير؟ ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[1]، أهو مملوء بكلمات الود لزوجتك وأخيك المؤمن وأبنائك؟ أو هو مملوء شتائمَ وفحشَ قولٍ وأمثال ذلك؟.

---

(١) الأحزاب: ٧٠.

إن في هذه القصة التي سأوردها خير عبرة، فقد مر مولانا أمير المؤمنين عليه السلام على رجل وقد أكثر في فضول الكلام. (مع أن فضول الكلام ليس سبًّا ولا بذاءة) فضول الكلام: هو أكثر حواراتنا في المجالس والديوانيات!!. فعندما تخرج بعد جلسة من ساعتين أو ثلاث ساعات في هذه الديوانية أو تلك وفي بعض الحالات كل ليلة على امتداد الأسبوع، قد أخذت من وقته ١٤ ساعة ربما، فليحسب ماذا حصَّل منها؟ زاد علمًا وهدى؟ أصبحت رؤيته في الحياة أفضل؟ أو أصبح سلوكه أحسن؟، أو لا، إنّما هو كلام يذهب مع الريح. هذا فضول الكلام!. ليس غيبة ولا نميمة. وإنما هو كلام غير نافع فقط!

نقول: يا أمير المؤمنين إذا كان الاعتراض على فضول الكلام فما ظنك بالكلام الذي فيه آثار شرعية؟

نعود إلى ما ذكر عن أمير المؤمنين عليه السلام فقد مر على رجل وقد أخذ في فضول الكلام، فقال له: « انك تملي على حافظيك كتابًا إلى ربك فتكلم بما يعنيك ودع مالا يعنيك»[١].

لو أن إنسانا فكر في أن هذا الكلام الذي يقوله -في حال رضاه وعصبيته- هو جزء من الملف الذي يعبئه ويملأه، لكان ينبغي أن يقتصد كثيرًا في هذا الكلام. أما إذا انعدم الشعور بالرقيب الداخلي الديني والأخلاقي، فإن قسما من الناس لا يمتنعون عن ممارسة البذاءة تجاه غيرهم.

٤. الأمن من العقوبة القانونية.. ربما لا يكون لإنسان رقابة داخلية، ورادع أخلاقي، ولكنه يخاف من العقوبة القانونية، والمتابعة القضائية، وهنا لا ريب أنه سيمتنع عن البذاءة تجاه الآخرين، فإن وجود قوانين تجرّم الإساءة

---

(١) جامع أحاديث الشيعة ١٣/ ٥٠٢.

للآخرين، وتغلظ العقوبة على المتعدين باللسان على مخالفيهم، يمنع الكثير من هؤلاء من ممارسة (هوايتهم) في التعدي اللفظي والتوصيف بأوصاف شائنة لغيرهم.

وأما لو علم الشخص بأنه بمأمن من العقوبة، إما لعدم وجود قانون يجرم هذه الأفعال، أو لعدم وجود آلية في المتابعة والتقاضي، أو لكون الشخص من (كبار القوم) فإن ذلك قد يكون من أسباب انتشار البذاءة في مثل هذا المحيط! لقد حاول الاسلام حماية شخصيات الناس من خلال تشريعات أخلاقية، مثل تحريم الغيبة والنميمة، وبالنسبة للحالات الأشد مثل القذف الجنسي فقد قرر فيه حدًّا شرعيًا، وما لم يكن قذفًا جنسيًا، فقد تركه ضمن دائرة صلاحيات القاضي بإنزال العقوبة التعزيرية.. والغرض من ذلك ردع هؤلاء الذين يستسهلون الاعتداء اللفظي على سائر الناس!

حينما أصر على الاعتذار العلني!

قبل مدة كتبت الصحف، أن أحد الدعاة تكلم على محام بكلمات من نوع: أنه علماني، ويدعو إلى الفسوق، وهو من رواد التغريب، ويسعى لفساد الأخلاق، وما شابه ذلك.

المحامي الذي سجل كل كلمات الداعية ذاك، بمصادرها، رفع بعد مدة دعوى قضائية عليه في المحكمة، أورد فيها ما قاله الداعية ذاك في حقه مما يعتبر (قذفا)[١] له، واتهاما في دينه، ونشر بعد ذلك خبر رفعه الدعوى على وسائل التواصل! ولما علم

(١) يستعمل مصطلح القذف في الثقافة الحديثة الدارجة بمعنى الاعتداء اللفظي على شخص، ولو لم يكن له طابع جنسي، وهذا بالطبع بخلاف الاصطلاح الموجود في الفقه الاسلامي الذي يخصه هذه اللفظة وما يترتب عليها من الحد بالقذف بالفاحشة، كما سبق بيانه.

الداعية أن الأمر جدي وأن الدعوى مرفوعة عليه في المحكمة، سارع إلى الاتصال بالمحامي والاعتذار إليه! وكأنه يطلب منه إنهاء القضية من دون محاكم ودعاوى وأنه يعتذر إليه!

غير أن المحامي لم يقبل أن يتم الأمر بهذه السهولة، قائلا له هتكتني بين الملأ، وتعتذر لي بالتلفون؟ إذا كنت جادًّا في الاعتذار، فهلمَّ واعتذر بنفس الطريقة التي وجهت لي فيها التهم، ونشرت بها ما لا يصح من القول في حقي، وليكن ذلك الاعتذار صريحًا، وإلا فالدعوى جارية في إطارها القانوني.

وحيث علم أن الأمر جدي فعلًا، لم يجد وسيلة إلا أن يعتذر اعتذارًا صريحًا، وأن يتراجع بشكل حقيقي لا مجال فيه للتأويل، عن كل ما كتب في حقه.

نعم لو عرف الإنسان أن هناك قانونًا، ومن الممكن أن يجري هذا القانون عليه، فإنه سيفكر مرات قبل أن يسيء لفظيًا لغيره، فالزوج الذي اتهم زوجته في عرضها، وأهان شخصيتها بلسانه إذا علم أن بالإمكان محاسبته في المحكمة سيتردد كثيرًا قبل أن يجعل تحية الدخول إلى المنزل سبًا وشتمًا واتهامًا! وكذلك الزوجة أيضًا، وإن كانت خيارات الزوج أكثر في هذا!

قد يحتاج الإنسان إلى واعظ داخلي تارة وإلى نصيحة أخرى، وثالثة حين لا ينفع هذا أو تلك يحتاج إلى قانون يجر عليه السوط.

ولذلك فإن جزءًا كبيرًا من البذاءة والإساءة التي نجدها في عالم الانترنت، راجع في سببه إلى أمن القائلين والكتاب من العقوبات المترتبة عليهم لا سيما أولئك الذين يكتبون وينشرون بمعرفات مستعارة، وأسماء غير حقيقية، أو لأنه في تلك الدولة التي يعيش فيها لم تقر قانونًا للجرائم الالكترونية!

إن طريق النجاة هو في حبس هذا اللسان إلا عن الخير والكلم الطيب، كما قال الشاعر:

لسان الفتى حتف الفتى حين يجهل ... وكل امرئ ما بين فكيه مقتل
إذا ما لسان المرء أكثر هذره ... فذاك لسان بالبلاء موكل
كم فاتح أبواب شر لنفسه ... إذا لم يكن قفل على فيه مقفل[1]

وليكن شعار الإنسان: فليقل خيرًا أو ليصمت.

(١) الخبز أرزي؛ نصر بن أحمد البصري: من موقع الموسوعة العالمية للشعر العربي.
http://www.adab.com/modules.php?name=Sh3er&doWhat=shqas&qid=71086
قرئ بتاريخ ٢٠ / ٩/ ١٤٤١هـ.

النتائج المترتبة على بذاءة اللسان

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[١].

تربط هذه الآية المباركة بين تقوى الله والقول السديد[٢] من جهة، وبين إصلاح العمل وغفران الذنب من جهة أخرى. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾، فماذا يترتب على ذلك؟ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وقد نقل في الروايات: أن رسول الله ﷺ ما صعد المنبر إلا وقرأ هذه الآية المباركة[٣]، وفي هذا بيان على أهمية المعاني

---

(١) الأحزاب: ٧٠ـ٧١.

(٢) (قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: سدّ: أصل واحد و هو يدلّ على ردم شيء و ملاءمته، من ذلك سَدَدْتُ الثلمةَ سَدّاً، و كلّ حاجز بين الشيئين سدّ، و من ذلك السَّدِيدُ، ذو السَّدَاد، أي الاستقامة، كأنّه لا ثلمة فيه، و الصواب أيضا سداد، يقال: قلت سدادا، و سدّده اللّه عزّ و جلّ. ويقال أسدّ الرجل إذا قال السداد. ومن الباب فيه سداد من عوز (الفقر والحاجة)، وكذلك سداد الثلمة والثغر. والسدّة كالفناء حول البيت. واستدّ الشيء إذا كان ذا سداد.

(٣) السيوطي؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/ ٦٦٧.

الكامنة في هذه الآية المباركة.

وتتناول هذه الصفحات بيان النتائج المترتبة على بذاءة اللسان. فلو كان شخص بذيئا سليط اللسان، فاحش القول، سبّابًا، شتّامًا، لا يوقِّر في كلامه سامعه، ولا يوقِّر المكان الذي هو فيه. فما هي النتائج التي تترتب على هذه الصفة: وهي بذاءة اللسان؟

لقد ذكر العلماء أن هناك ٣٠ ذنبًا!! مرتبطًا باللسان التفتوا إلى هذا الرقم[١]! أي من الممكن أن أرتكب بلساني هذا ٣٠ ذنبًا، بعضها من كبائر الذنوب. وقد ذكرها العلماء، في كتبهم الأخلاقية؛ وأحد تلك الذنوب، هو: البذاءة، والفحش، والسباب، وما يرتبط بها. فلننظر إلى نتائج ذنب واحد، وخصلة سيئة واحدة في اللسان، حتى يتبين لنا ما الذي تصنعه أيضًا باقي الذنوب الثلاثين، لو اجتمعت، والعياذ بالله.

فمما يذكره القرآن الكريم، أولًا، في الآية المباركة: فساد الأعمال وتراكم الذنوب. فالإنسان الذي يتورط في الفحش، وفي البذاءة، والسباب، سوف يُراكم على نفسه ذنبا بعد ذنب. حتى عندما استغرب بعض المسلمين من أن اللسان تستغيث منه الجوارح، وتستجير بالله منه.

من الروايات أن: الجوارح تضج إلى اللسان وتستغيث به في كل يوم، أي حسب تعبيرنا، تقول له: بعرضك يا أيها اللسان، بمروءتك، لا تورطنا في نار جهنم. فأحدهم يسأل النبي ﷺ: «أَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ اللِّسَانِ؟ قَالَ: وَهَلْ يكبُّ النَّاسَ فِي نَارِ

(١) منها االكذب والخوض في الباطل والغيبة والنميمة والمراء والجدال والخصومة بالباطل والفحش والسب وبذاءة اللسان والغناء والسخرية والاستهزاء وإفشاء السر وشهادة الزور وقذف المحصنات والمؤمنين وغيرها!

جَهَنَّم عَلَى مَنَاخِرِهِم إِلَّا حصَائدُ أَلْسِنَتِهِم». أي: هل هناك شيء آخر يوصل الإنسان إلى نار جهنم، مكبوبًا فيها على وجهه، إلا ما يحصده بلسانه: من غيبة، ونميمة، وتهمة، وفاحشة، وسيئة، وقول بالكذب، وبهتان على آخرين، وإعلام كاذب، إلى غير ذلك. هذه حصائد الألسنة.

١. فأول تلك النتائج: فساد العبادة وتأخر استجابة الدعاء. في مقابلها الآية المباركة تعرض الصورة الحسنة: ﴿وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ فماذا يصنع بكم؟ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾. وأمّا على مستوى الروايات فسأنقل لكم منها ما جاء في المستدرك على الصحيحين[1] للحاكم النيسابوري. فقد أورد فيه رواية أن النبي ﷺ قيل له: إنَّ فُلانَةَ تُصَلِّي اللَّيْلَ وتَصُومُ النَّهارَ وفِي لِسانُها شَيْءٌ يُؤْذِي جِيرانَها سَلِيطَةٌ، قالَ: «لا خَيْرَ فِيها هِيَ فِي النّارِ».

كانت هذه المرأة متعبدة، تقوم الليل وتصوم النهار، لكنها سليطة لسان، مثل أنها عندما تخرج زبالة بيتها تشتم جيرانها وتتهجم عليهم، أو أنها إذا غضبت أطلقت للسانها العنان، وهذا قد يبدو شيئًا بسيطًا بالنظر إلى ما كانت عليه من أنها (تصوم النهار وتقوم الليل)!، لكنه ﷺ قال عنها: هذه، لا خير فيها! هي في النار! لتقبيح وتشديد هذا الذنب.

وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ: «مَنْ خَافَ النّاسُ لِسَانَهُ فَهُوَ فِي النَّارِ، شر الناس من أكرمه الناس اتقاء شره»[2]. فهناك قسم من الناس يقول لك محذرا إياك:

---

(١) النيشابوري؛ الحاكم: المستدرك على الصحيحين ٤/ ١٨٣.

(٢) بابويه؛ محمد بن علي بن بابويه الصدوق: من لا يحضره الفقيه ٤/ ٣٥٣ وكذلك رواه الكليني في الكافي المقطع الأول ٢/ ٣٢٧.

لا تقترب من هذا، فهو لا يُواطن. تقول له: لماذا؟ فيقول لك: لسانه سليط؛ فيُتَوقى على أثر ذلك. وهذه النوعية من الناس، ممن اتقاه الناس وخافوا من لسانه، فهم في النار. في حديث آخر: «أَبْغَضُ الخَلْقِ إِلَى اللهِ عَبْدٌ اتَّقَى النَّاسُ لِسَانَهُ»(١). وهكذا روايات أخر في هذا الباب.

بل توجد روايات تشير إلى أثر سلبي للسان البذيء على دعاء الإنسان. أي لو أن إنسانا يدعو ربه بلسان تقي، صادق، نقي، فاحتمالات الإجابة كثيرة. بعكس ذلك الذي يدعو ربه بلسان سليط، بذيء، فاحش، فإن احتمالات الاستجابة الالهية له قليلة وربما منعدمة!

ففي حديث معتبر، في الكافي لثقة الإسلام الكليني، عن الإمام الصادق عليه السلام: قال كان في بني إسرائيل رجل فدعا اللّه أن يرزقه غلاما ثلاث سنين فلما رأى أنّ اللّه لا يجيبه قال يا رب أ بعيد أنا منك فلا تسمعني أم قريب أنت مني فلا تجيبني قال فأتاه آت في منامه، فقال إنّك تدعو اللّه عزّ وجلّ منذ ثلاث سنين بلسان بذيء وقلب عات غير تقيّ ونيّة غير صادقة فاقلع عن بذائك وليتّق اللّه قلبك ولتحسن نيّتك قال ففعل الرّجل ذلك ثمّ دعا اللّه فولد له غلام(٢).

فإحدى نتائج اللسان البذيء أن عبادة العابد تفسد ولا تحقق آثارها الأخروية بعدما لم تحقق آثارها الدنيوية، وأن الدعاء الذي هو سلاح المؤمن يكون كليلا فلا يستجاب ولا يصل غايته..

٢. ومن نتائج اللسان البذيء: سوء العلاقات الاجتماعية: لأن الإنسان يعيش حياته في مجتمع ولا يعيش وحده، فإنه محتاج إلى الارتباط (بزوجة،

(١) الكافي الجزء والصفحة نفسها.

(٢) الكليني؛ الكافي ٢/ ٣٢٥.

وبأسرة، وجيران، وأصدقاء دراسة وعمل) وهذا مقتضى طبيعته الاجتماعية، فإذا كان سيء اللسان، بذيء الكلام، فكيف يستطيع أن يصنع لنفسه علاقات اجتماعية مريحة؟.

وتبدأ القضية من البيت فمن كان بذيء اللسان لا يستطيع أن يسعد هو في حياته الزوجية فضلا عن أن يسعد غيره. الغريب أن قسما من الناس يقولون: طبيعتي هكذا، أنا عصبي، لا أسيطر على كلماتي!! نقول: طبيعتك هذه فاسدة، أصلح نفسك! فليس هذا محل فخر حتى يتبجح به المرء.. إنما يُفتخر بالطبائع الحسنة.

والجدير ذكره أن الصفة السيئة تبقى لاصقة بصاحبها وإن مر على موته مئات السنين، فنحن نقرأ ترجمات وسِيَر العلماء أو الأدباء والشعراء، وقد يكون لدى كل منهم عشرات الصفات الحسنة، لكن حين يكون بذيء اللسان تسجل هذه الصفة، وتبرز بين باقي الصفات، فيكتب عنه مثلا: وكان شاعرا بذيء اللسان! أو كان فاحش القول! فكأنما ماتت صفاته الأخرى وبقيت هذه عنوانا له ولافتة تدل عليه!

وبينما يحتاج الشخص لاكتشاف شخص آخر في أمانته أو عدالته أو ورعه وحسن خلقه إلى مخالطة ومعاشرة لمدة من الزمان حتى يتبين له ما هو عليه من الصفات، فإن بذاءة اللسان لا تحتاج منك لاكتشافه إلى أكثر من موقف غضب أو معاشرة ساعة!

إن صاحب اللسان البذيء لا يستطيع أن يجتذب الناس إليه بل هم يجتنبونه ويتنكبون الطريق الذي يسلكه، وكم ذهب من حقه بباطل لسانه! وأي عيشة تلك التي يجتنب الناس فيها هذا الشخص، ولا يتخالطون معه إلا بمقدار ما تضطرهم

الظروف! وأي تعاسة يعيشها من يبتلى بالمعيشة معه كزوجته[١]، وأبنائه، وشركائه في العمل؟

وبشكل مؤقت حتى يصلح الإنسان هذا حاله، ويصل إلى مرحلة: ﴿وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ فإن أفضل ما يقول به هو الصمت قدر الامكان، كما ورد عن النبي ﷺ «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخَرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» وما دام غير قادر على الخيار الأول (يقول خيرا) فليلجأ للخيار الثاني.. وبالنسبة لمن يسمع منه الكلام الفاحش فإن الموقف المثالي هو الحلم عنه وعدم الرد عليه، فـ «الحِلْمَ فِدَامُ[٢] السَّفِيهِ» كما ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام فكأنّ الصمت والحلم، وعدم الرد، يجعل أمام السفيه حاجزا عن الاستمرار.

٣. ومن النتائج السيئة للسان البذيء: إيذاء المسلم. فالإيذاء على أقسام: فقد يكون الإيذاء بالضرب، وقد يكون بالجرح وإخراج الدم، وقد يكون باللسان. وقد ورد في الشعر العربي: ولا يلتام ما جرح اللسان.

إنّ الجروح العادية قد تحتاج لثلاثة أيام، حتى تبرأ وتشفى. لكن إذا اعتدى أحدهم على إنسان اعتداء لفظيا، وأفحش له القول، وشتمه، وسبه، فمن الممكن أن يبقى ولفترة طويلة من الزمان، يؤثر في نفس ذلك المعتدى عليه. وهذا من مصاديق

---

(١) لاحظ بعض هذه الزوجات تتحدث عن أنها بعد معيشة خمس وعشرين سنة، لا تستطيع أن تتحمل أكثر! وتطلب الطلاق مع أن لديها من ذلك الزوج أولادا! فهي تجد في كل كلمة سوطا يقرعها به! وبعضهن يرين الطلاق وهو أسوأ الخيارات أحسن من الاستمرار معه! وأحيانا يكون العكس عندما يرى الزوج نفسه مضطرا لطلاقها مع كبر سنها! للفكاك من لسانها السليط.

(٢) فدام يعني: كمامة والفدام يستعمله المجوس عندما يتعبدون أمام النار التي يقدسونها فيجعلون على فمهم مثل الكمام الذي يستخدمه الأطباء لكي لا يخرج من أنفاسهم شيء سيء، فيفسد قداسة النار! كما يعتقدون.

إيذاء المؤمن والمسلم، وهو حرام. يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[١].

إن بعض الكلمات يكون إيذاؤها أعظم من لطمة عين وصفعة خد. ولذلك يقول سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام: «إِيَّاكَ ومُستهجَنَ الكَلَامِ، فَإِنَّهُ يُوغِرُ القَلْبَ»[٢]. يعني يشعلها من الغيظ ويملأها حقدا وكراهية.

٤. ومن نتائج التعود على البذاءة؛ اللامبالاة حتى لو وصلت البذاءة إلى الرب ودينه! فربما يرى الإنسان في بعض الأماكن والأشخاص أنه إذا تعود على فاحش من القول في الناس، فلا يتوقف عند هذا. بل يصل الأمر إلى سب الله عز وجل. وسب الدين، بكلمات يقشعر لها بدن الإنسان.

هذه لم تأت ليومها، وإنما بدأ صاحبها بالبذاءة والسباب لشخص، فاستمرأ بذيء اللسان هذا الشيء، ثم تمادى وأصبحت طبيعة عنده، حيث لم يقف أحد أمامه، ولم يُفهمه أحد أن هذا شيء يهز شخصيتك ويحطم ذاتيتك. حتى بالتدريج وصل إلى سب الدين، وبعد ذلك إلى سب ربه الذي أنعم عليه بوجوده.

أما لو كان في أول استعمال له لهذا اللسان في غير ما أُعد له، ولو تم الاعتراض عليه في أول جفاء وفحش في القول، ولم يقبل تبريره لفعله ذاك، لما تمادى! نتذكر هنا ما فعله الإمام الصادق مع ذلك الذي شتم غلامه وعبده حينما تأخر عليه بقوله: يا ابن الفاعلة.. فغضب منه الإمام وبين له خطأه وهجره على أثر ذلك. وكذلك فعل الإمام عليه السلام مع سماعة بن مهران وهو أحد أصحابه، ولنترك صاحب القصة ينقلها لنا كما وردت في الكافي عن سماعة، قال دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام «فَقَالَ لِي

---

(١) الأحزاب: ٥٨.

(٢) ميزان الحكمة ٣/ ٢٧٣٥.

مُبْتَدِئًا: يَا سُمَاعَة، مَا هَذَا الَّذِي كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ جَمَّالِكَ؟ إِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ فَحَّاشًا أَوْ سَخَّابًا أو لَعَّانًا».. فقلت: والله لقد قلت ذلك لأنه ظلمني».

ربما يكون كما هي عادة بعض أصحاب السيارات والمراكب، قد أخذ أكثر من المقدار المتعارف أو المتفق عليه أو لم يوصل المتاع أو الشخص إلى المكان المعين! وهذا مع عدم رضا المستأجر يكون ظلما! غير أن الإمام عليه السلام لم يقبل هذا العذر والتبرير من سماعة، وقال له:

«إِنْ كَانَ ظَلَمَكَ فَقَدْ أَرْبَيْتَ عَلَيهِ، إِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ فِعَالِي وَلَا آمُرُ بِهِ شِيعَتِي». «لَقَدْ أَرْبَيْتَ عَلَيهِ» يعني: زدت على فعله. وهذا الكلام الذي تقوله ليس من فعالي أنا جعفربن محمد، ولا من فعال شيعتي ولا آمر به شيعتي. وأضاف الإمام قائلا «اسْتَغْفِرْ رَبَّكَ وَلَا تَعُدْ». قلت: «أَسْتَغْفِرُ اللهُ وَلَا أَعُودُ»[1]..

وهذا التوجيه الأخير والاستجابة من سماعة هو ما ينبغي للمؤمن فعله، فلا يكابر ولا تأخذه العزة بالإثم، وإنما يتراجع بعدما تبين له خطؤه، ويستغفر ربه عازما على عدم العود لتلك الطريقة فهي ليست من فعال الإمام ولا من فعال شيعته وأتباعه.

فكّر أخي المؤمن:

هل أغلظت القول وأفحشت اللفظ لعاملك الذي يعمل عندك؟ توقف! فهذا ليس من طريقة إمامك ولا من طريقة شيعته فـ (لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِطَعَّانٍ وَلاَ لَعَّانٍ وَلاَ فَاحِشٍ وَلا بَذِيءٍ)!

هل أسأت بلسانك لزوجتك؟ هل جرحتها بكلماتك؟ توقف! واستغفر ربك! كن قويا واعتذر لها عما سلف بشكل واضح! فإن (البذاء من الجفاء والجفاء في

(١) الكليني؛ الكافي ٢/ ٣٢٦.

النار)[١].

هل أسأت لتلميذك أيها الأستاذ؟ وأطلقت عليه وصفًا غير حسن؟ أحرجتَه بقولك إنه غبي؟ أو حيوان؟ لو لم تصلح الأمر وتزل الآثار النفسية منه فأنت محاسبٌ مسؤولٌ يوم القيامة! ومن الممكن أن دعاءك في حق نفسك وولدك لا يستجاب لأن الله يحب الدعاء من لسانٍ زكيٍ!

أختي المؤمنة: كل ما سبق ينطبق عليك.. بالنسبة لعاملتك في المنزل! وبالنسبة لزوجك! وبالنسبة لطالباتك إن كنت مدرسة! بل يزيد على ما سبق أن الجفاء والبذاء وسلاطة اللسان لا تتناسب مع أنوثتك! فإذا قام بذلك رجل في طبعه الخشونة، فإن أنوثة المرأة ورقتها وجمالها يأبى عليها أن تكون سليطةَ لسان وجافيةَ مشاعر وبذيئة قول! إن ذلك ليكون بمثابة حلوى جميلة ثم يوضع عليها نصف كيلو ملح! أترين هذه الحلوى الجميلة كيف تتناقض؟ وكيف تفقد قيمتها؟

(١) نفس المصدر/ ٣٢٥.

التكبر وشخصياته غير المعروفة

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسان لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[1]

تتناول هذه الصفحات بعض أنحاء التكبر والمتكبرين غير المباشرة وغير الصريحة.

فإنه عندما تلفظ هذه الكلمة ومشتقاتها، يتبادر إلى الذهن صورة السلطان المترفع أو الرجل الغني الشامخ بأنفه الناظر في عِطفه الذي لا يتنزل (!) لكي يخاطب من يراه أصغر شأنا منه! والذي ينتظر من الآخرين تقديم فروض الاحترام والإجلال له، وإظهار الذلة أمامه!

إلا أن كثيرا من المتكبرين حقيقة، ليسوا على هذه الصورة بل قد تراه رث الثياب أو لا يملك دينارًا في جيبه ومع ذلك هو أكثر عتوًّا من كبار المتكبرين.. والسبب في ذلك هو أنه يرى نفسه مستغنيًا، ويرى ذاته كبيرة! فيطغى كما أشارت الآيتان المباركتان ﴿إِنَّ الْإِنسان لَيَطْغَىٰ﴾ متى، هل حين يمتلك القدرة والمال والجاه فقط،

---

(١) العلق: ٦ـ٧.

ليس هذا فحسب بل ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ يعني حين يرى نفسه غنيًا مكتفيًا عن ربه أو غيره.

وهاتان الآيتان المباركتان من سورة العلق وهي من أوائل السور التي نزلت على المصطفى رسول الله ﷺ في مكة، بالرغم من أن السور المكية ولا سيما تلك التي نزلت أولًا غالبًا ما تتعرض إلى أصول العقائد، كقضية التوحيد والمعاد، ورسالة النبي ﷺ، إلا أننا نجد فيها -كما في هذه السورة المباركة، وفي هاتين الآيتين- إشارة إلى قضايا أخلاقية، ومع أنه فسر (الإنسان) هنا بأبي جهل بن هشام، إلا أن اللفظ عام ولا يكشف عن قضية شخصية بل إلى أصل أخلاقي، وتعريف بالنفس البشرية.

ويلاحظ أن الآيتين المباركتين لا تربط الطغيان بالغنى، فكم يوجد بين الأغنياء مخبتون مؤمنون بالله تعالى، بل من أوائل المناصرين للنبي في رسالته ودعوته، وإنما تقول الآية: (أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) يعني حين يرى الإنسان نفسه ويتصورها غنية ومستغنية.

ولذلك لو كان في الواقع غنيًا مليئًا بالمال، ولكنه يستشعر فقره لله تعالى، وأنه (لا حول له ولا قوة إلا بالله) فإن هذا لن يكون طاغيًا بلا ريب. وبالعكس فإن بعض من لا يملك دينارًا في جيبه لكنه يتصور نفسه قادرًا وقويًا فإنه يطغى!

إن سليمان النبي آتاه الله ملكاً لم يكن لأحد من قبله ولم يحصل لأحد من بعده، ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾[١]، ولكن هذا الملك العظيم لم يجعله يرى نفسه مالكا لشيء وإنما قال: ﴿هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[٢].

---

(١) ص: ٣٦-٣٧.

(٢) النمل: ٤٠.

من هنا ندرك إلى أي حدٍّ هو أثر التربية الروحية من خلال العبادات والأذكار، حيث أنها تكرس في الإنسان شعوره بالحاجة إلى ربه، وأنه ضعيف ذليل لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، والمفروض أن مثل هذا ينجي الإنسان من: (إِنَّ الْإنسان لَيَطْغَىٰ.أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ)، إذا التفت إلى حقيقة معناها.

هذه هي حقيقة الإنسان، ومقداره الصحيح في الحياة لو تأمل فيه، وإنما هي حالة التكبر والطغيان التي تتجاوز به حده فـ (يرى) نفسه غنيًا، وكبيرًا وأفضل من غيره! ومن الطريف أن القرآن استعمل تعبير(يطغى) والطغيان هو بمعنى الزيادة. وتجاوز الحد، فيقال: طغى السيل أي: تجاوز مكانه المعتاد، وهذا الإنسان عندما يرى نفسه غنيا يتجاوز حده الطبيعي ويطغى.

والتكبر: تفعُّل من الكبر، وهو في صفة الله تعالى[1]يختلف عنه في العباد، فهو من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، لكنه إذا استعمله العبد كان ذمًا لأنه تكلف لما لا يصح له وادعاء لما هو قاصر عنه وكاذب فيه، لا سيما مع اقتران هذه الصفة بصفة الجبار.. ففيما وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾[2] وصف العبد المتكبر بأنه قد طبع على قلبه، وفي التفريق بينهما قال المصطفوي: «هذه الصفة في العبد من رذائل الصفات الخبيثة، فانّ العبد الذليل المملوك الفقير المحدود الضعيف لا ينبغي له أن يتكبّر.

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٢٦٥ : فأما المتكبر ففيه خمسة أقوال:

١/ أنه الذي تكبر عن كل سوء.٢/ أنه الذي تكبر عن ظلم عباده. ٣/ أنه ذو الكبرياء، وهو الملك. ٤/ أنه المتعالي عن صفات الخلق. ٥/ أنه الذي يتكبر على عتاة خلقه إذا نازعوه العظمة فقصمهم.

(٢) الحشر: ٢٣.

وهذا بخلاف الربّ القادر الغنيّ المالك العزيز المتعال، فانّه ينبغي بمقتضى عظمته وجلاله بذاته: أن يظهر كبرا، ولا يصحّ له أن يظهر منه ما يشعر بصغر وضعف وحدّ، سبحانه وتعالى عنه، فانّ هذا خلاف الحقّ ويوجب انحرافًا في عقائد خلقه واضطرابًا..﴿السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ ٥٩/ ٢٣ ولا يخفى أنّ المتكبّر في مقام توصيف الربّ يذكر بعد اسم الجبّار، وأمّا في توصيف العبد فيذكر قبله :﴿كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّار﴾ ٤٠/ ٣٥ فانّ الجبّار هو القاهر الغالب النافذ، وهذا المعنى بعد صفة التكبّر غير ملائم، فانّ النفوذ والقهر والغالبيّة بعد اظهار الكبر: يبلغ الى التعدّي و إضاعة الحقوق والجابريّة، بخلاف ذكر الكبرياء بعد الجبّاريّة: فانّ اظهار الكبر يصلح الجبّاريّة و القهر».[١]

إن العبد مركب من النقص والعجز والضعف فممارسته للتكبر والتعاظم هو كذب وتعاطٍ لما ليس له. إن حياة الإنسان متوقفة على تنفسه، وحركة قلبه، وعمل أعضائه الداخلية، وكل هذه تجري رغمًا عنه ولا تنتظر منه أمرًا حتى تعمل، ولا تتوقف لعدم رغبته في ذلك! فكيف يدعي التكبر وهو لا يستطيع السيطرة على بدنه؟ ولا يتحكم بأعضائه؟ ولا يملك حياته ولا موته؟

بين الصور الظاهرة والخفية:

لقبح التكبر في الأعين فإن الكثير من الناس يتبرؤون منه ظاهرًا، ويعلنون أنهم غير متكبرين، فإذا تم الحديث عن التكبر تبادر إلى ذهنهم أمثال قارون الذي انبعث ﴿فخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾! بينما هم لا يمتلكون أموالًا حتى يتكبروا. لكن التكبر لما كان شعورا داخليا، فإن من الممكن أن أكون أنا أو أنت عزيزي القارئ متكبريْن، ولا نشعر أو لا نحسب من المتكبرين. يوجد لدينا حقائق التكبر ولسنا معروفين به!

---

(١) المصطفوي؛ الشيخ حسن: التحقيق في كلمات القرآن الكريم ١٠ / ١٩.

قد يوجد عالِم يحمل علمًا كثيرًا، لكن علمه ذاك لم يؤثر في تهذيب نفسه، وقد لا يملك الأموال الطائلة ولا الهيئة البهية المشيرة إلى تعاظمه، ولكنه مع ذلك متكبر في داخله، فهذا نفسه قد يطلع على بحث لعالم أو فكرة لفقيه.. فيقول لتلامذته أو من يسمعون كلامه! ما هذه التلفيقات؟ هل هذا له معرفة علمية؟ إن هذا البحث لا قيمة له ولا يسوى قيمة الحبر الذي كتب به! هذا مع أن الواقع غير ذلك؟ ولكنه أراد إظهار نفسه بمظهر العالم الفحل الذي لا يُشق غبارُه ولا يُبلَغ مقداره.

وقد يتعاظم هذا العالم في نفسه على غيره، حتى يصبح كتلة من التكبر، فلا يرى أحدًا يعادله ولا فكرة إلا وهو محيطٌ بها، ولا علم إلا لديه، وأما غيره فهم لا يفقهون ولا يفهمون! وربما لا يستطيع إخراج هذا الكلام للمجتمع ـ لجهات ـ لكنه يستشعر هذا في نفسه، ويعتقد به.. هذا من الكبر الذي قيل عنه ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾.[١]

وقد يكون بحث ذلك العالم (المنتقَد) أو كتابه، يحصل من التوفيق، لسلامة نية كاتبه ما ينتشر معه في كل مكان، ويصبح حديث كل لسان بينما يبقى هذا المتعاظم في نفسه لا يؤثر حتى في طلابه، وينسى ذكره ولا يكون له من أثر.[٢]

وقد يكون طالب العلم أو الخطيب والموجه مثالًا للتكبر، حين يعتقد في قرارة

---

(١) غافر: ٥-٦.

(٢) قد يكون هذا بشكل طبيعي حيث يكتسب المتواضع محبة الناس فيعظم في أعينهم ويزداد حضوره بينهم بعكس المتكبر الذي لا يرتاح إليه الناس فلا يذكر وإذا ذكر فبالانتقاد، وقد يوجد بالإضافة إلى العامل الاجتماعي عامل غيبي، وهو ما قد يشير له أحاديث؛ منها ما عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: ما من أحد من ولد آدم إلا وناصيته بيد ملك، فإن تكبر جذبه بناصيته إلى الأرض وقال له: تواضع وضعك الله! وإن تواضع جذبه بناصيته ثم قال له: ارفع رأسك رفعك الله، ولا وضعك بتواضعك الله. كما في ميزان الحكمة ٤/ ٣٥٥٩.

نفسه أن أعمال الناس عمومًا باطلة، لأنهم لا يعرفون مسائل الطهارة والنجاسة، ويترتب على ذلك أن تكون صلاتهم غير صحيحة، وبالتالي فسيكونون من أهل النار! باستثنائه هو ومن على شاكلته، فإنه حيث يدقق في هذه المسائل فتكون أعماله صحيحة، وبالتالي فهو من ورثة الجنة! هذه هي عقلية ﴿إِنَّ الْإِنسان لَيَطْغَىٰ ❁ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ وهي مخالفة تمامًا لـ ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.

وقد تعبر بعض الممارسات عن حالة من التكبر في داخل الإنسان لا تخطئها العين، مثلما إذا حضر بعض طلاب العلم، فإنه ينتظر من الناس أن يقوموا إجلالًا له، وأن يترك الرجل الكبير وغيره مواقعهم ليجلس وهو المتأخر في صدر المجلس! مع أنه قد نص على أن من التواضع أن تجلس حيث بلغ المجلس وأن من التكبر الاصرار على تصدر المجلس!

في المقابل نرى أن العلماء الحقيقيين يرون أنفسهم لا يعلمون شيئًا، وأن عبادتهم حقيرة، ويستشعر الواحد منهم في داخله أنه (الأحقر)! بل عندما يناقشون سابقيهم من العلماء في نظرياتهم تراهم ينتحلون لهم الأعذار، والقول بأنه ربما كان قصده هكذا، أو أن دليله في المسألة كذا لكن يناقش بكذا بل أحيانا يقول بعضهم: لعلنا لم نفهم مقصوده بشكل كامل.. الى غير ذلك من العبارات التي نطلع عليها في كتبهم! والتي تشير إلى تواضعهم الحقيقي.

ومن النماذج المتكبرة الخفية: ما يعرف بالنخب الثقافية. فإن قسمًا من هؤلاء يقرأون الكتب، ويتعمقون فيصبحون على مستوى ثقافي متميز، ولا سيما إذا اطلع على الثقافة الأجنبية أو قرأ بلغاتها الأصلية، أو لكتاب مشهورين! فعندئذ (يتسامى) بعضهم كالغاز في الهواء، ويرى نفسه شيئا عظيمًا متفردًا بين الناس! ناظرًا إليهم من الأعلى، فيستهزئ بهذا العامي، وبذلك المعمم، وبعامة الناس الذين لا يفهمون

رأيه ولا يفقهون، وكلما قرأ بعض هؤلاء كتابًا جديدًا زاد استخفافه بالناس! وزادت قسوة انتقاده له، وانفصاله بالتبع عنهم وانحيازه بعيدا منهم.

فيراه ينتقد العبادات والمظاهر العبادية للمجتمع أحيانا وتراه يسفه بعض الممارسات الشعائرية للناس كثيرًا وتصدم آراؤه في الغالب الحالة العامة! وكلما صنع ذلك زاد انفصالًا عن الناس وزاد الناس تجاهلًا له وهذا يؤذيه أكثر ويجعله متطرفًا بنقده إياهم بنحو أعظم ويتعجب كيف للناس أن يستمعوا في رأيه (لمهرجين) و (جهلة) ويسيروا وراء أقوالهم، بينما يغفلون آراء الجهبذ الفحل المتنور (وهو هو)؟

إن هذه النماذج من المتكبرين الحقيقيين، وإن كانوا لا يبدو عليهم التكبر الفج، كما يفعل أمثال قارون وفرعون.. يحملون نفس الروح ويعتقدون بنفس الاعتقاد، ويتصورون أن العالم يدور حولهم وأنهم لو تكلموا بكذا لغيّروا وبدّلوا، يكتب الواحد منهم كلمات في الفيسبوك أو تويتر فيحصل على تأييدات و(لايكات) فيتصور أن العالم سيتغير بناء على كلماته أو تغريداته. وهكذا يبدي ذلك العالم كلمة في درسه أو الخطيب فكرة في منبره فيتصور أن الدنيا ستقوم ولا تقعد لأجل ذلك، و يعلم الجميع أن تفاصيل الأمور اليومية في الدنيا تنسي الناس ما يفعله أكبر زعمائها ورؤسائها بعد يومين من حدوثه فضلا عما يقوله.

إن هؤلاء يذكّرون بما قيل من المثل من أن الديك يتصور أن الشمس لا تشرق إلا إذا خرج مناديًا لها بصياحه!

ومثله ذلك الوالي الذي قيل إنه صعد المنبر وخطب خطبة أعجب بها وكأنّ السامعين أيضًا أعجبوا بها فقالوا له: كثر الله في المسلمين أمثالك. فقال لهم: لقد كلفتم الله شططًا! أي لا يمكن لله أن يأتي بأمثال لي.

نذكّر هذا النمط بقول أمير المؤمنين عليه السلام «العَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ وكفى بالمرء جهلا ألّا يعرف قدره».

الحسد: الخلق الذميم

من دعاء للإمام علي بن الحسين ﷺ في الصحيفة السجادية، جاء فيه: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَيَجَانِ الْحِرْصِ وَسَوْرَةِ الْغَضَبِ وَغَلَبَةِ الْحَسَدِ وَضعْفِ الصَّبْرِ وَقِلَّةِ الْقَنَاعَةِ وَشَكَاسَةِ الْخَلْقِ وَإِلْحَاحِ الشَّهْوَةِ»[1]، إلى آخر دعاء الإمام ﷺ.

كما أن هناك أدعية تعلم طلب المؤمن مكارم الأخلاق وتشير إلى فضلها، فكذلك هناك أدعية تعلم الاستعاذة من الصفات السيئة، وكيفية النجاة من الابتلاء بها كالدعاء السابق.

ذلك أنه قد تكون معرفة المرض أحيانا أكثر أهمية من معرفة الصحة، وقد تكون معرفة الشر أهم كذلك من معرفة الخير. فلو لم تعرف -مثلا- أعراض الصحة، ربما لا يصيبك شيء. لكن -لا سمح الله ولا قدر- لو لم تعرف أعراض السكر، مثل: زيادة التبول، الإجهاد من غير مبرر، فقدان الوزن من دون حمية أو برنامج، وأمثال ذلك، ربما لا تلتفت أنك مصاب به إلا بعد أن يتفاحش هذا المرض ويستفحل. هنا كان الخير لك أن تعرف أعراض المرض.

---

(١) السجاد؛ الإمام علي بن الحسين: الصحيفة السجادية الكاملة / ٥٧.

وهكذا لو جهل الإنسان -مثلا- أعراض الأزمة القلبية -أجاركم الله وإيانا والمؤمنين منها- لم يلتفت إلى أن الألم الخاص في الصدر، أو خلف الكتف، أو التعرق غير المبرر، أو أمثال ذلك من ضيق التنفس، مما يذكره الأطباء كنذر ومنبهات على أزمة قلبية قادمة، لو لم يتعرف الإنسان على أعراض المرض تلك، من الممكن أن تحصل له الأزمة القلبية، ولا يستطيع أن يتداركها. فتقضي عليه. بينما لو كان متعرفا على أعراض المرض ومنبهاته ربما كان يستطيع أن يتدارك الأمر.

من هذا المنطلق، كانت آيات القرآن الكريم وروايات أئمة الهدى ﷩، تنبه على التعريف بجوانب الشر، ومساوئ الأفعال، وعلى الأمراض النفسية، وهكذا.

بل إنما نال بعض أعاظم أصحاب رسول الله ﷺ، كحذيفة بن اليمان العنسي،[١] ما نال من خلال معرفته بالشر وخطوط النفاق والسوء وهو ما أشار إليه ؓ بقوله: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِ»[٢]. كان أصحاب رسول الله يسألون النبي عن الجوانب الإيجابية، وكنت أسأله عن الجوانب السلبية، عن الشر، عن الخطوط المنحرفة، عن الأشياء التي تؤدي بالإنسان إلى الهلاك. فمن الطبيعي، إذا تعرف على ذلك بالتفصيل، أن يحدد اتجاهه بشكل صحيح.

ضمن هذا الإطار، أعني معرفة الصفات الخلقية السيئة؛ نتناول هذه العناوين

---

(١) حذيفة بن اليمان العبسي ولد في مكة وعاش في المدينة المنورة ومات سنة ٣٦ هجرية في المدائن. من أعاظم صحابة رسول الله، ومن النوادر الذين كانوا يعرفون المنافقين بأسمائهم، ويحددون الخطوط المنحرفة في مجتمع المدينة بشكل دقيق. وهو من النفر القلائل الذين شاركوا في تشييع ودفن فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها. له ترجمة في كتابنا رجال حول أهل البيت ج ١.

(٢) . الطوسي؛ محمد بن الحسن: الأمالي ١/ ٢٢٢ . البخاري؛ محمد بن اسماعيل: صحيح البخاري: ٤/ ١٧٨.

لكي نعرف آلية حدوثها في الإنسان. كيف تحصل فينا؟ حتى نتقيها. ما هي الوسائل التي تنفع الإنسان في أن يجتنبها؟

ونتناول في هذه الصفحات موضوع الحسد:

جوهر الحسد: أن يتمنى شخص زوال نعمة غيره، إما لتصل إليه (الحاسد)، أو حتى لو لم تصل إليه.

وينطلق الحاسد عادة من رؤية أن فلانًا (المحسود) لا يستحق النعمة التي هو فيها؟ فكيف أعطاه الله هذا المال والثروة؟ أو كيف حصل له هذا الجاه الاجتماعي؟ وكيف استولى على هذا العلم؟ إنه لا يستحق شيئًا مما سبق. لو كان الأمر بيده هو لحجبها عنه.

وبذلك يختلف عن الغيرة والغبطة. مع أن البعض قد يخلط بين الغيرة والحسد. إلا أن هناك فرقًا دقيقًا بينهما: فالغيرة هي: أن يملك إنسان شيئًا ما ويخشى من مشاركة آخرين له في هذا الشيء أو امتلاك مثله. فالزوجة على سبيل المثال، تظن أنها تملك زوجها. فإذا تزوج امرأة أخرى، تعتبر الأولى أن هذه الأخرى جاءت تشاركها فيما تملك، فتغار منها، وتتخذ منها موقفًا سلبيًا. ويتمنى الولد مثلا أن يصل إليه ميراث والده بتمامه. فإذا جاء أخ له، اعتبر أنه سيشاركه في ذلك الميراث، الذي كان سيصل إليه وحده، أما الآن فهناك مزاحم له فيه، فيغار منه.

والبنت كانت تتمتع بمشاعر وعواطف أمها وأبيها. حتى رُزقا بأخرى. وهذه سوف تشارك أختها في تلك العواطف التي تتصور الأولى أنها ملكها الخاص!

غير أن الحاسد أسوأ حالًا من الغائر، إذ ليس له أي ارتباط مع مال زيد. فهذا من عشيرة وذاك من أخرى! ومع ذلك ينفَس عليه ويصعب أن يحظى هذا بمال وهو

محروم منه، أو يحظى بزوجة جميلة مطيعة وهو لا يملكها. فيتمنى لو زالت هذه النعمة منه.

كما يختلف عن الغبطة وهي رؤية ما لدى الغير من نعمة وتمني أن يكون له أي لمن يغبط مثلها أو أكثر من دون أن يتمنى زوالها من صاحبها. وهذا من الناحية الشرعية ليس ممنوعًا بل هو ممدوح وسيأتي الحديث فيها.

مراتب الحسد:

وهو -أي الحسد- على درجات؛ كما ذكر ذلك الشهيد الثاني ﵀[(١)] في كتابه كشف الريبة في أحكام الغيبة. فإنه ﵀ في سياق الحديث عن أسباب الغيبة، ذكر الحسد وأنه يبعث على غيبة الآخرين؛ وذكر أربع مراتب:

«الأولى: أن يحب الحاسد زوال النعمة عن المحسود وإن كانت لا تنتقل إليه»، ويرى أن هذا غاية الخبث وأعظم أفراد الحسد.

إذا رأى صاحب المال يتمنى أن يحترق ماله! أن تخسر أسهمه! ويرى صاحب الزوجة الحسناء الصالحة، فيتمنى لو تموت بالسرطان! تسأل ماذا ينفعه ذلك؟ الجواب: لا شيء! لا المال انتقل إليه ـ الحاسد ـ ولا الزوجة صارت له ولا الوجاهة

---

(١) الشهيد الثاني: ٩١١ – ٩٦٦ هـ زين الدين بن علي بن أحمد العاملي الجبعي: فقيه مجتهد، ولد في جبع (بلبنان) أخذ العلم في بلده ثم قصد مصر، فالحجاز، فالعراق، فبلاد الروم. دارسا ومدرسا، وأقام أشهرا في الآستانة فجعل مدرسا للمدرسة النورية ببعلبك وكان يدرس الفقه على المذاهب لإحاطته بها وشى به بعض أعدائه إلى السلطان، فطلبه، فعاد إلى الآستانة محفوظا، فقتله المحافظ عليه وأتى السلطان برأسه. له الكثير من الكتب، ويعده بعض العلماء من أعلم فقهاء الإمامية.. من كتبه (مسالك الأفهام إلى شرائع الاسلام – ط) في الفقه الاستدلالي و(الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية – ط) و (كشف الريبة في أحكام الغيبة) وغيرها.

الاجتماعية أصبحت تاجا على رأسه.. المهم أنها زالت من صاحبها وأصبح محروما من كل ذلك! ولا ريب أن هذا يكشف عن نفس مريضة للغاية! ولذلك قال عنه إنه أعظم أنواع الحسد خُبثًا.

هو لا يرتاح حين يسمع أحدا يمدح شخصًا بشيء! فإذا قيل له إن فلانًا قد بنى من المساجد والمراكز الاسلامية أو الاجتماعية كذا وكذا.. انبعث ليقول: ليس المهم أن يبني الإنسان الحجر، إنما المهم أن يكون ذلك بنية خالصة من غير رياء! وفي الواقع هو لا يهمه النية الخالصة وإنما يصعب عليه أن يُثنى على غيره! ويتمنى لو كانت هذه السمعة الحسنة تزول عن ذلك الشخص! حتى لو لم تأتِ إليه هو!

وهذا من الامتحانات التي من ينجح فيها فقد نجا من الحسد، امدح شخصًا بما فيه من صفات حسنة أمام آخرين ستجد أن بعضهم يأتي بأمور لا ترتبط بما تقوله إلا بمقدار ما تسبب التشويش على مدحك إياه! فقد تقول إنه عالم أو فقيه أو كاتب ناجح أو ما شابه!! فيقفز هذا الحاسد ليقول لك ـ مثلا ـ لكن تقليده غير صحيح! والغرض ليس إلا إفساد هذه النعمة وهي سمعته الحسنة!

المرتبة الثانية: أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته فيها، لا مجرد زوالها عن صاحبها.

كما لو أنه يريد – لنفترض – أن يطلق زوج زوجته حتى يتزوجها هو. أو أن يخسر فلان أمواله وهو يربحها، كأن ينتكس وضعه في الشركة الفلانية وبدل أن تكون أمواله له تصبح أموال الحاسد. وهذا المرتبة أدنى في السوء والخبث من المرتبة السابقة، لكنها أيضًا حرام وهي من مراتب الحسد السيئة.

الثالثة: ألّا يشتهي عين تلك النعمة بالضبط ونفسها، بل يشتهي لنفسه مثلها، فإن عجز عن مثلها، يحب زوالها كي لا يظهر التفاوت بينهما. لا يحب أن يحصل

على نفس مال فلان، ولا أن يتزوج زوجة علان بذاتها، ولا أن يكون له العلم الذي هو عند زميله.. وإنما يتمنى لنفسه مثل ذلك. لكن هذا لا يحدث إذ أن الأمور لا تحصل بالتمني وإنما بالسعي والجهد والاستمرار، فلم يصبح ذلك الشخص ذا مال لأنه جلس ذات يوم وتمنى المال وإنما حصل على المال نتيجة مكابدة وعمل جاد وتخطيط متقن! وهكذا فإنه لم يصبح ذلك الزميل عالما لأنه أحب أن يكون كذلك فكان وإنما واصل الليالي والأيام بالدرس والبحث حتى صار كذلك، بينما صاحبنا هذا لا يملك غير التمني وليس له عدة غير الرجاء، ومن الطبيعي ألّا يحصل على شيء غير الهواء! ولأنه كذلك فيذهب باتجاه تمني زوال النعم عن أولئك، حتى لا يصبح بينه وبينهم أي فرق. وحتى في هذه الحال أيضًا فهو لا يحصل على ما يريد لأن ذهاب النعم عن الآخرين لا يكون بسبب تمنيه ومحبته لذلك!

هذه أيضًا مرتبة من مراتب الحسد المذموم، وتكشف عن نفس مريضة، وهمة فاترة، وحكمة غائبة! وهذه المرتبة بالإضافة إلى المرتبتين قبلها محرمة شرعا. وإذا أصر عليها الإنسان تفقده العدالة.

الحسد قلبي وفعلي:

ويقسمون الحسد إلى قسمين؛ فقد يكون داخل القلب، وهذا قد لا يؤاخذ به الإنسان، وإن كان يتبين من خلاله أن قلب هذا الحاسد ليس نظيفًا. لكن هذا الحسد يبقى ضمن إطار التفكير وحديث النفس.

وقد يظهر على أفعاله إما بكلام: كغيبة، وتشويه سمعة، وحط من قدر المحسود، فتراه في كل محفل لا يمر ذكر فلان إلا ونبزه بكلام؛ فإن كان صاحب مال قال عنه إنه جمعها من السرقة! وإذا كانت رئيسة في العمل قال إنها ما حصلت على هذا المنصب إلا بعد أن باعت شرفها وأعطت المدير الأعلى ما يريد! وإن كان عالمًا

قال عنه إنه ليس مخلصًا بل يعمل لمصالحه الشخصية! وهكذا..

وقد يكون أمر حسده أكبر فلا يكتفي بالكلام وإنما يذهب ليفسد عليه أمره، فإن كان في الوظيفة ذا منصب كاده وتآمر عليه وكذب حتى يفقده ذلك المنصب (وإن كان لن يحصل الحاسد على ذلك المنصب) وإن كان في التجارة عمل من الأعمال ما ينتهي لتعويق تجارته وتحقق الخسارة عنده.. وقد تتعجب عزيزي القارئ من سعي هؤلاء الحثيث في إسقاط غيرهم ممن يحسدونهم، وكم من الأموال والأوقات والجهود يصرفونها لكي يفسدوا أمر محسوديهم! ولو بذلوا نصف تلك الجهود لتقدم أنفسهم ربما وصلوا إلى ما وصل إليه غيرهم ممن يحسدونهم ويفسدون أمرهم! ولكنها القلوب المريضة والعقول الكليلة والأحقاد الكامنة!

والمرتبة الرابعة مرتبة الغبطة. وهي: أن يشتهي الحاسد لنفسه مثل ما عند المحسود، فإن لم يحصل عليه، لا يحب زواله عنه. فلو رأى -مثلا- عنده مالا، فيقول: ليت عندي مثل ما عنده، يا رب ارزقني كما رزقته أو فوق ما رزقته. ويرى حامل علم، فيقول: يا رب ارزقني مثل ما رزقته. بل تراه يمدحه ويهنئه: هنيئًا له، أحسَن صنعًا، صرف عمره في أمور مفيدة ونافعة، يغبطه في ذلك، دون أن يتمنى أن تزول من عنده النعمة، وإنما أن يصبح له مثلها!

لقد ذكر الشيخ الشهيد ﷺ هذه المرتبة باعتبارها الرابعة في مراتب الحسد، ومع التدقيق نلاحظ أنه لا يمكن أن تحسب من مراتب الحسد أصلا، لأنها تغايره وتباينه. في موضوعه وفي حكمه، فأما موضوعه فهو تمني زوال نعمة الغير والحال أن الغابط لا يتمنى ذلك بالنسبة لمن يغبطه! وأما حكمه فتلك المراتب الثلاث محرمة شرعا قبيحة عقلا مستهجنة أخلاقا، بخلاف الغبطة فهي ليست محرمة من الناحية الشرعية كما هي ليست قبيحة ولا مستهجنة بل هي طبيعية ومستحسنة!

ولهذا تم التفريق بينهما في حديث الإمام الصادق ﵇..«إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَغْبُط ولا يحسد وَالْمُنَافِقَ يَحْسُد ولا يغبط»[١].

(١) الكليني؛ الكافي ٢/ ٣٠٧.

هكذا تحدث القرآن عن الحسد

كيف تناول القرآن الكريم صفة الحسد؟ وكيف تحدث عنها؟

بنظرة فاحصة نجد أن القرآن الكريم قد تناول بالأسلوب القصصي الحسد، وآثاره، وأضراره، وشروره. وذلك عندما تحدث عن بعض القصص الفردية في حياة الأنبياء وأسرهم، وأيضًا عن حسد بعض أصحاب الديانات لدين الإسلام ونبيه. وكذلك ما تناوله داخل دائرة المسلمين وحسد بعض الفئات المسلمة لمن أنعم الله عليهم بنعمه..

ثلاث قصص قرآنية. سوف نشير إليها؛ الأولى: ما كان بين إبليس ونبي الله آدم عليه السلام. وقد ذكر القرآن الكريم أن الدافع الأساس لإبليس في رفضه السجود لآدم، التكبر من جهة، والحسد من جهة أخرى. وأما الأثر المترتب عليه: أنه سوف يعادي ذرية آدم إلى يوم القيامة.

مختصر تلك القصة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إبليس﴾[1]،

(١) البقرة: ٤٣.

﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[١]، إن الاستكبار والافتخار بالعنصر والذات منع إبليس من طاعة الله في السجود لآدم والاحترام لشأنه.. هل هذا يكفي؟ لقد تقدم خطوة للأمام فقال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ولم يكتف بالاستكبار الداخلي ولا بالحسد القلبي بل أكد أنه سيسعى لإفشال نعمة الله على أبناء آدم من أن تأخذ مداها، وسيفسد على الساعين إلى الله طريقهم، ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ وهنا يتحول الحسد الداخلي إلى حركة فعلية خارجية، بعدما رأى إبليس أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى لآدم كرامة وأسجد له الملائكة، وحيث أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا في هذه الكرامة؛ لأنها من عند الله عز وجل. فليسع لإفشال أثرها في أولاد آدم وذريته ويسقطهم في مزالق المعاصي والشهوات. هذه هي الترجمة العملية لحسد إبليس لآدم.

وقد تم التركيز في القرآن الكريم على تكبر إبليس على آدم وحسده إياه في أكثر من سورة. وأن إبليس قد أتبع ذلك الحسد الداخلي بِشر خارجي، وفعل إضراري بذرية آدم. وهذا قد يفسر لنا ماذا يعني قول القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[٢].

الثانية: قصة قابيل وهابيل. ومختصرها ما جاء في سورة المائدة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ

---

(١) الاسراء: ٦١.

(٢) الفلق: ٥.

لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١).

ان ما يلفت النظر في قصة ابني آدم جهات كثيرة، منها: موضوع المَحْسدة. فإنه قد يُحسد الإنسان؛ لأن لديه مالًا مثلا، أو زوجة حسناء، أو مركبة فارهة، أو بيتًا فخمًا.. ويتمنى الحاسد زوال تلك النعم عنه، أما أن يحسده الإنسان لأنه محبوبٌ عند الله!! ويريد أن يزول عنه هذا الحب الالهي فهذا أمرٌ غريب!

ومنها: التركيز على قضية الأخوة بينهما. فالحسد لا يعرف قرابة ولا نسبًا. فمن الممكن أن يحسد الإنسان أخاه لأبيه وأمه. كابني آدم، إذ تحققت فيهم هذه الخصلة السيئة، من جهة قابيل لهابيل. وسيأتي أن الحسد في الأقارب أكثر منه في الأباعد، وفي المتشابهين أقرب منه في المختلفين، وفيما بين الأرحام أكثر مما هو بين الأجانب عن بعضهم البعض.. هذه الآيات والأخرى التي تتحدث عن أبناء يعقوب النبي، تشير إلى أن هذه الخصلة الذميمة لا تعرف أخًا ولا أختًا ولا ابن عم ولا ابن خال ولا زوجا ولا زوجة. فمن الممكن أن تكون فيما بين هؤلاء.

أما القصة الثالثة، فهي: قضية نبي الله يوسف عليه السلام مع إخوته. وهي قضية معروفة: أن هؤلاء على أثر حسدهم له، كانوا يتمنون أن تزول محبة أبيهم ليوسف فلا تعود له وتنصرف منه إليهم ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾(٢) ! تُعصب بنا الأمور ونقضي المهمات فينبغي والحال هذه أن نكون نحن الفائزين بمحبته لا يوسف وأخوه! وما دام أبونا يفعل خلاف ذلك فـ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾! إن

(١) المائدة: ٢٧ـ ٣٠.

(٢) يوسف: ٨.

الحاسد ليقوم ببعض القياسات الخاطئة ويُخطّئ غيره، فإبليس يرى أن تفضيل الله لآدم ليس صحيحا لأن النار التي خلق منها هي أفضل من الطين الذي خلق منه آدم! وقابيل يرى في تفضيل الله –وأبيه آدم– أخاه هابيل عليه، أمرًا غير صحيح، وأنه هو الأفضل!

أما قضية العين، التي ارتبط بها الحسد فسيأتي الكلام عنها في الصفحات القادمة، وسيتم التشكيك فيما ينسب إلى العين، من خلال القول بأن الحاسد بعينه يؤثر تأثيرًا غير منظور بحيث تحترق سيارته عندما ينظرها بعينه! أو يتساقط شعر المحسودة عندما (تنضلها) الحاسدة بنظرة! وهكذا..

المقدار الذي يتحدث عنه القرآن في قصة أبناء يعقوب الحسدة مع أخيهم يوسف هو أن يعقوب النبي تخوف على ابنه لا من عيونهم وإنما ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾[1]. وإنما يتعوذ من (شر) الحاسد إذا حسد، وفعله الذي يقدم عليه على أثر ذلك!

إن الأثر الطبيعي للحسد هو أنه يدفع الحاسد ليكيد المحسود. فإذا كان المحسود معه في العمل، وتقدم عليه وحقق انجازات فيه، فعلت مرتبته وموقعه، يبدأ بحسده. فماذا يصنع؟ يكيد له. يقدم تقارير كيدية عنه، ويفسد عليه بعض حلقات عمله ويعيقها عن أخذ مجراها الطبيعي! يحاول توريطه في أعمال غير قانونية.. وأشباه ذلك من المؤامرات. وهكذا لو حُسدت امرأة على مكانتها من زوجها، ومحبته إياها. تُكَد من الحاسد أو الحاسدة، فيُزوّر اسمها في علاقة أو يتصل شخص بزوجها زاعمًا أنه على علاقة معها! أو تزور صور خليعة عنها.. وأمثال ذلك من الشر والكيد الذي يقوم به الحاسدون!

---

(١) يوسف: ٥.

لقد كشف أولئك الحاسدون البائسون (كيدهم، وشرهم) بشكل صريح ولم يتركوا مجالا للتأويل والترديد.. بقولهم ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾[١].

نقل أحد المؤمنين عن أسرة، كان فيها أحد الأبناء مخصوصا بالثلث[٢] من أبيهم المتوفى، ولم يقبل باقي الأخوة هذه الوصية! فلماذا يختص هذا بالثلث دونهم؟! لقد أدى ذلك إلى حسدهم إياهم، فزوروا عليه كلامًا انتهى إلى سجنه! ولن يعدم الحاسد تبريرًا يحتمي به من هجمة نداء الضمير ولوم الوجدان، لذلك يبرر لنفسه أن الموقف الطبيعي هو هذا وإنما صنعوا ذلك من أجل إصلاح الأسرة مثلما قال اخوة يوسف ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[٣]. إذا حسد شخصٌ عالماً فإنه لا يقول إن ذلك بسبب قلبه المريض! ونفسه الضيقة، وإنما يقول إنه يفعل ذلك من أجل مصلحة المجتمع وحماية الدين والمذهب والحرص على عامة الناس!

إن الحاسد يغالط نفسه وإن أظهر أعذارًا وتبريرات لفعله، لكنه يعلم قبل غيره أنه يفعل الخطأ مدفوعًا بنوازع نفسية باطلة، وإلا فما يعني أن يكونوا قومًا صالحين وهم قد قتلوا أخاهم أو طرحوه في الجب؟ ماذا يعني أنهم يريدون أن يخلو لهم وجه أبيهم، وقد جرَّحوا قلبه إلى حد أنه بكى على ابنه دهرًا حتى ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم؟ أتراه يحبهم حتى لو خلا وجهه لهم؟ أو يراهم قومًا صالحين؟!

---

(١) يوسف: ٩.

(٢) يجوز عند الإمامية الوصية للوارث بما لا يتجاوز الثلث عملا بالآية المباركة التي تجيز الوصية للوالدين والأقربين وهم من الورثة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ البقرة / ١٨٠، خلافا لسائر المذاهب التي تلتزم بأنه (لا وصية لوارث !).

(٣) يوسف: ٩.

الحسد فردي وأممي:

كما أن الحسد يمكن أن يكون فرديًا كما هو في القصص الثلاث (إبليس وآدم، وابني آدم، وأبناء يعقوب) فمن الممكن أن يكون على مستوى المجتمعات والأمم! وهذا أكثر خطورة لأنه سيجعل تلك المجتمعات والأمم تتحرك ضمن إطار الحسد والكيد ولن يكون الضرر خاصًا بأفراد معينين!

يقول القرآن الكريم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾)، لماذا؟ ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾[١]. يتمنى أهل الكتاب – اليهود على وجه الخصوص: – لو أن العرب القرشيين يرجعون وثنيين يعبدون الأصنام!! بعدما آمنوا بالله وحده واتبعوا النبي المصطفى! وهذا من العجيب الغريب.. ذلك أن من مصلحة أهل الكتاب أن يصبح هؤلاء العرب الوثنيون مؤمنين موحدين. لأنهم بذلك يشتركون معهم في عبادة الله، وإن اختلفوا معهم في النبي!.

مع ذلك، كانوا يتمنون لو يرجع العرب كفارا يعبدون الأصنام.. لماذا؟ ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾، لأن هؤلاء أصبحوا متساويين معهم أو أرقى منهم في الإيمان. وهم لا يريدون هذا الشيء!. فهم يفضلون لو أنهم رجعوا كفارًا على أن يصبحوا أفضل منهم.

وقد ذكرنا في صفحات سابقة، أن من صور الحسد أن يحسد الحاسد إنسانا على نعمة، ويتمنى أن تصل له بدل صاحبها. لكن لأنها لا تصل، يتمنى أن تزول عنه. حتى لو لم تصل له، فالمهم عنده أن تزول عن ذلك المحسود. فليذهب إيمان هؤلاء العرب حتى أصبح أنا ـ اليهودي ـ أفضل منه ما دام كافرا. ولذلك يسعى

---

(١) البقرة: ١٠٩.

هؤلاء اليهود من أجل تخريب ديانة وإيمان المسلمين.[١]

وقد يحصل أن يكون الحسد من قبل جماعة بالنسبة لفرد أو جماعة.. فقد حُسد النبي محمد ﷺ، في نزول الرسالة عليه واختياره من قبل الله عز وجل، بينما كان الأولى والأنسب في رأيهم ألّا يكون هو النبي المبعوث ﴿(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ويناقشهم القرآن مخطّئا إياهم ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾).[٢]

كان ما سبق هو مواقف مجتمعات غير مسلمة تجاه الأمة المسلمة!، ولكن قد يحصل أن يحسد بعض المسلمين بعضًا آخرين على ما آتاهم الله من فضله، ويكيدون لهم بناء على ذلك، ويبتلونهم بالشرور والاعتداءات! فإن الموقف الذي وقفه الخط القرشي تجاه أهل البيت عليهم السلام، من وفاة رسول الله إلى أيامنا الحاضرة ليشير إلى هذا المعنى فقد ورد في تفسير قول الله عز وجل: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾)[٣]، أن المقصود بـ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾: يحسدون أهل البيت.[٤] وفي بعض الروايات:

---

(١) آل عمران: ٧٢، ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(٢) الزخرف ٣١ـ ٣٢.

(٣) النساء: ٥٤.

(٤) ويظهر أن الأمر كان متسالما عليه إلى الحد الذي لم يرد الخليفة الثاني عمر على ابن عباس مع صغر سنه في ذلك الوقت حين استدل بالآية، كما اورده الطبري في تاريخه: (.. فقال عمر: بلغني أنك تقول: إنما صرفوها عنا حسدًا، وظلمًا! فقلت: أمّا قولك يا أمير المؤمنين: ظلمًا؛ فقد تبيّن للجاهل والحليم، وأما قولك: حسدًا، فإنّ إبليس حسد آدم؛ فنحن ولده المحسودون؛ فقال عمر: هيهات! أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلّا حسدًا ما يحول، وضِغْنًا وغشًّا ما يزول. فقلت: مهلًا يا أمير المؤمنين! لا تصِف

«فَنَحْنُ وُلْدُهُ الْمَحْسُودُون»[١]

وليست القضية تاريخًا وانقضى بل نجد أنه نهج مستمر، فإن الناظر في موقف الكثير من أبناء الأمة، بل من مذاهبها وتياراتها يجد هذا النحو من العلاقة المتشنجة التي يختفي الحسد خلفها بمنزلة الدافع، فترى هؤلاء إذا سمعوا ثناءً على أهل البيت عليهم السلام، انتفخت أوداجهم غضبا لمقام التوحيد (!) وأفاضوا في ذكر الغلو! وأنه لا ينبغي أن يغالي الشخص في حق أهل البيت! وتحولت القضية إلى عقيدة من العقائد تنتهي إلى أن أهل البيت ليست لهم ميزة في الإمامة والولاية والقيادة! وإذا أردت أن تكون ايجابيا عند هؤلاء فيكفي أن تمحضهم المحبة! ومن غير غلو في حقهم! والغلو عند هؤلاء يتحقق حتى لو ذكرت عدة أحاديث ثابتة عن رسول االله في حقهم! ومن أحسن ما قيل[٢] في هذا:

إذا المُرجيُّ سَرَّكَ أن تَراهُ يَموتُ لِحينِهِ من قَبل موتِه
فـجـدِّد عِـنـدَهُ ذكـرى عَـلِـيٍّ وصَـلِّ على النَّبِيِّ وأهـلِ بيته

قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا بالحسد والغشّ، فإنّ قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قلوب بني هاشم. فقال عمر: إليك عني يا بن عباس!).

(١) في الكافي ١/ ٢٠٥ عندما سئل الإمام الباقر عن تفسير قوله تعالى: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله« نحن الناس المحسودون على ما آتانا الله من الإمامة دون خلق الله أجمعين﴾. وقد عقد الكليني بابا ذكر فيه عدة روايات بهذا المضمون.

(٢) نسبه بعضهم للأمين العباسي، بينما ذكر المسعودي في مروج الذهب ٤/ ٤ أن المأمون تمثل به في مواجهة ابن عمه ابراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة ولا يعلم أن صاحب المروج هل أراد أن الشعر للمأمون إنشاءً أو أنه مجرد تمثل وإنشاد!

هل يؤثر الحسد على المحسود؟

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.[1]

بالرغم من أن الحسد صفة ذميمة وقد ورد في تقبيحها والتحذير منها الكثير من الأحاديث والروايات[2]، إلا أنه لم يثبت من الناحية العلمية أن حسد الحاسد ـ بذاته ـ مؤثر في حياة المحسود ونعمته. بمعنى: لو أن الحاسد تمنى زوال صحة إنسان،

---

(١) النساء : ٥٤.

(٢) ومنها ما أورده الكليني في الكافي ٣ / ٧٤٩ ط دار الحديث عَنْ أَبِي عَبْدِ الله الصادق ﷺ، قَالَ: « قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ﷺ: يَا ابْنَ عِمْرَانَ، لَا تَحْسُدَنَّ النَّاسَ عَلى مَا آتَيْتُهُمْ مِنْ فَضْلِي، وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ذلِكَ، وَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ؛ فَإِنَّ الْحَاسِدَ سَاخِطٌ لِنِعَمِي، صَادٌّ لِقَسْمِيَ الَّذِي قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادِي، وَمَنْ يَكُ كَذلِكَ، فَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَيْسَ مِنِّي». وفيه عنه ﷺ أيضا: «إِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ، كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ».

وقد أورد الريشهري في كتابه ميزان الحكمة ١ / ٦٢٨ أحاديث كثيرة في ذم الحسد عن أمير المؤمنين ﷺ، هذه بعضها: ـ: الحسد مرض لا يؤسى. الحسد دأب السفل وأعداء الدول. الحسد مقنصة إبليس الكبرى. ـ الحسد شر الأمراض. الحسد عيب فاضح، وشح فادح، لا يشفي صاحبه إلا بلوغ آماله فيمن يحسده. لله در الحسد ما أعدله ! بدأ بصاحبه فقتله. ـ ثمرة الحسد شقاء الدنيا والآخرة..

أو نفاد ثروته، أو زوال جاهه فإن المحسود لا يتأثر بمجرد تمني الحاسد فلا تزول صحة المحسود مثلا أو تحترق ثروته أو يسقط جاهه لمجرد أن الحاسد حسده أو تمنى ذهاب ذلك.

ولذلك يعتقد الباحثون أن من الخطأ ما انتشر واشتهر بين الناس من أنهم لا يحبون أن تظهر عليهم آثار النعمة لكي لا يحسدهم الآخرون فتزول عنهم النعمة! فيقال للشخص مثلا: لا تتزين، حتى لا يحسدك أحد. ويتحاشى أن يرِي الآخرين صورة ابنه الصغير، أو ابنته الصغيرة، الجميلين، فيقال له: لا تريها لأحد، وإلا سيحسدونهما. وعندها سيحصل لهما كذا من الأمراض!

لقد أصبح من المعتاد أن يقول أحدهم: بمجرد أن قلت لفلان أن حياتنا الزوجية حسنة، حسدنا! فصرنا ندخل في مشكلة ونخرج من أخرى!. أو عندما تحدثت عن عملي الجيد، ومديري الممتاز حسدوني على ذلك فصرت لا اخرج من مشكلة حتى أدخل في أخرى!

إن الباحثين يرون أن هذا هو مما لا أصل علمي له، وكذلك لا شيء واضحا من الدين يعضده[1].

---

(١) (قال أبو حامد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥ هـ) وهو من أعلام مدرسة الخلفاء، في كتابه إحياء علوم الدين ٩/ ١٤٥: أما أنه لا ضرر على المحسود في دينه و دنياه فواضح؛ لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك بل ما قدره اللّه تعالى من إقبال و نعمة، فلا بد أن يدوم إلى أجل معلوم، قدره اللّه سبحانه، فلا حيلة في دفعه. بل كل شيء عنده بمقدار، ولكل أجل كتاب. ولذلك شكا نبيّ من الأنبياء، من امرأة ظالمة مستولية على الخلق، فأوحى اللّه إليه فر من قدامها، حتى تنقضي أيامها. أي ما قدرناه في الأزل لا سبيل إلى تغييره، فاصبر حتى تنقضي المدة التي سبق القضاء بدوام إقبالها فيها. ومهما لم تزل النعمة بالحسد، لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ولا يكون عليه إثم في الآخرة. ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي.

و هذا غاية الجهل، فإنه بلاء تشتهيه أولا لنفسك، فإنك أيضا لا تخلو عن عدو بحسدك، فلو كانت

نعم قد يؤثر الحسد، أحيانا على الحاسد نفسه، فيبتلى على أثر ذلك بأمراض نفسية، ونكد في العيش وربما بانهدام صحته، ولعل ما جاء في الأحاديث هو مشير إلى هذا المعنى كما ورد (قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله) يعني أنه لو حصل له الموت لكان ذلك عدلًا! واشتهر القول: ما رَأَيْت ظالِما أشبه بمظلوم من حاسِد لَهُ نفَس دائِم وعقل هائم وحزن لازم[1].

يبقى موضوع العين، وهل لها تأثير في (المعيون) أو لا فهذا يحتاج إلى بحث خاص سيأتي الكلام فيه. وهو يختلف عن موضوع الحسد سواء قلنا بوجود تأثير أو نفينا ذلك.

أما في هذه الصفحات فنتناول موضوعين:

الأول ـ مَنْ يحسد مَن؟

النعمة تزول بالحسد، لم يبق للّه تعالى عليك نعمة، ولا على أحد من الخلق، ولا نعمة الإيمان أيضا، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان. قال اللّه تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِكُمْ كُفّٰاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ إذ ما يريده الحسود لا يكون. نعم هو يضل بإرادته الضلال لغيره، فإن إرادة الكفر كفر فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد، فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار، وكذا سائر النعم.

وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك، فهذا غاية الجهل والغباوة. فإن كل واحد من حمقى الحساد أيضا، يشتهي أن يخص بهذه الخاصية، ولست بأولى من غيرك، فنعمة اللّه تعالى عليك في أن لم تزل النعمة بالحسد، مما يجب عليك شكرها، وأنت بجهلك تكرهها. وقد أكد هذا المعنى بل نقله بما يشبه النص الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) من أعلام مدرسة الخلفاء في تفسيره مفاتيح الغيب ٣/ ٢٤٢ وكذلك فعل الشهيد الثاني زين الدين العاملي (استشهد سنة ٩٦٥ هـ) في كتابه المطبوع بعنوان رسائل الشهيد الثاني ١ / ٣١٧.. ونقله موافقا ولم يغير فيه تغييرا كثيرًا الشيخ الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ) من محدثي الإمامية في كتابه المحجة البيضاء في إحياء الإحياء ٥ / ٣٤٣.

(١) الريشهري؛ محمد: ميزان الحكمة ١/ ٦٢٩.

والثاني: دوافع الحسد. ولماذا ينشأ الحسد عند بعض الناس؟

مَنْ يحسد مَن؟

لا يتحدد الحسد بطبقة خاصة، فإنه كما قد يكون موجودا لدى الجهلة، قد يوجد في العلماء أيضًا!! نعم قد تجد عالمًا كبيرًا من حيث المحتوى العلمي، ولكنه برتبة حاسد! وكما قد توجد في الفقراء، قد توجد أيضًا لدى أغنى الأثرياء! ومثلما قد توجد في الأعداء المتنافسين، قد تراها موجودة لدى الأرحام والأقربين!! بل لقد ذُكر في علم الأخلاق عند التعرض لهذا الموضوع: أن الحسد بين المتشابهين أكثر منه بين المختلفين، وفي الأقربين أكثر منه في الأباعد.

ومعنى كونه أكثر في المتشابهين، أن البقال مثلا لا يحسد لاعب الكرة، ولكن قد يحسد البقال الآخر الذي يعمل نفس عمله، ويبعد عنه بمقدار قليل من المسافة! لأنه لا جامع بينه وبين لاعب الكرة، والبطل الأولمبي، ولكن يوجد بينه وبين البقال نقطة اشتراك ولا سيما إذا كانا متجاورين في منطقة البيع!

والعالم عادة لا يحسد المهندس الكهربائي، ولكن قد يحسد العالم من جنسه ومن صنفه. ولا سيما إذا كانا يعملان في محيط اجتماعي أو جغرافي متقارب! وهذا يفسر جانبًا من الصراعات الدائرة بين المتشابهين، وإن كان ظاهرها على أمور أخر؛ كالخط السياسي أو الاختلاف الفكري أو ما شابه.

وهكذا الحال يقال في مثل قضية الزوجات المتعددة اللاتي يشتركن في زوج فإن كلا منهما تريد الاستحواذ، وهما في نقطة مشتركة ومحل منافسة واحد!

وعلى هذا فقس سائر الأمثلة؛ فإن المتشابهين والمتشابهات في البيئة الاجتماعية، أو في العمل والمهنة، أو في النسب، والقرابة، بل كلما ازداد القرب

كان احتمال الحسد أكبر. ولعل القرآن الكريم بذكره لحالات التحاسد التي تمت بين الإخوة (في قصة ابني آدم واخوة يوسف) يشير إلى هذا المعنى.. وعندما نقول (احتمال الحسد) نريد أن ننفي الجزم والعمومية، فإن القاعدة الأولية في المتقاربين هو الانسجام والتعاون والتكامل، وهو المفروض أن يحدث، لكن على أثر اختلال الوعي واتباع الهوى والاستجابة للشيطان قد يحدث الحسد.

وما دام الحسد هكذا من الممكن أن يكون في الفقير والغني والعالم والجاهل وفي ذي الشخصية الاجتماعية وفي المغمور من الناس وفي القريب والبعيد، فينبغي للإنسان مهما كان أن يحذر ويكون متيقظا لكي لا يغزوه وباء الحسد، فلا يوجد مَن عبَر القنطرة، ويستوي في ذلك كل من تقدم! وأنا وأنت!

وسيأتي الحديث عن بعض المقاييس والاختبارات التي يستطيع أن يتعرف الإنسان بواسطتها على كونه حسودا أو بعيدا عن الحسد! فإن هناك صفات وعلائم إن توفرت في نفس الإنسان أنتجت أن يقال هو حسود وإن كان ينكر ذلك ويأباه لنفسه! فإنه لا يوجد أحد يحب أن يُعرّف بأنه حسود، أو يقف على الملأ ويقول أنا أحسد فلانًا على نعمته! وإنما يكتمها وينكرها لو استطاع.

وقد يدفع الحسد شخصا ليحرق كل حسناته، ويتلف تاريخه وماضيه، كما حصل لابن أبي العزاقر.. محمد بن علي الشلمغاني فإنه كان من علماء الشيعة ومن الدرجة المتقدمة فيهم، من أصحاب الإمام العسكري وفي طبقة سفراء الإمام الحجة محمد بن الحسن العسكري عجل الله تعالى فرجه الشريف، ولديه تأليفات كثيرة (في العقائد والفقه) وكانت هذه منتشرة بين الشيعة، وكان يتوقع أن يكون السفير الثالث بعد العمري وابنه، إلا أنه لما جاء تعيين الحسين بن روح النوبختي حسده على موقعه ورفض التسليم له، حيث لم يكن يراه في هذا المستوى ويرى نفسه أفضل من الحسين

بن روح! وكان هذا الحسد بداية انحرافه، تماما مثلما حصل لإبليس الذي رفض تفضيل آدم وسجوده والملائكة له فكان أن طرد هذا من رحمة الله، وذاك من دائرة قادة الشيعة وعلمائهم، وصدر اللعن والطرد من الإمام عليه السلام.

يقول الشيخ النجاشي رحمه الله وقد ذكر سبعة عشر كتابا من مؤلفاته: «محمد بن علي الشلمغاني، ويعرف بابن أبي العزاقر، له كتب وروايات. كان مستقيم الطريقة، متقدمًا في أصحابنا فحمله الحسد لأبي القاسم بن روح على ترك المذهب والدخول في المذاهب الرديئة؛ حتى خرجت فيه توقيعات»[١]، يعني: من صاحب الزمان، «بلعنه وطرده».

الثاني: لماذا يحسدون؟

يمكن أن نذكر بعض العوامل المؤثرة في حصول الحسد لدى البعض كالتالي:

١. عدم الرضا بقسمة الله عز وجل، وهو دركات والحسد من تلك الدركات، وأسوأها هو الاعتراض على الله عز وجل وهو يضارع الكفر! والحسد يأتي في ضمن هذه المراتب، ولو تعمق الشخص في ذلك فإنه يصل إلى هذا المعنى: لماذا فلان غني وأنا لست كذلك؟ ثم بعد قليل كأنه يقول: بالتأكيد فإن من أغناه، لا يفهم! كيف يكون هذا؟ أنا أجمل منه! وأسرتي أعلى مقامًا من أسرته! وهذا نفس منطق ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[٢] وبنفس الطريقة فإن فلانًا لديه الشخصية والجاه عند الناس.. لماذا يعطيه الله هذا؟ هل يستحق ذلك؟ وما هي ميزته عليّ؟ وآنئذٍ فهو في الحقيقة يشكك في قِسَم الله عز وجل، وتقديراته وإدارته لخلقه، وأن ما يصدر عنه ليس على

---

(١) النجاشي؛ أبو العباس: رجال النجاشي ١ / ٣٧٨.

(٢) الاعراف: ١٢.

النحو الأمثل الذي ينبغي أن يصدر! وكأن في الأمر خطأ مّا! وهو نفس ما انتهى إليه كفار قريش في المسألة الكبرى الاعتقادية: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ. أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾[١]. وجواب الله سبحانه العاجل لهؤلاء، أن تلك القِسم المختلفة، كانت وفق الحكمة في البناء الاجتماعي، فلا بد أن يكون المجتمع متمايزا بعض الشيء ليتكامل، ولا يمكن أن يكون كله مستنسخا في نسخة واحدة، فإن هناك حكمة في الأمر، وهي: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.[٢]

ولقد صدق الشاعر في تحليل هذه النفسية، في قوله:

أيـا حـاسـدًا لـي على نعمتي   أتـدري على من أسأت الأدب

أسـأت على الله فـي حكمه   لأنـك لم تـرض لي ما وهب

٢. التطلع للغير والانشغال بهم: إن من العوامل المفضية إلى الحسد أن يترك الإنسان الحاسد ما لديه ويهمه ويعنيه ويلتفت إلى ما لدى الآخرين، فينشغل بذلك.. ولأنه يكون في عموم حياته هكذا فإنه لا يحصل على التقدم في أي

---

(١) الزخرف: ٣٢.

(٢) وبالطبع ليس المراد هنا السخرية والاستهزاء وإنما هو التسخير والاستخدام! لبناء الحياة. وهذا لا يعني أن يسخر منه، وإنما ماذا؟ يستخدمه ويسخره فأنت الآن في حياتك الاجتماعية تستخدم الخباز، ورب عملك يستخدمك، والتاجر يستخدم رب العمل، استخداما غير مباشر، ولكن على ضوئه تقوم الحياة الاجتماعية. فلو أن القضية تركت للإنسان نفسه، أي: أنا أقسم، أنا أريد أن أصبح هنا، أو هناك، وأن أكون كذا وكذا. وأنت أيضا، تريد أن تصبح في أعلى الدرجات، وأنا أيضا في أعلى الدرجات، وهذا كذلك في أعلى الدرجات، ورابع، فإنه يختل النظام الاجتماعي. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾. فالغرض بعد أن ﴿رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ هو ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

مجال يريده إذ التقدم والنجاح يحتاج إلى أن يعطي الشخص ذلك المجال كامل اهتمامه وجهده وتخطيطه، وحينئذ ربما يصل إلى النتيجة الحسنة أو لا يصل. فإذا كان في طريق تجارة ومال فإنه يحتاج إلى تركيز اهتمامه فيها تخطيطا ومتابعة وعملا جادا حتى يصل.. وهكذا لو كان في طريق علم، أو طريق سياسة وقيادة، أو غيرها من الطرق! فإذا ترك هذا الشخص أموره وانشغل بمراقبة غيره، ومد عينيه لما يصنعه الآخرون، فمن الطبيعي أنه لن يصل إلى نتيجة نجاح ولأنه كذلك فهو ينفَس عليهم، ولا يستطيع أن يتحمل نجاحَهم وفشلَه، وتقدمَهم وتأخَره، وتوفيقهم وتعثرَه، وهكذا تستمر الدوامة وهو يدور فيها يراقبهم فيقصر في أموره، ويقصر في أموره فيفشل، ويفشل فيتألم من نجاحهم ويحسدهم على تقدمهم، ويتمنى لو يزول كل ذلك عنهم، ويصل إليه!

ولعلك ترى أخي القارئ أختي القارئة، بعض هؤلاء يملكون من المعلومات عمن يحسدونهم ما لا يملكه أقرب الناس إليهم، أين ذهبوا، وماذا فعلوا وإلى أين سافروا؟ وماذا أنفقوا؟ وأين سكنوا؟ وماذا اشتروا... الخ. وهذا يزيد معاناة الحاسد! ويورطه أكثر فأكثر في مستنقع الحسد!

وكأن هناك علاقة جدلية بين مراقبة الناس فيما لا يعنيه وبين فوات ما يعنيه وفشل أهدافه فيها، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام (من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه)، كما أن الطرف المقابل أيضًا هو كذلك بمعنى أنه من ترك ما يعنيه انشغل بما لا يعنيه مما هو لدى الناس، كما في حديث عنه عليه السلام أيضًا (من اطّرح ما يعنيه وقع إلى ما لا يعنيه)[١].

---

(١) الحديثان من ميزان الحكمة ١٠/ ٢٨٣.

ربما لهذا السبب كانت توجيهات الإسلام الأخلاقية نحو أن يقصر الإنسان اهتمامه على أموره الخاصة، وأن لا ينشغل بغيره وأن لا يمد عينه إلى ما لدى الآخرين ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.[١] وكان من علائم (حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[٢] كما في حديث عن رسول الله ﷺ.

وفي كتاب أمير المؤمنين عليه السلام لابن عباس: فاطلب ما يعنيك واترك ما لا يعنيك فإن في ترك ما لا يعنيك درك ما يعنيك[٣].

٣. خبث النفس وتمني الشر للآخرين: كذلك لا نغفل هذا العامل وهو مهم، فإن بعض النفوس فيها من الخبث ما يبعثها على تمني السوء للآخرين، وتجد لذتها في عذابهم وشقائهم، ومن هذه النفوس نفس الحاسد فإنه يستهويه خسارة شريكه ومنافسه في التجارة أكثر مما يستهويه ربحه الشخصي، وترى يوم عيده عندما يغلق ذلك الشريك محل تجارته عن خسارة! وعندما يفتضح منافسه عن ادعاء خيانة! وعندما تطلق محسودتها من زوجها وتنهدم حياتها الأسرية! فهؤلاء يشعرون بلذة ما بعدها لذة! وقد صور بعض الأدباء جانبا من نفسية الحسود فقال: «حياتك موته وموتك عرسه وسروره! يصدق عليك كل شاهد زور ويكذب فيك كل عدل مرضي لا يحب من الناس إلا من يبغضك ولا يبغض إلا من يحبك».[٤]

---

(١) طه : ١٣١.

(٢) الريشهري، محمد: ميزان الحكمة ٤ / ٢٧٩٠.

(٣) الحراني؛ ابن شعبة تحف العقول ٢١٨.

(٤) الجاحظ؛ عمرو بن بحر: الرسائل الأدبية للجاحظ ١/ ١٢٢.

هل نحن حاسدون أم محسودون؟

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[1].

يفكر البعض من الناس أنهم محسودون، وأن (سر) مشاكلهم المتأخرة هي أنهم تعرضوا لحسد! (وأحيانا لنظرة عين وثالثة لعَمل من الأعمال، ورابعة..) وهذا في الغالب وهم من الأوهام. وقد سبق الحديث في الصفحات الماضية عن أن الحاسد لا يستطيع إضرار المحسود بحسده! ونقلنا قول بعض العلماء من المدرستين: الإمامية وغيرها!

هذا الوهم الموجود لدى كثير من الناس يغذيه أمور متعددة؛ منها ارتزاق البعض (بمعالجة) آثار الحسد! فهناك من يؤكد لهذا وذاك، وهذه وتلك أنهم تعرضوا للحسد ولذلك فإن أمورهم ليست على ما يرام! والحل؟ هو بيد ذلك الشخص الذي يقول له أنه محسود، وبالطبع بعد دفع القيمة!!وكأن الطرفين يستفيدان (فالمحسود المتوهم) يحصل على تبرير يرضي نفسه، في فشل علاقته الزوجية

(١) الفلق : ١ـ ٥.

فهو ليس بسبب عنفه! أو ليس بسبب إهمالها زوجها وبيته وإنما بسبب أن أحدا ما حسدهما! والآخر فشل ابنه في الدراسة لا بسبب لهوه ولعبه وكسله وإنما لأنه محسود! والثالث انحرف في مسيرته ليس بسبب عدم وجود توجيه سليم له، وإنما كان كالوردة فحسدوه فتغير!!

هذا من طرف من يدفع المال! وتلك فائدته، وهذا الذي يقنع الآخرين بأنهم محسودون وأن الحل الناجع عنده، يحصل على أثمان لأتعابه (!) في إقناعهم بتلك المسرحية..

ولهؤلاء مواقع على الانترنت، واستعمال للتكنولوجيا!! وإن كانت الفكرة متخلفة جاهلة.. فيكفي أن تكتب ما هي علامات الحسد؟ وكيف أعلم أنني محسود؟ حتى تأتيك المقالات عن: إحساس بالدوخة والكتمة!! ووجع البطن! والتعرق.. وكأنه طبيب قلب يشخص أعراض أزمة قلبية قادمة!

إنهم يخاطبون في الناس نقاط ضعفهم وهي الخوف من الاعتراف بالفشل والأسباب الحقيقية لذلك، يصعب على الكثير أن يقولوا فشلنا لأننا لم نخطط جيدا! ولم نعمل بجدية كافية! فإذا رأى أحدا يرفع عنه هذا الحِمل ويخبره أن السبب هو أنه محسود! فهو يقدم له خدمة نفسية تريحه! وتسكت نداء اللوم في داخله!

وللأسف فإن الشعور بالمحسودية، لم يبق في إطار الأشخاص الفاشلين بل ربما صار في عالم السياسة شعارا لبعض المجتمعات العربية والمسلمة، فنرى كلمات بعض كتاب الصحف، إذا أعوزته الفكرة الناضجة والمقالة المحترمة، ذهب وراء شعار: نحن محسودون على هذه النعمة التي نحن فيها؛ ولذلك يتآمر علينا الغرب! نحن المسلمون محسودون! نحن العرب محسودون ولذلك يتآمرون علينا!

لهؤلاء يقال: تيقظ! والتفت! يكفي نرجسية! فلا أحد يعرفك فضلا عن أن يهتم

فيك، ويشغل نفسه بحسدك! هل هذا الإنسان جاد عندما يفكر أن الغرب والشرق جاثون على ركبهم منشغلون بالحسد لهذا الكاتب أو بلده أو مجتمعه؟ وأنهم لا شغل لهم إلا حسد هذا الشخص ومجتمعه؟ خفف عليك!. فما هي قيمة مجتمعنا ودولنا حتى ينشغل بنا الناس؟.

إن هذه الحالة لتشير إلى أن الشعور الخاطئ بالمحسودية قد يكون على مستوى الأفراد العاديين، وهذا يؤثر بمقدار محدود. لكن حين يصبح عقيدة لدى قادة الرأي وموجهي الثقافة، فهو أمر في غاية الخطورة. لأنه يحاول إقناع أبناء المجتمع بأن المستوى الذي يعيشه هذا المجتمع هو القمة التي تنظر إليها باقي الشعوب حاسدة مكبوتة! والحال أن مجتمعاتنا لا تزال تعيش ظروف التخلف في شتى مجالاته!

هذا الشخص يقتنع بأن هناك من جلس يفكر فيه ليل نهار ويجهز جلسات الحسد (!) له.. لم يتساءل لماذا لم يحسد أولئك الحسدة بيل غيتس؟ ووارن بافت؟ وأباطرة المال والصحافة في العالم؟

فيعيش البعض هذا الهاجس الذي يكشف عن نرجسية واعتداد بالنفس لا حدود له، واعطاء شخصية قيمة لا تستحقها! على أنه لو حصل حسد من بعض الأشخاص لمن يملك نعما كثيرة، فإنه قد تقدم أنه لا يؤثر فيه بشيء ولا يضره بمقدار أنملة، ما لم يتحول إلى فعل كيدي شرير.

هل نحن حسَدَة؟

بعدما تبين أن الشعور بالمحسودية هو مبالغ فيه غالبا ووهمٌ ينبغي أن يتساءل الإنسان بشكل معكوس: هل أنا حاسد لغيري نعمته؟ هل يمكن أن أكون حسودا؟ ربما لو اتهمك شخص بذلك تنكر وتدافع عن نفسك! ولكن من الصحيح أن يسأل الإنسان نفسه وأن يمتحن ـ بمعايير معينة ـ سلوكه لينتهي إلى نتيجة إيجابية في

الجواب أو سلبية!

مقاييس وجود الحسد:

١. مقياس الغيرة وهي منشأ للحسد. فإذا كان شخص يغار من آخر ولا يسيطر على غيرته، فهذه بداية غرس لشجرة الحسد! وينبغي أن أشير هنا إلى أمر تربوي مهم، وهو: أننا قد نزرع بذور الحسد في نفوس أطفالنا، من دون أن نشعر. فعندما يأتي ابننا إلى البيت، وقد انتهى من الامتحانات، لكن لم يحصل على الدرجة الكاملة بينما حصل زميله فلان عليها نعاتبه: لماذا هو أحسن منك؟ ماذا ينقصك أنت؟ لماذا لا تصبح أحسن منه؟ وبالرغم من أن قصد الوالدين هنا هو تشجيعه كي يتفوق، لكن هذا الأسلوب ينشئ فيه الحسد. ويذكي فيه نيران الغيرة من زميله، إذ مدحته ولم أمدح ابني. وهنا قد لا يكون الابن ذا قدرة على منافسة زميله أو قد يكون.. وفي الحالين فقد وجهته إلى أن المهم أن يكون ذلك الشخص دونه! وأن يزول عنه التفوق، فيظل يتمنى له التأخر بل الرسوب، حتى لو كان ابني لم يحصل على درجة أعلى منه! فالمهم عنده الآن أن يكون ذلك الزميل فاقدا للتفوق، ويا ليت يتعثر في الامتحان! ونفس الكلام عندما يكبر يقال له بنفس الطريقة والاسلوب: لماذا لست مثل ابن عمك؟ أو ابن خالك؟ هم كذا وكذا! فيكون همه أن يطعن فيهم، وأن يتمنى أن لو لم يكونوا موفقين! ولذلك لو حصل للزميل الأول أو لابن العم والخال نكبة (دراسية أو أخلاقية) ترى هذا الابن يأتي بالخبر لأبيه وكأنه منتصر! وقد حصل على حاجته! بل ربما (دعا) على أولئك بعدم التوفيق! ويعد فشلهم انجازا له، ويرتاح لهذا! إنني من دون أن أقصد زرعت فيه بذرة الحسد وسقيتها بماء الغيرة فأنتجت هذا النتاج.

ينبغي أن يسأل الإنسان نفسه هل هو من أهل الغيرة -بمعناها المذكور قبل قليل- وهل أنا زارع بذرتها في أسرتي؟ إذا كان كذلك فينبغي أن أترقب شجرة الحسد نامية! هل إذا رأيت شخصًا موفقًا هل أغار منه، أم أتمنى له أن يبقى على ما هو عليه، وأن يكون لي مثله؟ إذا بدأت الغيرة، فمعنى ذلك: أنني قد بذرت بذرة الحسد في نفسي أو في ابني أو في زوجتي.

آتي إلى الزوجة وأقول لها: اليوم أكلت من يد فلانة زوجة فلان أكلًا طيبًا، ما أكلت ولا سآكل مثله.. وأبدأ في وصف تلك الأكلات والترتيبات! وقد لا يكون لدى زوجتي من خبرة الطبخ مقدار ما عند تلك المرأة.. فماذا تصنع؟ ربما تحقد على تلك وقد تتمنى أنها لا تستطيع بعد ذلك أن تطبخ بنفس الجودة حتى لا يأتي زوجها يعيرها بها ويستثير بها غيرتها عليه، بل تتمنى لو تحصل لها مشكلة (طلاق أو فضيحة..) بحيث تأتي بخبرها لزوجها على أنه انتصار لها.

ربما لم أكن قاصدًا استثارة غيرتها وحسدها وإنما كنت أحب تحريضها على الاهتمام بالطبخ بشكل أفضل. لكن هذا الأسلوب خاطئ حيث غرست في نفسها الغيرة التي هي بداية للحسد.

وهكذا في عكس المسألة عندما تأتي الزوجة، وتتحدث مع زوجها عن أنها كانت في زيارة فلانة القادمة من سفرة أوربا والتي استمتعت فيها مع زوجها!! وأما هي نفسها فلا نصيب لها من السفر! فتستثير في الزوج غيرة يتمنى معها أن لو لم توفق تلك المرأة وزوجها للسفر، ويا ليت أنهم لا يتوفقان بعدها!

٢. مقياس الألم من مدح الغير: من مقاييس الحسد وهو سريع النتيجة تألم الحاسد من مدح الغير! وهي على مراحل: فقد يتصور هذا الشخص أنك بمدح ذاك تذم هذا المستمع!! فإذا كان عالم دين مثلا ومدحت عالمًا آخر

أمامه.. وأثنيت على بحثه العلمي، أو على نشاطه الاجتماعي، أو على التزامه بصلاة الجماعة.. أو أتيت ببعض نقاط فضله.. يتصور هذا أنك تذمه بمدح غيره! وهذه أولى درجات الغيرة، ومنها يتفرع الحسد! وكأنك ما دمت تحادثه فلا بد أن تمدحه هو حصرا! وإذا مدحت غيره فقد أسأت الأدب أمامه! ليس الأمر هكذا ولكن هذه النفس تحتاج إلى إصلاح!

قسم من الناس عندما تمدح أمامه شخصا، يتصور أنك تذمه هو أي السامع! كلا، أنا أمدح فلانًا حاليًّا، ولا أقول إنك إنسان سيء. أقول: هو عالم جليل. ولم أقل: إنك غير عالم. أقول: موظف مثابر. ولم أقل: أنت كسول. أقول: هي زوجة مدبرة، ولم أقل: ليس عندكِ تدبير.

فإذا صار الإنسان يتألم من مدح غيره، فهذه بداية للحسد. لا بد أن يراقبها الإنسان. فأنت تتألم لأن زيدًا إنسان موفق وممدوح ومثني عليه.

ما الذي يضرك لو أن إنسانًا مُدح وأثني عليه؟ ما الذي يحز في قلبك؟ ماذا يؤلمك؟ بماذا تتضرر؟ ماذا ينقصك؟

وهكذا لو تكلمت عن مشاريع تاجر مصلح أمام تاجر آخر، فإن قاطعك في الكلام ولم يحب أن يستمع إلى ما تقوله عنه فهذه من علامات الحسد..

إذا تألمتَ من مدح أحد شخصا أمامك، فتوقف وفكر في نفسك فإن هذه علامة غير محمودة! وإشارة غير حسنة إلى أن هناك بذور حسد في داخل نفسك!

أنتِ ممرضة مثلا فجاء أحدهم ومدح أخرى معك في نفس القسم وأثنى على عملها.. راقبي ردود أفعالك: هل تدعين الله لها بالتوفيق؟ وهل تشاركينه الثناء عليها؟ أو تسكتين؟ أو في مرحلة ثالثة لا ترتاحين إلى هذا الكلام ولا يروق لك؟

وتتمنين لو أنك لم تسمعيه!

وأما المرحلة الأسوأ من هذه: فهي انتقاص المحسود وتشويهه.. عندما يقوم السامع بتفنيد كلام المادح لذلك الشخص المحسود.. والتهجم عليه.. فإذا قال له هو مؤلف جيد. يقوم هذا (السامع الذي هو تحت اختبار الحسد) بمقاطعته قائلا: هل هذا مؤلف جيد؟ إنه جامع للقصاصات من هنا وهناك، وسارق للمعلومات من غيره. لدي على ذلك أدلة!

مثل هذا قد أسره الحسد وألغى تعقله، وقيد مبادئه الأخلاقية، فأول ما في كلامه بالإضافة إلى تجاوز الانصاف عادة، هو أنه غيبة محرمة لو كان ما يقوله صحيحًا فكيف إذا كان كذبًا وبهتانًا؟.

وأسوأ من ذلك عندما يتم التشكيك في النيات التي لا يعلمها غير خالق الناس، فيقال فلان يصلي الجماعة لكي يخدم مصالحه الشخصية؟ ويخدم الناس لكي يظهر أمامهم بالصلاح والفضيلة! أو يأتي الاتهام في أمور لا سبيل إلى إثباتها؛ كأن يقال: فلانة في الشركة، وصلت إلى درجة عالية خلال سنتين فقط. فتأتي الحاسدة لتقول: لو لم تعط لمديرها كذا وكذا من الخدمات الخاصة لما وصلت! وفي هذه التهم من المخالفات الشرعية والأخلاقية ما الله به عليم!!

لعل هذا هو الذي تشير إليه الآيات المباركة التي يستعيذ فيها الإنسان من (شر) الحاسد، فإن شعور الحسد هذا عنده لا يقف أمام الموقف القلبي والكره له، وإنما في أنه يعمل على تشويه سمعته بين الناس! ونشر الأكاذيب حوله! وإفساد إنجازاته! مرورا بتحطيم عمله أو حتى شخصه فقد لا يتركه يبقى في وظيفته! أو يستخدم تدبيره في إخراجه من السوق أو الشركة.. وهكذا يستعيذ الإنسان ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

هذه ثلاث مراحل ومقاييس يستطيع بها الإنسان أن يتعرف على وجود (فيروس) الحسد في نفسه أو مخاطبه.

الإصابة بالعين هل يثبتها القرآن أو الروايات أو العلم؟

هل يثبت القرآن الكريم والروايات والعلم الإصابة بالعين؟

بمعنى هل أن هناك بعض الناس لديهم قدرة على التأثير السيء في غيرهم من التصرف في أبدانهم أو أملاكهم بمجرد توجيه نظرة عين خاصة لهم.. وأنهم قد يصيبون الصحيح بالمرض، بمجرد أن ينظروا إلى بدنه أو يركزوا على جماله! بل حتى بالنسبة للأدوات والأجهزة، فإنهم لو نظروا مثلا إلى سيارة و(عانوها ـ بمعنى توجيه العين لها) فإنها تتوقف أو تتعطل! وهكذا! هل هذا موجود؟ وهل هناك مجال لإثباته؟

أو أن الأمر لا يعدو كونه جزءا من الثقافة الشعبية التي أخذت لها صورة دينية! وأنها عبارة عن حوادث لا يمكن إثبات قاعدة كلية فيها، وإنما هي أقرب إلى التوافق الحيني والزمني مع مقدار من المبالغات التي لا تخلو الثقافات الشعبية منها؟

وقد سبق الحديث أن هناك فرقًا بين الحسد والعين! وأن هناك ما يشبه الاتفاق على أن الحسد بنفسه من حيث أنه صفة أخلاقية سيئة وموقف نفسي مريض لا يؤثر على المحسود في شيء من أمور دنياه فضلا عن دينه! نعم هو يؤثر بشكل سلبي

على دين الحاسد وعلى سعادة دنياه! وبالتالي لا بد من التفريق بين الأمرين وأنه حتى لو قال قائل بوجود تأثير للعين على الشخص المعيون والمنظور فليس مضطرًا للقول بذلك في مسألة الحسد إذ لا ارتباط بينهما في هذا. خاصة وأن القائلين بتأثير العين يقولون إن تأثيرها يشمل حتى المحبوبين له، بمعنى أنه قد ينظر أو يَعِين، بمعنى يصيب العائن بالعين، شخصا محبوبا له ومقربا منه، بينما لا يحصل ذلك في محبوبه بالنسبة للحسد! وكأنّ القائلين بتأثير العين يرون أن ذلك أمر (أتوماتيكي) وليس اختياريا!

القائلون بتأثير العين[1]:

لهم أن يعتمدوا على عدة أمور تؤيد مدعاهم:

١. القائلون بوجود تأثير (سيء) للعين على المعيون يتمسكون عادة بثلاث آيات؛ الأولى، هي: آخر آيات سورة الفلق: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. وقد حملوها على أنه: إذا حسد الحاسد، فإنه ينظر إلى المحسود بعينه فيؤذيه. وقد ذكرنا في موضوع سابق عن الحسد أن الآية المباركة، لا تثبت هذا المعنى. وإنما الظاهر منها هو الشرور والأفعال التي تترتب على حسد الإنسان، من التآمر والايذاء، كالذي حصل في قضية قابيل، وقضية أبناء يعقوب، بل وقضية إبليس وآدم أيضًا، بأن يقوم الحاسد بعمل شرير ينتهي به إلى قتل ذلك المحسود، أو إيذائه، أو ضربه، أو سجنه، أو تشويه سمعته. أو غير ذلك.

(١) قال الفخر الرازي: المقام الأول إثبات أن العين حق. والذي يدل عليه وجهان: الأول إطباق المتقدمين من المفسرين على أن المراد من هذه الآية ذلك. والثاني ما روي أن النبي ﷺ كان يعوذ الحسن والحسين عليهما السلام.. الى آخر ما قال.

٢. التي تتحدث عن قصة أبناء النبي يعقوب، عندما دخلوا إلى مصر وأمرهم أبوهم ألّا يدخلوا من باب واحد، وقال: ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[١]. ويفهم منها هؤلاء: أن يعقوب النبي أوصى بنيه بذلك حتى لا يُنظروا بعين ولا يُنضلوا. أي حتى لا تصيبكم العين. لا سيما وهم ١١ أخاً! فليدخلوا من أبواب متفرقة، وقد قيل إنها أربعة أبواب!

غير أن الذين يخالفون هذا الرأي يرون أنه لا توجد دلالة واضحة على المعنى المستفاد من الآية؛ فإن هناك احتمالات كثيرة فيه ولا يقتصر الأمر على الخوف من العين، ولذلك ذكر المفسرون عدة توجيهات[٢] لأمر يعقوب النبي أبناءه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة، أحدها خوف العين ولكن هناك توجيهات أخر، فلا تكون الآية دليلا تاما لهذه القضية.

بل ربما يخطو أصحاب النظر المخالف خطوة إلى الإمام، فيقولون: علام يحسدون أبناء يعقوب؟ وهم -ضمن عرف ذلك الزمان- مجموعة من البداة! آتين من البادية، بينما كانت مصر مركزًا حضاريًا مهمًا، فيه الغنى والثروة بينما أبناء

---

(١) يوسف: ٦٧.

(٢) فقد رأى بعض المفسرين، أنه خاف عليهم الملك أن يرى عددهم وقوتهم فيبطش بهم حسدًا أو حذرًا! كما في تفسير الماوردي؛ النكت والعيون ٣/ ٥٩ ناقلا إياه عن بعض المتأخرين. واستبعد مفسرون آخرون خوف العين على مثل نبي الله يعقوب لا سيما مع الآية المباركة ﴿وإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ﴾ من الحكمة والنبوة فلا يغني عن اللّه شيء وإنما تخوف عليهم أن تترقبهم أعين الطامعين! وذهب المراغي في تفسيره إلى أن وجه الأمر بالدخول من أبواب متفرقة، هو أنه لو حسدهم الحاسدون أو كادهم الكائدون، فلو حل بهم مكروه يخشى أن يصيبهم جميعا إذا كانوا من باب واحد بخلاف ما إذا كانوا من أبواب متفرقة!

يعقوب جاؤوا من البادية (وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ)، لا سيما وقد كانت كنعان في تلك الفترة بالذات، تمر بقحط. فهل أن مجموعة من البادية قدموا بالقليل من أرزاقهم وحبوبهم؛ ليبيعوها من أجل الحصول على المال والميرة هم محل حسد من أهل مصر؟ علام يحسدونهم؟!

الآية الثالثة، هي التي يخاطب فيها ربنا سبحانه وتعالى نبيه محمدا ﷺ بقوله: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[١]. ومعناها واضح في أن رغبة الكفار أن يهلكوك بأعينهم وأبصارهم وهذا يوضح أن للعين تأثيرًا[٢]، وإلا لما كان القرآن يشير إليه أن الكفار يسعون في

---

(١) القلم: ٥٢.

(٢) ومن الذين استفادوا هذه الفكرة ولم يستبعدها الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره: الأمثل في كتاب الله المنزل ١٨/ ٥٦٦ فقد عقد فصلا في ذيل هذه الآية المباركة بعنوان: هل أن إصابة العين لها حقيقة؟ وقال:

يعتقد الكثير من الناس أن لبعض العيون آثارا خاصة عندما تنظر لشيء بإعجاب، إذ ربما يترتب على ذلك الكسر أو التلف، وإذا كان المنظور إنسانا فقد يمرض أو يجن..

إن هذه المسألة ليست مستحيلة من الناحية العقلية، حيث يعتقد البعض من العلماء المعاصرين بوجود قوة مغناطيسية خاصة مخفية في بعض العيون بإمكانها القيام بالكثير من الأعمال، كما يمكن تدريبها وتقويتها بالتمرين والممارسة، ومن المعروف أن «التنويم المغناطيسي» يكون عن طريق هذه القوة المغناطيسية الموجودة في العيون.

إن (أشعة ليزر) هي عبارة عن شعاع لا مرئي يستطيع أن يقوم بعمل لا يستطيع أي سلاح فتاك القيام به، ومن هنا فإن القبول بوجود قوة في بعض العيون تؤثر على الطرف المقابل، وذلك عن طريق أمواج خاصة ليس بأمر مستغرب.

ويتناقل الكثير من الأشخاص أنهم رأوا بأم أعينهم أشخاصا لهم هذه القوة المرموزة في نظراتهم، وأنهم قد تسببوا في إهلاك آخرين (أشخاص وحيوانات وأشياء) وذلك بإصابتهم بها. لذا فلا ينبغي الإصرار على إنكار هذه الأمور. بل يجدر تقبل احتمال وجود مثل هذا الأمر من الناحية العقلية والعلمية.

كما جاء في بعض الروايات الإسلامية - أيضا - ما يؤيد وجود مثل هذا الأمر بصورة إجمالية كما في

ذلك، وإن كان الله سبحانه قد نجى نبيه!

ويضم إلى هذه الآية ما قاله بعض المفسرين من أن بني أسد، كانوا معروفين بالعين، فلو وجه أحدهم عينه إلى شيء مثلا، يتأثر ذلك الشيء. وقد طلب منهم أن ينضلوا النبي بعيونهم!.

وهذه الآية المباركة يُحتمل أن تكون بالفعل ناظرة إلى هذا. ويحتمل -كما رأى بعضهم- أن تكون تعبيرًا كنائيًا عن النظر الماقت الشديد، أو الحريص في بعض الحالات فإنه مثلا عندما ينظر شاب إلى امرأة نظرة شهوية محرمة. يأتي من يقول له عما قريب تأكلها بعينك! أو كما قال أحدهم لابنه إن نظرك هذا يُحبل!. أو تلاحظ أحدهم بغضب.. فيقال لك: إنك تحرقه بعينك فإنه في الواقع لا يوجد أكل بالعين. ولا حمل بالنظر! ولا إحراق، لكن هذا النظر الشهوي المركز أو الماقت الشديد يعبر عنه بهذا التعبير.. مثلما أنه في جانب الإيجاب والمحبة يقال: تضمه بعينك،

الرواية التالية: « إن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله إن بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: نعم، فلو كان شيء يسبق القدر لسبقه العين ». (المقصود من (الرقية) هي الأدعية التي يكتبونها ويحتفظ بها الأشخاص لمنع الإصابة بالعين ويقال لها التعويذة أيضا وجاء في حديث آخر أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: النبي رقى حسنا وحسينا فقال: « اعيذكما بالكلمات التامة وأسمائه الحسنى كلها عامة، من شر السامة والهامة، ومن شر كل عين لامة، ومن شر حاسد إذا حسد « ثم التفت النبي إلينا فقال: هكذا كان يعوذ إبراهيم إسماعيل وإسحاق وجاء في نهج البلاغة أيضا: « العين حق، والرقى حق »ولما كانت الأدعية توسلا للبارئ عز وجل في دفع الشر وجلب الخير، فبأمر من الله تعالى يمنع تأثير القوة المغناطيسية للعيون، ولا مانع من ذلك، كما أن للأدعية تأثيرا في كثير من العوامل والأسباب الضارة وتبطل مفعولها بأمر الله تعالى.

كما يجدر الالتفات إلى هذه النقطة - أيضا - وهي: إن قبول تأثير الإصابة بالعين بشكل إجمالي لا يعني الإيمان بالأعمال الخرافية، وممارسات الشعوذة التي تنتشر بين العوام، إذ أن ذلك مخالف لأوامر الشرع، ويثير الشك في أصل الموضوع عند غير المسلّمين بهذه المسائل، كما أن هذه الأعمال تربك وتشوش الكثير من الحقائق بما يدس بها من الأوهام والخرافات، وبذلك يكون الانطباع عنها سلبيا في الأذهان.

وتدخله فيها. فهذه تعبيرات كنائية ومجازية لا يراد منها الحقيقة! وقد ألفت بعض المفسرين إلى هذه الملاحظة بأن المعنى يزلقونك بأبصارهم، يعني: لما ينظرون إليك به من نظرة مقت وكراهية، ولو أمكنهم أن يزيلوك عن الوجود لفعلوا.(١)

فبناء على هذا، في الآية المباركة يوجد اتجاهان؛ من يثبت تأثير العين من خلال هذه الآية ويقول: إن العين سبب من أسباب الهلاك والأذى. بينما يحتمل فريق آخر أن يكون هذا تعبيرًا كنائيًا عن أن نظر الكفار إلى النبي، إنما هو نظر بغض وحقد وحنق، ولو قدروا أن يهلكوه بعيونهم، لفعلوا ذلك.

النتيجة التي يمكن الوصول إليها من خلال هذه الآيات المباركات: أنها ليس فيها دلالة واضحة - أقول: دلالة واضحة - بحيث لا تقبل التأويل، وأن استفادة المعنى الذي أريد من تأثير العين في الآخرين بنحو سلبي غير متيسر من الآيات المباركات.

هل في السنة والحديث ما يدل على ذلك؟

إذا كان الأمر كما تقدم من عدم وضوح الآيات المباركات في إثبات تأثير العين، فإنه في باب السنة يختلف الأمر، وبالذات ما نقل عن المصطفى ﷺ، من طريق مدرسة الخلفاء، فالروايات عندهم صريحة، وواضحة المعنى وكثيرة العدد، وقد وردت في مصادر معتبرة عندهم. بخلاف ما هو لدى الإمامية.

---

(١) الطبري؛ محمد بن جرير: تفسير الطبري ٢٣/ ٥٦٤: وإن يكاد الذين كفروا يا محمد يَنْفُذونك بأبصارهم من شدة عداوتهم لك ويزيلونك فيرموا بك عند نظرهم إليك غيظا عليك. وقد قيل: إنه عُنِيَ بذلك: وإن يكاد الذين كفروا مما عانوك بأبصارهم ليرمون بك يا محمد، ويصرعونك، كما تقول العرب: كاد فلان يصرعني بشدة نظره إليّ، قالوا: وإنما كانت قريش عانوا رسول الله ﷺ ليصيبوه بالعين، فنظروا إليه ليعينوه، وقالوا: ما رأينا رجلا مثله، أو إنه لمجنون، فقال الله لنبيه عند ذلك: وإن يكاد الذين كفروا ليرمونك بأبصارهم ﴿لَمّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ويَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾.

فالروايات في مصادر الإمامية في هذا الموضوع قليلة، والموجود منها ليس في المصادر الأصلية ومن الطبقة الأولى في المصادر، يضاف إلى وجود مشاكل سندية فيه، وسيأتي الحديث عنها..

وأما بالنسبة إلى مدرسة الخلفاء - فكما مر - هناك روايات في صحيح البخاري ومسلم وهي معتبرة بحسب مبانيهم:

١. عن أم سلمة أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة، فقال: «اسْتَرْقُوْا لَهَا فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةُ»[١]. كأنما أثر في وجهها، شبيه بالاصفرار أو الاسمرار. فقال: «اسْتَرْقُوْا لَهَا»، أي اعملوا لها رقية، «فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةُ»، فسرت هذه: بأنها نظرة عين أو نظرة جن، كما قالوا في تفسير هذا الحديث[٢].

٢. وهناك حديث آخر مشهور عندهم: «إِنَّ العَيْنَ لَتُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالجَمَلَ الْقِدْرَ». إلى هذا المقدار، حسب التعبير، وبناء على هذه الرواية: يكون للعين أثرها، وأنها قد تميت الإنسان وتدخله إلى قبره. وأنها تدخل الجمل إلى القدر، مثلا: بأن يُؤكل، أو يُطبخ، وغير ذلك من المعاني. فبناء على هذا الحديث الوارد في مصادر مدرسة الجمهور: العين مؤثرة إلى هذا المقدار.

٣. وفي حديث ثالث: «اسْتَعِيذُوْا بِاللهِ مِنَ الْعَينِ، فَإِنَّ العَيْنَ حَقٌّ». وفيه أمر بالإستعاذة من العين؛ لأن العين حق. وفسر معنى: العين حق: هو أثرها

---

(١) صححه الألباني وقد أورده صاحب كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان وفي حديث آخر كأنه ينسب النظرة والعين لرسول الله!! دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلى بَعْض أَهْلِه فَقالَ: «أَيْنَ فُلانَةُ؟» فَقالُوا: اشْتَكَتْ عَيْنَها فَقالَ: «اسْتَرْقُوا لَها فَقَدْ أَعْجَبَتْني عَيْناها!! كما في كتاب الأمالي لعبد الرزاق الصنعاني.»

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٧/ ٢٨٦٩ قال: والمَعْنى: أَنَّها أصابَتْها العَيْنُ مِنَ الجنِّ قالَهُ بَعْضُ الشُّرّاحِ، وقَدْ قِيلَ: عُيُونُ الجِنِّ أنْفَذُ مِن أسِنَّةِ الرِّماحِ. وقالَ السُّيُوطِيُّ: أنَّ العَيْنَ مِنَ الإنْسِ أوِ الجِنِّ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

وضررها، كله حق. وأن النبي كان يتعوذ من الجان ومن عين الإنسان؛ حتى نزلت المعوذتان فأخذ بهما وترك ما سواهما.

أي أنه كان يتعوذ بأدعية وما شابه ذلك من الجان ومن عين الإنسان، إلى أن نزلت سورة الفلق وسورة الناس. وفيهما تعويذة: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)، (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)، فترك سائر التعويذات واكتفى بالسورتين.

٤. وفي حديث رابع رواه مالك عَنِ ابْنِ شِهابٍ عَنْ أَبِي أُمامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ قالَ: (رَأى عامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ يَغْتَسِلُ، فَقالَ: واللَّهِ ما رَأَيْتُ كاليَوْمِ ولا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ (فتاة عذراء)، قالَ: فَلُبِطَ (صُرِع) سهل، فَأَتى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عامرا فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ، وقالَ: عَلامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخاهُ؟ أَلا بَرَّكْتَ! اغْتَسِلْ لَهُ، فَغَسَلَ لَهُ عامر: وجْهَهُ ويَدَيْهِ، ومِرْفَقَيْهِ، ورُكْبَتَيْهِ، وأَطْرافَ رِجْلَيْهِ، وداخِلَةَ إزارِهِ فِي قَدَحٍ، ثُمَّ صَبَّ عَلَيْهِ، فَراحَ مَعَ النّاسِ)[١]. هذه غيض من فيض مما جاء في روايات مدرسة الخلفاء من أن العين وأثرها والإصابة بها شيء من جملة الأمور المسلمة التي لا يناقش فيها أحد تقريبا.

وبناء على هذا فقد تحولت مسألة العين وتأثيرها إلى جزء من الحياة الشعبية عند الناس، وأصبح موضوع القراءة على الماء، والزيت، ثم دهن الجلد بهما شائعا ورائجا. بل وأصبحت لدى البعض تجارة رابحة. حتى لقد تخصصت قنوات فضائية في هذا فشغلها الشاغل: هو الرقية، ومحاربة آثار العين.

هل يعتقد في المدرسة الإمامية بتأثير العين؟

على خلاف ما هو في مدرسة الخلفاء لا نجد في تراث مدرسة أهل البيت ذلك

(١) الأصبحي؛ مالك بن أنس: موطأ الإمام مالك ت عبد الباقي ٢/ ٩٣٩.

الحضور المكثف والكبير لقضية العين ولا في ممارسات أتباعها ما يتبعها تلك القضية من القراءة والرقية وأمثال ذلك.. بالرغم من وجود بعض الروايات هنا وهناك إلا أن الروايات الواردة في هذا الباب، لا تتمتع غالبا بميزة الاعتبار. مثلا، ما ورد في الكافي[١]، رواية: عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «رَقَى النَّبِيُّ حَسَنًا وَحُسَيْنًا، فَقَالَ: أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ وَأَسْمَائِهِ الحُسْنَى كلِّها، مِنْ شَرِّ السَّامَّةِ وَالهَامَّةِ وَمِنْ شَرِّ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ». الشاهد: في العين اللامة، أي: العين التي تلم بالإنسان وتضر به، ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، ثم التفت النبي إلينا وقال: «هَكَذَا كَانَ يُعَوِّذُ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ»، يعني: ابنيه.

وفي رواية أخرى[٢] يحذر فيها من الاغتسال بماء قد اغتسل به.. إلى أن يقول الراوي فقلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: «إِنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَقُولُونَ أَنَّ فِيهِ شفاءً مِنَ الْعَينِ»، فقال: «كَذَبُوْا، يَغْتَسِلُ فِيهِ الجُنُبُ مِنَ الحَرَامِ، وَالزَّانِي، وَالنَّاصِبُ الَّذِي هُوَ شَرُّهُمَا[٣]، وَكُلُّ خَلْقٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ، ثُمَّ يَكُونُ فِيهِ شِفَاءٌ مِنَ الْعَيْنِ. إِنَّمَا شِفَاءُ الْعَيْنِ قِرَاءَةُ الحَمْدِ وَالمُعَوَّذَتَيْنِ وَآيَةِ الْكُرْسِي...»، إلى آخر الحديث.

هذا لو أريد الاستشهاد بهذه الرواية في قوله: إنما شفاء العين كذا وكذا. وكأنما الإمام عليه السلام يقر بضرر العين وبأنها تسبب المرض، وإنما قام بتخطئة العلاج، ولم يرد أصل القضية..

---

(١) الكافي ٢ / ٥٦٩: علي بن ابراهيم عن أبيه عن بعض أصحابه عن القداح عن أبي عبد الله. نعم هناك رواية معتبرة في الفقيه عن محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام فيها إشارة إلى التعويذة التي عوذ بها جبرئيل الحسن والحسين عليهما السلام.

(٢) الكافي ٦/ ٥٠٣: وسندها غير تام.. عن الرضا عليه السلام: من اغتسل من الماء الذي قد اغتسل فيه فأصابه الجذام فلا يلومن إلا نفسه.. قال محمد بن علي (الراوي) قلت له: إن أهل المدينة.. الى آخر الرواية

(٣) (كون الناصب شرا منهما لأن مشكلتهما هي جوارحية، بينما مشكلته عقائدية، حيث أن الناصب هو من يتظاهر بشتم النبي وأهل بيته وبغضهم.

غير أن هذا الرواية بدورها، ضعيفة السند. ومثلها رواية أخرى في كتاب نهج البلاغة ودعائم الإسلام.

لكن رواية الشيخ الصدوق في كتاب من لا يحضره الفقيه، معتبرة، «لَا يَدَعُ الرَّجُلُ أَنْ يَقُولَ عِنْدَ مَنَامِهِ: أُعِيذُ نَفْسِي وَذُرِّيَّتِي وَأَهْلَ بَيْتِي وَمَالِي، بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ». وقد ذكر فيها العين اللامة التي تلم بالإنسان وتؤذيه أو تضره.

نعم، توجد بعض الإجابات، لا تستبعد تأثير العين كما أجاب به المرجع الديني المرحوم الشيخ التبريزي -أعلى الله مقامه- في كتابه: في صراط النجاة. فقد سئل: هل أن مسألة العين (الحسد) ثابتة من النصوص الشرعية، وأنها واقع حقا أم لا؟ فأجاب: لا يبعد ذلك، ولعله يشير إليه قوله تعالى:﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ والله العالم.

وفي سؤال آخر أجاب عنه بأن الاعتقاد بتأثيرها وعدم الاعتقاد لا يضر ففي جوابه على سؤال: ما هو الحكم بالنسبة لمن ينكر ذلك، إذا كانت واقعًا، ويقول: ان مثل هذه تعتبر من الخرافات، ليس لها من الواقع نصيب، ولو كان لها واقع لما بقي ملك سلطان على حاله، ولمَلك مثل هؤلاء العالم؟: إذا اعتقد شخص أنها من الخرافات، فلا يؤثر ذلك على الغير، ان شاء الله تعالى، والاعتقاد بمثل هذه الأمور، وعدم الاعتقاد بها لا يضر بالشخص.(١)

ونحن نلاحظ أن طريقة الجواب هنا تختلف تماما عما نراه في مدرسة الخلفاء

(١) التبريزي: الميرزا جواد؛ صراط النجاة ٣ / ٤٣٥. وقد سبق أن تم مناقشة اعتماد القائلين على الآية المباركة وأنها قد لا تكون دلالتها على تأثير العين واضحة تمام الوضوح.والكلام هنا كالكلام هناك.

حيث الاعتقاد بها مسلم، ويعتبرونه لازما ما دامت قد وردت في أحاديث الصحاح، ويرتبون على ذلك أثر من الاستغسال كما سموه، وبطريقة معينة بحيث يغتسل العائن ثم يغسل المعيون بدنه بفضل غسل العائن.

تأثير العين في الشهرة الشعبية:

يمكن القول إن تأثير العين في الأشياء والأشخاص لدى الشعوب، كأنه من الأمور المتسالم عليها لدى عامة الناس، فمن ذلك ما نراه في ممارسات لديهم من جعل الأحراز وما يعتقدون به من موقيات العين.. ولا يقتصر هذا على شعب دون آخر، فقد عرفت لدى الشعوب التركية والفارسية والهندية والحبشية والأوربية وغيرها، وقد تفننت هذه الشعوب في (ابتكار) ما يقي في رأيهم من العين وشرورها.. ومن المشهور بين الشعوب أن تعلق (تعويذة وقائية وهي عبارة عن أجسام مسطحة أو دائرية، تتكون من دوائر بدرجات اللون الأبيض والأزرق، وعادةً يكون ترتيبها بهذا الشكل «الأزرق الداكن ثم الأزرق الفاتح، فالأبيض، ويليه الأزرق الداكن مرة أخرى» وعين الشيطان متمركزة في الوسط). ولا يخلو كل مجتمع من حكايات يختلط فيها الادعاء بالصحيح والوهم بالواقع والتضخيم والمبالغة بغيرهما، حول تأثير العين، وبعض الأشخاص العائنين! كما يختلط أمر العين بالحسد وهما مختلفان كما مر قريبا الحديث عنه!

ولعل هذا بتأثيره الاجتماعي، وتوارثه من جيل لآخر هو أكثر العوامل المسببة لانتشار الفكرة بغض النظر عن صمودها أمام البحث العلمي وعدم صمودها.

رأي المخالفين لتأثير العين:

في مقابل الرأي الذاهب إلى تأثير العين هناك من لا يقبل وجود ذلك التأثير، أو

على الأقل بحدوده الكبرى ذات العرض العريض! ويقدم لذلك المبررات التالية:

١. أن لكل قضية أسبابها الموضوعية. فالنجاح له أسبابه، وكذا الفشل وللصحة أسبابها والمرض كذلك. والأجهزة صلاحها بسبب وخرابها بآخر. ولكي نضيف سببا جديدا لكل هذه الأمور هو العين، بحيث تصبح أحد أسباب خراب السيارة وتعطلها عن السير. ومرض فلان كما أن من أسبابه الفيروسات أو الميكروبات أو التسمم، فإن من أسبابه: العين، فإنه يحتاج إلى استدلال قوي. وغاية ما قدمه الطرف المثبت من استدلال هو بعض الآيات القرآنية غير الصريحة أو الواضحة في هذا الأمر، بل يوجد لها تفسيرات أخر!

وأما بالنسبة للروايات فهي لو كان لها مجال للاستدلال بها باعتبار أن ما دل على حجية خبر الثقة إنما مجاله في الروايات الفقهية والأحكام على المشهور، دون باقي المجالات، لا سيما مثل هذا الموضوع الذي هو أقرب إلى الموضوع العقائدي منه للمسألة الفقهية، فلا تنفع الروايات هنا إلا إذا كانت من الكثرة بحيث تورث العلم.. وليست كذلك. هذا بالإضافة إلى ضعف اسانيدها غالبًا لا سيما تلك الموجودة في مصادر الإمامية.

وأما روايات مصادر مدرسة الخلفاء، فقد وجدت -حال إعداد هذه المقالة وترتيبها- كلاما مناسبا لبعض الباحثين المعاصرين(١) أحببت نقله بنصه: «ثمة روايات عديدة واردة في مسألة العين، بيد أنها في مجملها لا تخلو من ملاحظات في سندها أو دلالتها الأمر الذي يبعث على التوقف في بناء الاعتقاد بالعين عليها

---

(١) مقال بعنوان: الاصابة بالعين بين الحقيقة والخرافة: الشيخ حسين الخشن في موقعه الالكتروني:
al-khechin.com/article/58
قرئ بتاريخ ١/ ٩/ ١٤٤١.

وإليك بعض هذه الروايات:

١. في الحديث عنه ﷺ: « أكثر من يموت من أمتي بعد قضاء الله وقدره بالعين»(كنز العمال ٦/ ٧٤٥). ومع غض الطرف عن سند الرواية فإنّ مضمونها لا يخلو من استغراب لأنها جعلت الإصابة بالعين خارج نطاق القضاء والقدر، مع أن من المعلوم أنه ما من حدث من أحداث هذا الكون يقع خارج نطاق القضاء والقدر فكيف تكون الإصابة بالعين خارج ذلك؟!

٢. وعنه ﷺ: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين...»(رواه أحمد ومسلم والترمذي وصححه، راجع نيل الأوطار:٩/ ١٠٧). ويبدو لي أن هذا الحديث المذكور في سياق الاستدلال على صحة الاعتقاد بالعين هو على عكس المطلوب أدل، لأن «لو» حرف امتناع لامتناع، فيكون مفاد الحديث أنه ليس هناك شيء يسبق القدر بما في ذلك العين، نعم لو سبقه شيء لسبقته العين، فهذا الحديث هو نظير قوله ﷺ: «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»[1] أو قوله ﷺ: «ولو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء»، وفي ضوء ذلك يتعين تفسير ما جاء في صدر الرواية بأنّ «العين حق» هذا التعبير الوارد في العديد من الروايات (راجع المستدرك للحاكم ٤/ ٢١٥، وسنن ابن ماجة ٢/ ١١٥٩، وبحار الأنوار ٦٠/ ١٨ وما بعدها)، وإن لم نجد تفسيراً وتوجيهاً مقبولاً يوفق بين صدر الرواية وذيلها تعيّن اطّراحها أو على الأقل رد علها إلى أهلها بسبب التهافت الملحوظ فيها.

---

(١) مع ملاحظات لنا على الحديث المذكور ذكرناها في موضع آخر.

٣. وعن علي ﷺ:«العين حق والرقى حق، والسحر حق والفأل حق، والطيرة ليست بحق، والعدوى ليست بحق...» (شرح نهج البلاغة ١/ ٣٧٢). لكن هذه الرواية لم ترد في جميع نسخ نهج البلاغة وإنما وردت في نسخة ابن أبي الحديد فقط ـ وإنّ مضمونها يزيد في وهنها وذلك من جهتين:

الأولى: اعتبارها أن:«السحر حق» وهو أمر مخالف للقرآن، فإنه ظاهر في عدم واقعية السحر، قال تعالى:﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم﴾(الأعراف:١١٦)، وقال في نفس الموضوع ﴿يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾(طه:٦٦).

الثانية: أنها افترضت أن «العدوى ليست بحق» وهذا أمر مخالف للوجدان) انتهى.

٤. يضاف إلى ذلك ما سبق من النقض المذكور في سؤال الاستفتاء وهو حري بالاهتمام، وقد ذكر مثله في بحار الأنوار[1] من أنه لوكان للعائن هذه القدرة لتمكن بها من إهلاك أعدائه، ولاستخدم هذه القوةَ السلاطينُ في الانتصار على مخالفيهم، فقاموا بتعطيل أدوات الأعداء الحربية مثلا، أو إمراض الجنود والمقاتلين، أو إهلاك الملوك المخالفين لهم.. وهذا باطل بالطبع.

٥. كما أن قسمًا كثيرًا مما ينقل هو مما يدخل في دائرة التوافق الحيني أو الزمني، ولا يخضع لاستقراء علمي، فقد ينظر زيد إلى شخص أو يقول كلامًا في حقه، فيصبح هذا المنظور مريضًا في اليوم التالي! هذا التوافق الزمني لا يعني بالضرورة سببية نظرة ذلك الشخص لهذا.. فللمرض أسباب كثيرة! لم يثبت

(١) ولو كان للعين نفسها أثر لكان يصح أن ينظر العاين إلى بعض أعدائه الذين يريد إهلاكهم وقلعهم، فيهلكهم بالنظر، وهذا باطل بحار الأنوار ٦٠/ ٢٠.

علميًا أن النظرة هي احدى تلك الأسباب! والشاهد على ذلك أن الشخص قد ينظر إلى عشرة أشخاص في اليوم لا يمرض منهم سوى شخص فلماذا تخلفت هذه النظرة عن أثرها في الباقين؟ وهكذا فحتى القائلين بتأثيرها لا يقولون بأنه كلما نظر العائن للأشياء والأشخاص حصل تدمير لها أو مرض لهم أو انكسرت تجارتهم.. وإنما إذا أثبتوا ذلك فإنهم يثبتون ذلك في أحيان قليلة.

وما قيل من القدماء من أن هناك أجزاء صغيرة (سمية) تخرج من العين إلى المعيون وتؤثر فيه لا دليل عليه ـ بل حتى محاولات المحدثين الجدد الذين غيروا التعابير إلى تعابير جديدة مثل أن: للجسم طاقات خفية وقد تكون لدى بعض الأشخاص قليلة وللبعض الآخر شديدة ومركزة، ومن هذه الطاقات طاقة النفس، وطاقة تأثير العين، وهي تؤثر في الآخرين، فهي من الممكن أن تلوي الفلزات أو تؤثر في الأجسام.. كل ذلك مما لا نعرف له وجها علميا واضحا، وهو إن حصل في أحيان أقل من النادرة فلا يمكن البناء عليها إذ هي من الأمور الشاذة النادرة جدا.

لكن هل يمكن إنكار ذلك بالجملة ونفيه بالمطلق؟ واعتبار أن ذلك كله خرافات؟

هي مجازفة. تماما مثلما أن التسليم بما يقال مجازفة أخرى.

والنتيجة العملية في هذا هي ما يلي:

١. ألّا يعيش الإنسان وهم أنه محسود أو معيون، أو أن هناك طرفًا آخر يتقصده في صحته أو نجاحه، في زواجه أو تجارته أو ما شابه ذلك. فإن القاعدة الأولية في هذه الأمور: أنها لا تؤثر في الآخرين. وسواء قلنا إنه لا حقيقة علمية لها كما يذهب بعض المسلمين إليه في موضوع العين.. أو قلنا: هي

موجودة في الجملة، وأحيانا وعند قسم محدود من الناس. إلا أن هناك طرقًا لاتقاء شرها على فرض وجودها، كما سيأتي.. والصحيح هو الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى قد رتب الكون على أسباب ونتائج، وقد جعل لكل شيء قدرًا. ووضع سننًا: للنجاح، وأخرى للفشل، وعوامل سقوط ونهوض. وعلى الإنسان أن يسعى وراء تلك السنن والقواعد الحقيقية. وأن يعتقد بما وجه إليه القرآن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[١] ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإْنسان إِلاَّ مَا سَعَى﴾[٢] و ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.[٣]

وأن إلقاء نتيجة الفشل والتأخر والمرض وغيرها على عاتق الحسد والعين، وغير ذلك هو نوع من التغافل عن الأسباب الحقيقية التي هي بيد الإنسان نفسه.. فإذا أراد أن يتخلص أحد من فشله وتأخره فليكن واضحا وصريحا في الأسباب العائدة إليه ذاته وليحاول تغيير نفسه، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.[٤]

٢. إنه في حال فرضنا أن الإنسان تخوّف من مثل هذه القضايا، فليتوكل على الله سبحانه ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٥] وليطرد الخوف من خلال التمسك بالأذكار والآيات التي من شأنها أن تدفع هذا الخوف، بل الضرر لو كان في الواقع موجودًا.

---

(١) المدثر: ٣٨.

(٢) النجم:٣٩.

(٣) الزلزلة: ٧-٨.

(٤) الرعد: ١١.

(٥) الطلاق: ٣.

ونعتقد أن ما جاء من التوجيهات الدينية في هذا هو علاج للجانب النفسي أكثر مما هو للضرر الواقعي الذي قد يكون وقد لا يكون. أما الخوف والقلق فهو موجود لدى البعض سواء كان له منشأ عقلائي أو لم يكن فلكي يقضي الدين على هذا القلق والخوف، ربطه بالخالق القدير الدافع لكل بلاء، وألجأ ظهره إليه، و(أعاذه) به. ومن هنا جاء استحباب قراءة المعوذتين، وقراءة الأدعية والتعويذات..

الحقد والبغضاء

قال الله العظيم، في كتابه الكريم ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[1].

تتناول هذه الصفحات صفة الحقد كإحدى الصفات السيئة والأمراض الأخلاقية، وعادة ما يذكر الحقد والبغضاء مقترنين، وذلك لما بينهما من علاقة مترتبة فإن من يبغض شخصا قد يستطيع إظهار تلك الكراهة والبغض، وقد لا يستطيع أن يظهرها ويعلنها، إما بسبب كون المبغوض متنفذا أو قادرا على الانتقام ممن يبغضه، أو لسبب آخر فيكتمها هذا في نفسه، وهنا إما أن يكون مسيطرًا عليها ومتحكمًا بها، وهذا ما قد يسمى بكظم الغيظ أو ألّا يكون كذلك فيحتقن القلب وتتحول إلى حقد دفين!

ومثلما البالونة كلّما نفخت فيها أكثر زادت احتقانا فإن القلب المحتقن بالحقد هو هكذا!

---

(١) آل عمران: ١١٨.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن ما يظهر من هؤلاء الحاقدين هو جزء بسيط مما هو موجود في النفوس حيث يقول الله تعالى ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ فهو يسب ويشتم، ويغتاب يسخر، ولكن الكم الأكبر لا يزال في داخل الصدور، ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ وهذا هو يغذي تلك الممارسات، ويعبر عن نفسه بالكلمات.

إن الإنسان ليتعجب في بعض حالات الطلاق ومقدماته كيف أن هذين اللذين بدءا على اساس المودة والرحمة، وأن الواحد منهما قد أخذ من الآخر ميثاقا غليظا.. كيف تغير هذا ليعيش بعضهم على البعض الآخر حالة الحقد والبغضاء، فهو على زوجته وهي على زوجها، فيحاول مع أنها طُلقت منه! أن يشوه سمعتها، ويطعن في شرفها، وإذا استطاع أن يفسد أبناءها عليها، أو بالعكس حين تقوم الزوجة بمثل تلك الأمور تجاه زوجها. فتفتري عليه وتشوه سمعته، بحيث يصعب عليه الزواج من جديد في منطقته.. إن الذي يغذي ذلك هو مخزون الأحقاد المتراكم في القلب.

وقد يكون هذا الشعورعند الإخوة، فلأجل أن يستأثر بمحبة أبيه أو أمه، تراه يبغض باقي اخوته ويوغر صدر الوالدين عليهم، وكلما تعامل الوالدان بعدالة مع باقي الأولاد، وأنصفوهم زاد هذا حقدا عليهم! حتى لينتهي الأمر إلى قتل الحاقد المحقودَ عليه كما يشير إلى ذلك قصة ابني آدم، أو محاولة ذلك كما في قصة إخوة يوسف معه!

وفي مقابل هذا، يقدم الإسلام هذه الصورة البديعة للإنسان الذي يريده ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، من الاحتقانات والأحقاد الشخصية أو الاجتماعية.

والحقد الشخصي سيء وخطر لكن الأحقاد الاجتماعية العامة أسوأ وأكثر ضررا، فإنها تمهد للاحتراب الداخلي في المجتمع! فعندما أربي أنا عالم الدين مثلا

أتباعي على بغض غيرهم والحقد عليهم، ويقوم العالم المختلف معي في المذهب بنفس الأمر.. فماذا نتوقع؟

إن هؤلاء الذين لا يعرف بعضهم بعضًا، وربما لم يلتقوا في طريق قبل هذا اليوم، إنما تم تعريفهم ببعضهم من خلال الصورة الحاقدة التي رسمها كلٌّ منا للآخر لذلك رأينا سهولة القتل وكثرته وعنفه بين هذه الفئات!

في مقطع من مقابلة تلفزيونية مع أحد الدواعش، عندما سأله المذيع عن عدد من قتلهم (والأكثر منه بشكل تصفية فردية، بالذبح وأمثاله)، ففكر قليلًا ثم قال: حوالي ٩٠٠ شخص!! إنه يقول ذلك وكأنه يتحدث عن أكلة أو شربة ماء! بينما ذلك يعني أنه أزهق ٩٠٠ روح، وكائن حي يتحرك وله مشاعر وعواطف وارتباطات، وحياة عامة!

ومثل هذا الرجل القاتل لم يوجد هكذا من ولادته، ولا في صغره، وإنما تشكل من خلال تعبئة و(سوء تربية) وغرس لأشجار الأحقاد خلال سنوات متتالية حتى أنتجت جزارًا يقتل من يوحد الله ولا تطرف عينه! وينحر وكأنه يذكي ذبيحة!

لقد انتهى ذلك القلب (السليم) الذي خلقه الله به ليحل محله دملة متقيّحة بالحقد ومتورمة بالبغضاء.

فبينما يكون مثل هذا الشخص حاملا لهذا القلب المتقيح، يؤكد شيخ الانبياء وأبوهم ابراهيم الخليل عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام، بأن طريق النجاة هو أن يأتي الإنسان يوم القيامة، بقلب سليم! ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] والجدير بالذكر أن القرآن نفسه قد

---

(١) الشعراء: ٨٧-٨٩.

وصف النبي ابراهيم بأنه ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١]، ولتوضيح أبعاد هذا القلب نقل ما ذكره الشيرازي في تفسيره الامثل حيث قال: «إنّ كلمة (سليم) مشتقّة من (السلامة)، وعندما تطرح السلامة. بصورة مطلقة، فإنّها تشمل أيضًا السلامة من كلّ الأمراض الأخلاقية والعقائدية.

فالقرآن الكريم يقول بشأن المنافقين ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾، أي إنّ قلوبهم مصابة بنوع من أنواع المرض، وإنّ الله سبحانه وتعالى أضاف أمراضاً أُخرى إلى ذلك المرض على أثر لجاجتهم وارتكابهم المزيد من الذنوب.

وأجمل من فسّر عبارة (القلب السليم) هو الإمام الصادق عليه السلام عندما قال: «القلب السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه!». حيث جمع بقوله كلّ الأوصاف المذكورة مسبقاً.

وقد جاء في رواية أُخرى للإمام الصادق عليه السلام «صاحب النيّة الصادقة صاحب القلب السليم، لأنّ سلامة القلب من هواجس المذكورات تخلص النيّة لله في الأُمور كلّها»[٢].

وربما لا يحقد المؤمن حتى على المنحرف حقيقة! فضلا عمن كان انحرافه اجتهادًا، بمعنى أنه يحمل اعتقادًا منحرفًا لكن عن سوء فهم، أو يمارس عملًا منحرفًا عن خطأ فكري، وإنما يبغض عمله ومعصيته وأنه لو استطاع أن يهديه للصراط المستقيم فإن يتمنى له ذلك ويُسر باستقامته. وربما دعا له بالهداية.

نعم من تمحض بالانحراف و﴿مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾

---

(١) الصافات: ٨٤.

(٢) الشيرازي؛ الشيخ ناصر مكارم: الأمثل في تفسير الكتاب المنزل ١٤/ ٣٤٥.

ومن أصبح رمزا لمحاربة الله تعالى وشريعته من (أئمة الكفر) فأمرهم مختلف، حيث هم محل لعنة الله تعالى ومحل حرب المؤمنين!

وإذا كان أول المنازل في القدوم على الله تعالى، يتطلب أن يكون هناك قلب سليم خلي من العاهات، فإن الجنة والبقاء فيها تشترط أيضًا نفس الشرط وإلا لا يمكن لمن في قلبه مرض أن يكون في الجنة الطيبة، فإن القرآن ينبئ عن أن المؤمنين في يوم القيامة ﴿بِسَلَامٍ آمِنِينَ * ونَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[1].

والغِلّ كلمة أصلها «إدخال شيء في شيء يوجب تغيّرًا وتحوّلًا، ومن مصاديقه الغِلُ وهو ما يدخل في القلب و يوجب تحوّله من الصفاء والخلوص الى خلط وانكدار، كالعداوة والبغض والضغن والحقد والحسد والخيانة وغيرها... والغُلُ هو القيد يجعل في رقبة أو يد أو فيهما كأنّه يدخل في الأعضاء بسبب شدّ وقبض فيها يمنعها عن البسط و الحركة و يوجب تغيير حالة فيها»،[2]وكأن العلاقة بينهما واضحة فإن المغلول إلى عنقه لا يستطيع الحركة الطبيعة السلسة بيده أو رقبته، فهو محبوس في غله وقيده، والقلب الوغر والمحتقن الحاقد أيضًا هو كذلك بالنسبة للآخرين فهو غير منطلق، ولا يستطيع أن يكون على طبيعته، فهو لا يستطيع أن يحيي الآخرين بحفاوة ولا يتعامل معهم بصفاء وتبسط! إن الذي يحبسك عن ذلك هو الغِل الداخلي في الصدر..

ولأن المقام دائم في يوم القيامة فهذه الأغلال المانعة عن التفاعل والتواصل بين المؤمنين لا يمكن أن تكون باقية!

---

(١) الحجر: ٤٦ـ ٤٧.

(٢) المصطفوي؛ الشيخ حسن: التحقيق في كلمات القرآن الكريم ٧ / ٢٥٦.

وهذا لا يأتي بشكل أتوماتيكي وإنما على أثر طلب المؤمنين إياه في الدنيا، فإنهم لمعرفتهم بآثار الحقد والغل الداخلي وما يخلفه من مرض القلب من جهة، وسوء في التعامل مع المؤمنين من جهة أخرى فإنهم يدعون ربهم بالمغفرة لإخوانهم المؤمنين وألّا يجعل في قلوبهم غِلًّا تجاههم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[١] إن هذا الدعاء حين يتكلل بالإجابة تكون له آثار دنيوية وأخرى أخروية حيث يورث ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾. وهذا من الأدعية العظيمة التي يستحب للإنسان أن يدعو بها.

رجل من أهل الجنة سليم الصدر

وبحسب ما نقل في بعض المصادر فقد أشار النبي ﷺ إلى أحدهم ممن كان سليم الصدر ممن لا يحسد أحدا على ما أعطي، ولا يحقد عليه ولا يغشه! ونبه إليه بأن من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إليه..

وقبل أن نمضي في ذكر الحديث، نوضح ملاحظة وهي أنه قد تكرر من النبي مثل هذه الإشارة إلى بعضهم ولم يكن الغرض الأساس مدح أولئك ليفخروا بها في الدنيا! أو لكي يتأكدوا من مصيرهم مسبقًا، وإنما كان الغرض فيما صح من الحديث عنه فيهم -وإلا فالادعاء كثير- أن يجعل المسلمين يفتشون عما وراء الاسم لاكتشاف المنهج العام، من خلال تتبع سيرة ذلك الشخص أو سؤاله، وتبين الخطوط السليمة في الأمة وغير السليمة ولذلك نعتقد -معشر الإمامية- أن ما ورد على لسان النبي مما فيه مدح لمالك بن نويرة اليربوعي[٢]أو أبي ذر الغفاري أو

---

(١) الحشر: ١٠.

(٢) مالك بن نويرة اليربوعي التميمي: نقل أن النبي ﷺ قال فيه: بعدما أسلم وأخذ معالم الدين من النبي: من

عمار بن ياسر أو من يشبههم، غرضه هو الدلالة على سلامة منهجهم في الحياة إذا اختلطت المناهج، وصحة انتمائهم إذا تعددت الاتجاهات. وهذا ما لم يفهمه بعض من (وضع) الأحاديث واصطنعها على لسان النبي في مدح أشخاص لا ميزة لهم في انتمائهم، ولا صحة في منهجهم! بل لقد زاد الأمر سوءا في عدم الفهم عندما تصوروا أن دخول الجنة مرتبط بأمور بسيطة، مثل ما نقلوه عن النبي من غير فهم ـ ولعله سائد إلى الآن ـ من أن النبي ﷺ قال: من بشر بخروج آذار فله الجنة، بمعنى أن أي شخص يخبر أحدا عن خروج شهر آذار[١] يدخل الجنة.. فهذا سذاجة في الفهم، حين تكون الجنة رخيصة إلى هذا المقدار، وإنما الصحيح هو أن النبي جعل ذلك علامة على كون أبي ذر الغفاري من أهل الجنة[٢]، وقد تكرر منه ذلك، لأجل أن يتعرف المسلمون في زمانه وزماننا على المنهج الصحيح الذي كان عليه أبو ذر وهو ولاية أمير المؤمنين وخلاف أعدائه..

فقد روى الصدوق في كتابه معاني الأخبار في باب معنى قوله ﷺ: مَن بشّرني بخروج آذار فله الجنّة، بإسناده المتّصل بابن عبّاس قال: كان النبي ﷺ ذات يوم في مسجد قبا وعنده نفر من أصحابه فقال: أول مَن يدخل عليكم الساعة رجل من

أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا. وقد استعمله النبي على صدقات قومه، واختص بعلي عليه السلام واعترض على خلافة أبي بكر، وقد حمل زكاة قومه للنبي وحين وصل المدينة كان النبي قد توفي لتوه، وتولى أبو بكر الخلافة فلم يقبل بتسليمه الزكاة حيث عرف أن خليفة النبي الحق هو الإمام علي، فأعادها لقومه لكي يتصرفوا فيها كما يريدون، وكان من نتيجة ذلك أن غزي من قبل جيش الخلافة بقيادة خالد بن الوليد، وقتل هو وقومه، وتزوج خالد زوجة مالك في نفس ذلك اليوم! ولتفصيل قضيته يراجع كتاب الغدير ٧/ ١٥٨ للعلامة الأميني، وكذلك كتابنا: رجال حول أهل البيت.

(١) آذار هو الشهر الثالث من شهور السنة الميلادية حسب الأسماء السريانية المستعملة في المشرق العربي ويقابل في التقويم الغربي مارس.

(٢) الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: معاني الأخبار ١/ ٢٠٥.

أهل الجنّة، فلمّا سمعوا ذلك قام نفر منهم فخرجوا وكلّ واحد منهم يحبّ أن يعود ليكون أول داخل فيستوجب الجنّة، فعلم النبي ﷺ ذلك منهم، فقال مخاطبا لمن بقي عنده من أصحابه: إنّه سيدخل عليكم جماعة يستبقون (يتسابقون) فمن بشّرني بخروج آذار فله الجنّة، فعاد القوم ودخلوا ومعهم أبو ذرّ رضي الله عنه فقال لهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله: في أيّ شهر نحن من الشهور الروميّة؟ فقال أبو ذرّ: قد خرج آذار يا رسول اللّه، فقال رسول اللّه ﷺ: قد علمتُ ذلك يا أبا ذرّ، ولكنّي أحببتُ أن يعلم قومي أنّك رجل من أهل الجنّة، وكيف لا يكون ذلك وأنت المطرود عن حرمي من بعدي؛ لمحبّتك لأهل بيتي، فتعيش وحدك وتموت وحدك، ويسعد بك قوم يتولّون تجهيزك ودفنك، أُولئك رفقائي في جنّة الخلد التي وعد المتّقون».

وكما كان ما سبق علامة في تعيين الخط العام للإنسان في الحياة، فقد استعملت هذه الطريقة ايضا للدلالة على التوصيات الأخلاقية ونمط الحياة القيمية، وأشار النبي ـ مع فرض صدور الحديث عنه ـ إلى أن هذا النمط الأخلاقي مطلوب ومرغوب وأنه يوصل إلى الجنة، وهو ما نقل[1] عن أَنَس بن مَالِكٍ أنه قال: «كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وَسَلَّمَ فَقَالَ: (يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وَسَلَّمَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أيضًا فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وَسَلَّمَ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقَالَ: إِنِّي لَاحَيْتُ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَلّا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتَ. قَالَ نَعَمْ قَالَ أَنَسٌ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنْ اللَّيْلِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا

(١) الهيثمي؛ الحافظ علي بن أبي بكر:مجمع الزوائد ٨/ ٧٩.

تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا. فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلَاثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ ثَمَّ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وَسَلَّمَ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ: (يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ) فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مِرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ؛ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ.

فإن التنبيه على هذا الشخص والإشارة إليه ليس من أجل مدحه والثناء عليه شخصيًا، وهذا ما لم يلتفت إليه وضاع الحديث في أشخاص آخرين، وإنما الغرض منه الاشارة إلى منهج عقائدي يلتزمه ذلك الشخص كما ورد في حق مالك بن نويرة أو التأكيد على منهج حياتي في الأمر بالمعروف وردع المنكر كما هو في حق أبي ذر الغفاري أو الإشارة إلى منهج أخلاقي يلتزمه هذا الشخص الذي ورد وصفه في الحديث ولم يرد ذكر اسمه فيه!

التنمر مظهر الحقد

تحدث أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام عن الحقد والحقود فقال:

أَلْأَمُ الخُلُقِ الحِقْدُ.

الحِقْدُ مِنْ طَبَائِعِ الأَشْرَارِ.

الحَقُودُ مُعَذَّبُ النَّفْسِ، مُتَضَاعِفُ الهَمِّ، وَأَشَدُّ القُلُوبِ غِلًّا قَلْبُ الحَقُودِ.

ولكي يبين أنه لا شيء يستحق أن يتحاقد لأجله، قال: الدُّنْيَا أَصْغَرُ وَأَحْقَرُ وَأَنْزَرُ مِنْ أَنْ تُطَاعَ فِيهَا الأَحْقَادُ[1].

ليس الحقد صفة لئيمة بل هو أكثر الأخلاق لؤمًا، ولعل ذلك لأجل أن الغالب أن الحقد بلا أسباب حقيقية أو أنه ليس بالمقدار الطبيعي.

ويزداد الحقد سوءًا لأنه في الغالب يحرك الحاقد على إيذاء من يحقد عليهم، بلسانه أو يده وبانتقام فظيع تغذيه المشاعر المتطرفة، فلا يلجأ الحاقد للقانون فضلا

(١) .. هذا وما قبله. الريشهري؛ الشيخ محمد: ميزان الحكمة ١/ ٦٤٨.

عن الاخلاق، ولا يأخذ حقه ـ لو كان له حق ـ بمنطق من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم! وإنما يستأصل قبيلة كاملة أحيانًا لأجل فرد واحد، ويقتل جيلا لأجل شتيمة! وقد يكون بلا سبب أصلًا حتى مثل هذه الاسباب التافهة، مثلما نرى فيما يسمى بجرائم الحرب والإبادات الجماعية، حيث يقوم فريق أو زعيم بارتكاب أعظم الجنايات في فئة من الناس لا لسبب واضح، فضلًا عن أن يكون عادلًا!

هذا ما نجده في السياسة والتاريخ، وتتحدث عنه الأرقام والوقائع. وقد نجده على مستوى أضيق كما يحدث أحيانًا في محيط العمل أو الدراسة.. ففي العمل قد يتقصد رئيسٌ نافذ أشخاصًا فيحول بينهم وبين الترقية، بل قد يصطنع المعكرات لإلغائهم من العمل وإقالتهم. وهذا لا لأنه يخسر مالًا أو تتأثر وظيفته ومنصبه وإنما هو مستسلم هنا لحالة حقد تجاه هؤلاء الأشخاص بالذات، أو قوميتهم، أو تجاه دينهم، أو مذهبهم فلأنه (لا يحب، بل يحقد على تلك القومية أو الدين أو المذهب) فيخرج أضغانه في حق هؤلاء ويقطع رزق أطفالهم، وخبز عوائلهم! أرأيت كيف يكون الحقد ألأمَ الخُلق كما يقول أمير المؤمنين؟.

وكونه موجودًا في المحيط الأضيق لا يقلل من سوئه بل قد يزيد، والسبب أن دائرة الابتلاء به ستكون أوسع والضرر اللاحق بالناس سيكون أكثر.

لذلك نجد أن إحدى المشاكل اليوم في المدارس بمختلف مستوياتها من الابتدائية للجامعة، هو ما يسمى بالتنمر (وربما سمي في بعض الدراسات والمقالات بالاستئساد) وهو مظهر متفرعن من مظاهر الحقد الداخلي!

والتنمر وهو الاسم الاكثر شيوعا، مأخوذ من اسم النمر، وهو الحيوان المعروف الذي يعتمد على تخويف الفريسة بأن يزأر في وجهها ثم ينقض عليها.. ولأن من

يقوم بهذا العمل بالنسبة لمن هو أضعف منه، يمارس نفس الطريقة من التخويف والارعاب، اشتق اسم هذا الفعل من الممارسة الحيوانية المتوحشة.

وقد يظهر التنمر وهو ناشئ من الحقد كما تقدم في مظاهر، منها: المظهر اللفظي فيبادر المتنمر الحاقد إلى الاساءة اللفظية له والسباب والشتيمة أو السخرية والاستهزاء به بين الطلاب لكسر شخصيته وتحطيمها! ولو أراد المتنمَّر عليه أن يرد على المعتدي إساءته، يبدأ بالاعتداء عليه بالضرب أو يستعين بمن يتفق معه على إهانة ذلك الشخص وإخافته!

وقد يكون السبب تافهًا أو ليس باختيار المعتدى عليه، كأن يكون أكثر وسامة من المعتدي! أو أن يكون أذكى منه في الدراسة والتعلم! فإن كون المعتدى عليه صاحب درجات عالية في مواد الدراسة قد يجلب له متاعب من المتنمرين!

لأنه بينما كان هذا يطالع درسه بجد ويعكف على المذاكرة، كان المتنمر مشغولا بالألعاب وإضاعة الأوقات!

إن تحول الحقد -وهو ألأم الخلق، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام- من حالة قلبية داخلية إلى ممارسة خارجية و(شر)، في صورة ألفاظ كالشتائم والسخرية، وأمثال ذلك فضلا عن صور الاعتداء الأخرى البدني، وربما الجنسي! هو أمر خطير في العملية التربوية، وقد يبتلى به في المدارس بشكل خاص، نظرًا لأنها مجتمع يومي لعدد كبير من الأحداث (بنين أو بنات) ومن الطبيعي ولإثبات الذات ينشأ بينهم منافسة تغالب وهذه قد تكون شريفة إذا كانت ضمن أصولها، وقد تنجر إلى تحاقد وتنمر من قبل شخص أو أشخاص على آخرين.

ومن المهم أن يتنبه لهذه الحالة، التربويون وقادة المدارس والمدرسون أيضًا لا سيما مدرسو الصفوف المتوسطة والثانوية، بل ومن المهم أن يلتفت الآباء

والأمهات ألّا يشجعوا نزعة التنمر في نفوس أولادهم تجاه الطلاب الآخرين.

فقد يحدث أن ينشأ الولد أو البنت في بيئة تشجع الحقد والتنمر في داخل الأسرة.. مثلا عندما ينقل لي ابني الطالب، أن فلانًا قد جمع جماعة على الطالب الفلاني وضربوه ضربًا مبرحًا، ونعم ما صنعوا لأني لا أحبه! فإذا تجاوبت أنا الوالد مع هذا النقل والكلام أكن كمن يشجع حالة التنمر عنده وأما لو خطّأت ما صنعوا وأخبرته أن فلانًا حتى وإن كنت لا أحبه لكن لا يصح أن أفرح لأن آخرين قد اعتدوا عليه واجتمعوا على إيذائه وإنما الصحيح أن يتم الرجوع إلى إدارة المدرسة!

إن من الطبيعي أن يحب الطالب من ينتقم له ومن يعادي عدوه! وكذلك أن يعجبوا بالقوي الشديد، لكن إذا استخدم هذا في الاعتداء فينبغي إدانته وعدم القبول به أمام الأبناء لكي لا يعطى قيمة إيجابية! بل لا بد من بيان أنه لا يجوز من الناحية الشرعية وأن الاعتداء حرام!

إنه ينبغي أن نلقن أبناءنا أن ممارسة الحقد والتشفي، وفعل التنمر والاعتداء على الآخرين غير صحيح وينبغي أن نخطِّئ هذا العمل، وألّا نقبله، سواء فعله ابننا، أو فعله شخص آخر غيره. وإلا كانت بيئتنا من البيئة التي تشجع هذه الحالة عند الطفل.

ومن العوامل التي تشجع التنمر هي بيئة العنف التي تصنعها الألعاب الإلكترونية. فإنه مع كون الطفل يملك طاقة كبيرة، وشحنة حماس، فإنها تتفاعل مع المفردات المستعملة كثيرا في تلك الألعاب، اسحق جمجمته، اقتله!،مزقه! وهذه بالإضافة إلى أنها تنمي حالة التنمر والعدوانية عنده، تجعله لشدة الانسجام معها لا يفرق بين ما هو على الشاشة وما في الواقع، والمشكلة إذا بني ذهنه على أساس أن الانتصار هو بسحق الآخرين والفوز هو في تحطيمهم! وهذا تشويه ثقافي وعقلي خطر!

وهو هنا لكثرة ما شاهد ومارس ولعب لا يلتفت إلى ما هو أخلاقي أو شرعي وإنما إلى أن يحطم من يراه عدوه ويسحق من يواجهه. من دون سؤال: هل هذا جائز شرعًا؟ أو صحيحٌ عقلا؟ أو حسنٌ أخلاقا؟

ينبغي أن نواجه عوامل الحقد، بدواعي الحب، وأن نربي من حولنا على ذلك، بل نعلم أبناءنا على حب من يكون مجدًّا ومتميزًا ومتفوقًا لأنه لم تأت هذه الصفات من فراغ وإنما من بذل الجهد!

كيف نقضي على الحقد؟

تتنوع الأمراض الأخلاقية بحسب آثارها، بين ما يقتصر ضررها على الشخص أو القريبين منه! وبين ما يمتد تأثيرها وضررها إلى البعداء، وينتشر خطرها في دائرة أكبر! والأول مثل البخل وسوء الخلق، فإن بخل البخيل تقتصر عواقبه السيئة على نفس البخيل وربما اسرته وأصدقائه، وأما من بعد عنه فلا يتأثر ببخله وكرمه! وأما الحقد فقد لا يقتصر على القريبين، بل ربما طال شرره إلى من لا يعرفهم الشخص ولم يلتق بهم يوما! وقد أشرنا إشارة عابرة في الصفحات السابقة إلى أن من جرائم الحرب وأعمال الإبادة ربما كانت بسبب قرارات حاقدة من زعماء ومهووسين، ذهب ضحية ذلك عشرات الآلاف من الناس البعداء وغير المعروفين للشخص الحاقد!

وقد سجل التاريخ حروبا بين أتباع أديان ومذاهب وقوميات كان سببها أحيانا هوس زعماء وحقد رؤساء، يقومون بتربية أتباعهم وشحن الجو العام بضدية طرف من الأطراف حتى إذا جاءت ساعة الصفر للاشتباك فالنفوس مهيأة والقلوب محتقنة والأحقاد فائضة، فتجد متنفسها في الانتقام!

إنه حتى الحروب لها قوانينها وأصولها، بل أخلاقياتها، وفيها خطوط حمر وما

يجوز وما لا يجوز، لكن حين يقود الحقد الأعمى رؤساء هذه الكتائب والجيوش فإن الحديث عما سبق يكون من الأوهام!

لقد رأينا في أتباع الدين الواحد كيف ينتقم بعضهم من بعض على أساس اختلاف ظاهره مذهبي وكيف يصنعون ببعض ما لا يصنعه الأعداء الألداء! وهذا شهدته أوربا في حروبها (المسيحية) كما شهده ويشهدها العالم الاسلامي حين يحترب أتباع (المذاهب) فيما بينهم! فينحر بعضهم بعضا ويذبح بعضهم بعضا ويقطع بعضهم رؤوس بعض!

ولهذا ينبغي مقاومة صناعة الحقد، ومع وجود الاختلاف الديني أو المذهبي أو السياسي ينبغي إبقاء هذا الاختلاف في حدوده وضمن جغرافيته، مع المحافظة على أصول الاختلاف وأخلاقياته!

ولو فكر المصلحون في هذه المسألة وهي: كم أنفق المسلمون من أموال وكم بذلوا من جهود في صناعة الحقد فيما بينهم؟

هذا وهي تقرأ قرآن ربها الذي عذب بعض الأمم بأن جعل بأسها بينها، وأذاق بعضها بأس بعض! فصارت أمتنا الإسلامية أمثولة في هذا بدل أن تكون مثلا أعلى! وبدلا من أن تُركز جهودها في الإنشاء والإعمار، وتستثمر أموالها في النتاج العلمي والفكري والتقني والديني، أصبحت ثرواتها وقدرات قادتها الكبار: من سياسيين أو علماء ـ في قسم عظيم منها ـ موجهة لإفساد أمور الفريق الآخر والمذهب الآخر! ومن الطبيعي أن يكون لهذه المسيرة نتائج نرى أثرها في أن يكون الجو الاسلامي محتقنا بحيث لو تسلط بعض على بعض لحدث ما لا ينبغي لو لا ستر الله ثم قوة السلطات الضابطة.

في مقابل ذلك ينبغي للمصلحين والهادفين أن يتحركوا باتجاه قمع سَورة

الحقد، والتربية على التواصل مستهدين في ذلك بالتعليم القرآني والتهذيب الأخلاقي ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.[١]

و«بالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد حدّد مفهوم هذه الآية بمجموعة من الأشخاص الذين التحقوا بالمسلمين بعد انتصار الإسلام وفتح مكّة، إلاّ أنّه لا يوجد دليل على هذه المحدوديّة الخاصّة بل تشمل جميع المسلمين إلى يوم القيامة، وعلى فرض أنّ هذه الآية ناظرة إلى فئة خاصّة، إلاّ أنّها عامّة من حيث الملاك والمعيار والنتيجة».[٢]

فالمؤمنون ينبغي أن يترحموا على من سبقهم بالإيمان سواء من حيث الزمان أو من حيث شدة الالتزام، وبالنسبة لمن يعاصرهم الإنسان المؤمن فإنه يدعو ربه ألّا يجعل قلبه متشحنا عليهم، وألّا تكون الأسباب البسيطة داعية للحقد، فإذا اختلفت معه في النظر أو في طريقة العمل، بل حتى في العقائد فلا ينبغي أن يكون ذلك دافعا للحقد عليه.

نعم في الموارد التي يجب بغض أشخاص من الناحية الدينية، كبعض من لعنهم الله وأمر بلعنهم ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[٣]، فأول ما ينبغي أن يقال إن هؤلاء ينبغي أن يُبغضوا ويكرهوا لا لحظ النفس والمشاعر الداخلية وإنما أن يكون ذلك في الله، ولذلك فإن المدح والثناء الذي ورد إنما هو لمن يحب في الله ويكره في الله.. لا لأنّه يريد ذلك، أو لأن أهواءه النفسية تسوقه إليه. بل ينقل عن

(١) الحشر: ١٠.

(٢) الشيرازي؛ الشيخ ناصر مكارم: الأمثل في تفسير الكتاب المنزل ١٨ / ١٩٤.

(٣) البقرة: ١٥٩.

أمير المؤمنين عليه السلام أنه قام عن قتل عمرو بن عبد ود، لأنه شتمه أو بصق، فحتى لا يكون في قتله إياه أي شائبة من الانتقام للنفس والكراهية والحقد الذاتي، وإنما أن يكون كل عمله لله، قيل إنه قام عن قتله ومشى قليلا ثم عاد وأجهز عليه.

وبالنسبة للمنحرفين وأشياع الضلالة ينبغي أن يواجهوا في الوسط الاجتماعي بغير الترحيب، إذا كان ذلك يؤدي الى ردعهم عن المنكر. ففاعل المنكر والناشر له ينبغي أن يبغض فعله ولا يصح أن ينشأ تطبيع بين المؤمن وبين المنكر، إن الزنا زنا و﴿فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[1]. لا تقُلْ هو حرية شخصية. بل هو عمل محرم، تم توصيفه من الله عز وجل بأنه فاحشة والزاني لو كان يتأثر ببغضنا إياه ومقاطعتنا له بسبب هذا الذنب فيجب فعل ذلك من باب النهي عن المنكر.

لكن ينبغي أن يكون هذا بحساب. الحساب ما هو؟ ما ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عسى أن يكون بغيضك يوما ما وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عسى أن يكون حبيبك يوما ما»[2]؛ بمعنى أن المواقف إنما تتشكل بحسب صورة الشخص فاليوم هو مثال للسوء والمنكر ينبغي أن يبغض المنكر الذي يحمله، وأن يقاطع هذا الشخص، لكن هذا الأمر ليس (خرسانة مسلحة) لا تتغير، وإنما بتغيره وصلاحه وتوبته ينبغي استقباله في المجتمع المؤمن ومحض الحب له والترحيب به، فالموقف يجب أن يكون هادفا ومحسوبا، وليس حاقدا وأعمى!

وقد نقل هذا الحديث في مصادر الإمامية[3]عن أمير المؤمنين عليه السلام، بصيغ

(١) الاسراء: ٣٢.

(٢) الهيثمي؛ الحافظ علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد ٨/ ٨٨.

(٣) الريشهري؛ الشيخ محمد: ميزان الحكمة ٣ / ١٩٨٠.

متعددة، مما قد يعني أن الإمام عليه السلام قد ذكره في مواضع ومناسبات متعددة، بتفصيل تارة وباختصار أخرى، وبتغيير بعض الكلمات ثالثة..

فقد نقل، عن الشهيد زيد بن علي بن الحسين، عن أمير المؤمنين أنه قال: «لَا يَكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا وَلَا يَكُنْ بُغْضُكَ تَلَفًا، أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا».

ومعنى الكَلَف، كما قال في معجم مقاييس اللغة: هو الايلاع بالشيء والتعلق به، تقول قد كلف بالأمر.. وتوضيحه: ألّا تتولع بحب شخص بحيث تتعلق به تعلقا ينسيك غيره، ولا تصبر عنه، مثلما يكون الطفل الصغير كلِفا بحب أمه فلا يستغني عنها وبالعكس! كما أنه لا يصح أن يكون بغضك لأحد متلفًا لأعصابك ومنكدا لمعيشتك، فلا تهنأ بحياة من شدة بغضك إياه! بل توسط في الأمرين. فإنه لا شيء بالضرورة مستمر، فقد يتغير الشخص الذي كلفت بحبه، وينصرف عنك! أو ينحرف بحيث لا تجد سبيلًا إلا أن تنفصل عنه.. وفي المقابل فإن من كنت تبغضه بغضًا متلفًا لحياتك، قد تتغير الظروف فإذا به يصبح قريبًا إليك وصديقًا فماذا تصنع بحقدك السابق المتلف؟

هل نحب مخالفينا في الدين والمذهب؟

من هذا ينبغي أن نعلم أن ما يحكم علاقة المؤمن بالمختلفين معه في الدين أو المذهب لا ينبغي أن يكون نتيجة الحقد! وإنما ينقسم الموقف معهم بحسب موقعهم، فما لم يكونوا من (أئمة الكفر) الذين تصدوا مع سبق الاصرار والتعمد لإضلال خلق الله عن سبيله لمصالح دنيوية، وشهوات زائلة! وأباطيل.. فما لم يكونوا من هذا القسم، ينبغي أن أكون رفيقا بهم وأتمنى لهم الخير وأسعى لإخراجهم مما هم فيه من الضلال، وهذا لا يقتضي الحقد بحال، وإنما يقتضي الرحمة والرأفة.

إن المؤمن هنا لأنه يعتقد كونه على الصواب، ويعيش الراحة النفسية والدينية، فإنه يتمنى لو أن البشر جميعًا قد اهتدوا إلى هذا الدين وساروا على المنهج الذي هو عليه.. يتمنى لو تعرف الناس جميعا على سير النبي وآله، حتى يعيشوا الحياة الطيبة في الدنيا ويكونوا من أهل الجنة في القيامة، وبالطبع هذا لا ينسجم مع شعور الحقد والبغض!

ولذلك نحن نعتقد أن من يخرج ـ وأحيانا على الفضائيات ـ ليدعو على مخالفيه في الدين أو المذهب، من عامة الناس الذين لهم قابلية الهداية لو وصل إليهم المنهج الصحيح بأساليبه السليمة، فإنهم سيسارعون كما فعل غيرهم قديمًا وحديثًا.. وبدلا من ذلك حينما يقوم هذا الشخص بالدعاء عليهم، والتكفير لهم وربما دعا عليهم بالهلاك فإنه لا يمثل خلق الرحمة التي اتصف بها الله سبحانه، وجاء بها النبي الكريم، وأمر بها قادة الدين [(١)].

إن ما نعتقد هو ان تعامل المؤمن مع المختلفين معه والمخالفين له ينبغي أن يكون بطريق الرحمة وتمني هدايتهم والسعي في ذلك قدر الامكان. وأن يجتنب الحقد عليهم.

كما أنه ينبغي ألّا يجره البغض إلى تجاوز سنن العدل والانصاف وأن يكون من الـ ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا

---

(١) من العجيب أن بعض هؤلاء من مذهب اسلامي معين، يدعو على مخالفيه من مذهب آخر أريت بعض هؤلاء الذين يعتمرون الزي الديني، قد يكونون ضالين أو يكونون مدفوعين. قد ظهر في إحدى القنوات رافعا يده بالدعاء على من؟ على مذهب إسلامي آخر، على عامة الناس: اللهم أرسل عليهم الوباء، اللهم أرسل عليهم السرطان، اللهم جفف الدماء في عروقهم، اللهم كذا كذا. رويدك! هوّن على نفسك. إنه يُخشى عليه من جلطة قلبية على الهواء مباشرة.

هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[١]، فلو رأى في بغيضه خصلة حسنة فإنه لا يجعلها سيئة بسبب بغضه إياه وشنآنه، فقد يكون البغيض فاسد العقيدة ولكن أخلاقه حسنة! وقد يكون منحرف العبادة ولكنه منظما ونظيفا، فلا يصح أن نصادر شخصيته بالكامل، وإنما يقتضي العدل أن يقال لديه تلك الخصلة الحسنة ولكنه فاسد العقيدة مثلا!

إننا نسمع أحيانا مثل هذا القول عندما يقال إن فلانا المسيحي مخلص في عمله، قد ينبري شخص ليقول إن ذلك لا ينفعه في شيء لأن عقيدته فاسدة! والصحيح أن يقال: إخلاص العمل ميزة حسنة وهو محل تقدير، ولكن فساد العقيدة شيء خاطئ فيه.. وإذا أردت أن تحدد موقفًا عمليًا فقل: أنا صاحب العقيدة والإيمان أولى منه بالإخلاص في عملي.

إلا أن هذا يحتاج إلى قلب غير محتقن بالحقد، وقادر على الفصل بين ما يبغض في هذا الشخص وهو فساد العقيدة مثلا وبين ما يقدر فيه وهو إخلاص العمل.

قد يبغض الله العبد ويحب عمله:

ومن الجدير ذكره في أخر هذه الصفحات التفريق بين الذات الحسنة والعمل السيء وبالعكس فإن قسما من الناس يخلطون بين أعمال الناس وذواتهم. فإذا أحب يحب ذات الإنسان، وإذا أبغض يبغض ذات الإنسان. مع أنه من الممكن أن يتم الفصل بين الذات والعمل فيكون أحدهما مبغوضا والآخر محبوبا، وقد جاء في الروايات «أَنَّ اللهَ قَدْ يُحِبُّ الْعَبْدَ وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَقَدْ يُبْغِضُ الْعَبْدَ وَيُحِبُّ عَمَلَهُ»[٢]، نعم من تمحض في المعصية وأصبح ممثلا للانحراف والرذيلة فلا مجال فيه للفصل، ومنهم أئمة الكفر كما وصفهم القرآن الكريم، وأولئك الذين تلبست

---

(١) النساء: ١٣٥.

(٢) المازندراني؛ ابن شهرآشوب: المناقب – ط المكتبة الحيدرية ٣ / ٣٢٠ .

بهم الصفة حتى أصبح لا يمكن التفريق بين ذواتهم وبين أعمالهم السيئة، وهم الذين وصفهم القرآن الكريم بأن الله لا يحبهم، كالظالمين والكافرين والمعتدين والمفسدين والخوَّان الأثيم وغيرهم.

وإذا أردنا أن نستعمل العبارات الدارجة فإنه يقال ليكن بغضك للخاطئين بالمُفرَّق، فينبغي التفريق بين الذات والأعمال، إلا من استثني، وأيضًا ينبغي ملاحظة ما يحَب ويُكرَه في الشخص، فقد يكون فيه جهات محبوبة وأخرى مبغوضة! وربما كانت إشارة القرآن الكريم هي لهذا الصنف في الآية المباركة: ﴿خَلَطُوا عَمَلا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾.

بما سبق يمكن لنا أن نتربى والمجتمع على تجنب الحقد وأسبابه.

الخيانة رأس النفاق

الخيانة، في تعريفها اللغوي، تأتي بمعنى: التنقص[1]. إنقاص شيء -في اللغة- يعبر عنه بالخيانة. خان، واختان، يعني: انتقص. لكن في المعنى الأوسع هي (العمل قولا أو فعلا أو نيّة على خلاف التعهّد، و هو ما يتوقّع منه و يوظّف عليه، سواء كانت تلك الوظيفة أمرا تكوينيًّا أو تشريعيّا)[2].

فيقال مثلا: خانني الدهر. يعني كنت أتوقع من الدهر أن يؤاتيني ويسير معي، لكنه على العكس من ذلك سار ضدي. فبدل أن يمتعني حرمني.. ويقال في الحروب: خانه السيف. والسيف لا يخون حقيقة. ولكن كان المقاتل يتوقع من السيف قوة أكبر، لكنه انكسر. فيقول: خانني السيف.

وفي آيات القرآن نهي عن خيانة الله ورسوله وخيانة الأمانة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾[3]، فإن الذي يخون الله سبحانه

---

(١) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٢٣١.

(٢) التحقيق في كلمات القرآن الكريم للمصطفوي / ٣ / ١٥٢.

(٣) الأنفال: ٢٧.

وتعالى، كأنه كان يتوقع منه شيء، فلم يصنعه وانتقص عهده. ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾، فإذا بهذا الآدمي، الذي يتوقع منه الوفاء بعهد الله إياه في أن يعبد ربه، عندما أخذ عليه الميثاق في عوالم ما قبل الوجود، وعرَّفه عدوه، وعرَّفه الصراط المستقيم، كان يُتوقع منه أن يفي بما وعد، بأن يسير على درب الإيمان، وألّا يخالف أوامر الله. فإذا ترك هذه الأمور، يقال: خان الله عز وجل، أو خان الرسول، أو خان الأمانة التي أؤتمن عليها.

وقد ورد في آيات القرآن الكريم إنكارٌ كثير، وتشنيعٌ عظيم على الخائن، فوُصِف بأنه غير محبوب من قبل الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[1].

بل حتى بعض المظاهر التي تنبئ عن شيء داخلي من الخيانة، انتُقِدت من قِبَل القرآن الكريم، وهي ما تسمى: بخائنة الأعين. وكأن المفروض أن تؤدي هذه العين دورها ضمن الأحوال الطبيعية، برؤية العالَم، ودراسة العلم.

هذه العين، المفروض منها أداء بشكل معين، تخدمك به. لكن غير مطلوب منها أن تشير بطرفها على شخص حتى تستهزئ به، أو حتى تتآمر بها على ثالث. هذا غير مطلوب منها. فالعين بهذه الصورة، تؤدي شيئا لم يكن مترقبا منها. كان المترقب منها أن تقصرها على العلم النافع لكن حين تتحول إلى سلاح ضد أخيك، فيما لم يكن يتوقع منها؛ تسمى: بخائنة الأعين.

بل حين تسارق النظر إلى ما حرم الله ويتظاهر صاحبها بأنه لا يفعل ذلك، فهذه أيضًا خائنة الأعين كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حين سأله عبد الرحمن بن مسلمة الجريري عن قوله عز وجل: « يعلم خائنة الأعين » فقال: ألم تر إلى الرجل

---

(١) الأنفال: ٥٨.

ينظر إلى الشيء وكأنه لا ينظر إليه فذلك خائنة الأعين[١]..

حرمة خائنة الأعين على النبي

ولقد كان من مختصات رسول الله ﷺ، أنه لم يكن يجوز له خائنة الأعين، حتى فيما هو جائز ولم يصدر منه فعل في هذا حتى أنه عندما جاء إليه عثمان بن عفان بابن ابي سرح وقد كان ممن يستحق القتل، وقد أهدر النبي دمه بناء على جرائم ارتكبها. فجلس النبي هكذا، والمسلمون أيضًا جالسون. إلى أن قام ذاك وخرج. فقالوا: يا رسول الله، لماذا لم تشر علينا حتى نُجهِز عليه؟! فقال: «إِنَّ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ حَرَامٌ عَلَيَّ»[٢].

ومع هذا الاحتياط من قبل رسول الله ﷺ، وبالتوجه إلى ما جاء في القرآن الكريم، من تثريب الخائنين، وإعراض الله عنهم فإننا نتعجب مما جاء في بعض مصادر التفسير للآية المباركة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[٣]. من تطبيقها على رسول الله[٤]!! وأنه هو

---

(١) الصدوق؛ الشيخ محمد بن علي بن بابويه : معاني الأخبار ١ / ١٤٧.

(٢) الألباني؛ محمد ناصر: صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم ٤٣٥٩ (وقد صححه المؤلف):.. لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبد الله بن سعد بن أبي سرح عند عثمان بن عفان فجاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ فقال يا رسول الله بايع عبد الله فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى فبايعه بعد ثلاث ثم أقبل على أصحابه فقال أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله فقالوا ما ندري يا رسول الله ما في نفسك ألا أومأت إلينا بعينك قال إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين...

(٣) النساء: ١٠٥.

(٤) وقد رأى البعض منهم كما في تفسير البيان ٧/ ٤٥٧ لابن جرير الطبري أنه وقَدْ قِيلَ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ خاصَمَ عَنِ الخائِنِ، ولَكِنَّهُ هَمَّ بِذَلِكَ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِالاسْتِغْفارِ مِمّا هَمَّ بِهِ مِن ذَلِكَ، ومثله قاله الواحدي في أسباب النزول (فَهَمَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَفْعَلَ، وَكَانَ هَوَاهُ مَعَهُمْ وَأَنْ يُعَاقِبَ الْيَهُودِيَّ) مع براءة اليهودي!! وكذلك ما قاله الزركشي في البرهان ٤/ ٣٤٠ قَوْلِهِ: ﴿ولا تَكُنْ للخائنين

الذي كان يخاصم عن الخائنين ويدافع عنهم! وفي هذا ما يسيء إلى النبي بشكل واضح!

بينما الصحيح هو أن المخاطب وإن كان بظاهره النبي إلا أن المقصود هو تلك الفئة التي كانت تناصر الخائنين وتحاول أن تجعل الحق معهم، وليست هذه الآيات هي الأولى التي تخاطب النبي ظاهرًا، والأمة ـ كلها ـ أو بعض أقسامها واقعًا.. مثل قوله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾. وقد ورد في روايات أهل البيت أن القرآن جاء في كثير منه على طريقة إياك أعني واسمعي يا جارة[1].

وقد اختلفت الروايات في نقل القصة اختلافًا كبيرًا[2]، وفي نقلها تدخلت

خصيما﴾ أيْ لا تُخاصِم النّاسَ لِأجْلِ الخائِنِينَ! نعم ذهب المحققون من مفسريهم إلى خلاف ذلك وهو الصحيح، مثلما قالَ القرطبي في تفسيره ٥/ ٣٧٧:.. والخطابُ للنَّبيِّ ﷺ والمُرادُ منهُ الَّذينَ كانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنَ المُسْلمينَ دُونَهُ لوَجْهَيْن: أحَدُهُما- أَنَّهُ تَعالى أبانَ ذَلكَ بما ذَكَرَهُ بَعْدُ بقَوْله: ﴿ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الحَياة الدُّنْيا﴾. والآخَرُ- أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ حَكَمًا فيما بَيْنَهُمْ، ولِذَلكَ كانَ يُعْتَذَرُ إلَيْه ولا يَعْتَذرُ هُوَ إلى غَيْره، فَدَلَّ عَلى أَنَّ القَصْدَ لغيره.. وأشار فيما بعد أن هناك من جوز الصغائر على الأنبياء فيكون هذا منها!..

(١) الكليني؛ محمد بن يعقوب: الكافي ط الاسلامية ٢ / ٦٣١ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نزل القرآن بإياك أعني واسمعي يا جارة. وفي رواية أخرى، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: معناه ما عاتب الله عز وجل به على نبيه ﷺ. فهو يعني به ما قد مضى في القرآن مثل قوله: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا..﴾ عنى بذلك غيره.

(٢) منها ما أورده في أسباب النزول، وقد ذكرنا الملاحظة عليه: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصار يُقَالُ لَهُ: طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِق أَحَدُ بَنِي ظَفَر بْن الْحَارِث سَرَقَ دِرْعًا مِنْ جَار لَهُ يُقَالُ لَهُ: قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَان، وَكَانَت الدِّرْعُ في جِرَاب فِيه دَقيقٌ، فَجَعَلَ الدَّقِيقُ يَنْتَثِرُ مِنْ خَرْق فِي الْجِرَاب حَتَّى انْتَهى إِلَى الدَّار وَفِيهَا أَثَرُ الدَّقِيق، ثُمَّ خَبَّأَهَا عِنْدَ رَجُل مِنَ الْيَهُود يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ السَّمين، فَالْتُمسَت الدِّرْعُ عِنْدَ طُعْمَةَ فَلَمْ تُوجَدْ عِنْدَهُ وَحَلَفَ لَهُمْ: وَاللَّه مَا أَخَذَهَا وَمَا لَهُ به منْ علْم، فَقَالَ أَصْحَابُ الدِّرْع: بَلَى وَاللَّه قَدْ أَدْلَجَ عَلَيْنَا فَأَخَذَهَا وَطَلَبْنَا أَثَرَهُ حَتَّى دَخَلَ دَارَهُ، فَرَأَيْنَا أَثَرَ الدَّقيق. فَلَمَّا أَنْ حَلَفَ تَرَكُوهُ وَاتَّبَعُوا أَثَرَ الدَّقيق حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَنْزل الْيَهُوديِّ فَأَخَذُوهُ، فَقَالَ: دَفَعَهَا إِلَيَّ طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ، وَشَهِدَ لَهُ أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَتْ بَنُو ظَفَرٍ وَهُمْ

الأمور العقدية ومنها نسبة أن النبي هم بمعاقبة متهم بريء لا لشيء إلا لأنه يهودي! وأن المدعي عليه هو من المسلمين! وأنه كان له في ذلك هوى! كما نقلنا آنفا عن أسباب النزول للواحدي.

هذا مع أن آيات السورة كالصريحة في خلاف ما ذكروا فإن بداية الآية تشير إلى أن الله أنزل إليه الكتاب ليحكم بين الناس بما يريه الله، ولا ريب أن الله يريه الحق! مع ضميمة ما ذكرنا من قاعدة عامة ذكرها أهل البيت عليهم السلام، تنطبق على عموم آيات القرآن وعلى هذا المورد بالذات، وهي أنه في مثل هذه الموارد يكون الخطاب على منهاج (إياك أعني واسمعي يا جارة)[1] كما ورد في أحاديثهم.

الروايات المحذرة من الخيانة

إن التحذير من الخيانة لم يقتصر على القرآن وإن كان في الطليعة، بل وجدنا أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وكذا أهل البيت كثيرة وحاسمة في هذا.. فقد نفي الخائن من

قَوْمُ طُعْمَةَ: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَكَلِّمُوهُ في ذلك، فسألوه أَنْ يُجَادِلَ عَنْ صَاحِبِهِمْ، وَقَالُوا: إِنْ لَمْ تَفْعَلْ هَلَكَ صَاحِبُنَا وَافْتُضِحَ وَبَرِئَ الْيَهُودِيُّ، فَهَمَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَفْعَلَ، وَكَانَ هَوَاهُ مَعَهُمْ وَأَنْ يُعَاقِبَ الْيَهُودِيَّ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ الْآيَةَ كُلَّهَا، وَهَذَا قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ.

(١) قال الطريحي في مجمع البحرين ٣/ ٢٥٢، ومن أمثال العرب «إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَة» قيل أول من قال ذلك سهل بن مالك الفزاري، وذلك أنه خرج فمر ببعض أحياء طي فسأل عن سيد الحي فقيل هو حارثة بن لام الطائي، فأم رحله فلم يصبه شاهدا، فقالت له أخته: انزل في الرحب والسعة، فنزل فأكرمته وألطفته، ثم خرجت من خباء فرآها أجمل أهل زمانها فوقع في نفسه منها شيء فجعل لا يدري كيف يرسل إليها ولا ما يوافقها من ذلك، فجلس بفناء الخباء وهي تسمع كلامه فجعل ينشد.

يا أخت خير البدو والحضاره … كيف ترين في فتى فزاره

أصبح يهوى حُرة معطاره … إياك أعني واسمعي يا جاره

فلما سمعت قوله علمت أنه إياها يعني، فضرب مثلا.

أن يكون على ملة رسول الله «مَنْ خَانَ أَمَانَةً فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يردها إِلَى أَهْلِهَا، ثُم أَدْرَكَهُ الموتُ مَاتَ عَلَى غَيْرِ مِلَّتِي، وَيَلْقَى اللهَ وَهُوَ عَلَيهِ غَضْبَان».

ولا يستثنى من قبح الخيانة، مورد مادام ينطبق عليه عنوان الخيانة فعنه ﷺ: «أَدِّ الأمانة إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ». وعن الإمام الصادق عليه السلام، قوله: «ثَلَاثَة لَا عُذْرَ لِأَحَدٍ فِيهَا.. أَدَاءُ الأمانة إِلَى البَرِّ وَالفَاجِرِ»، والمسلم والمسيحي!

ونلفت النظر إلى ما ذكره الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله ﷺ[1]، من اعتبار الخائن منافقا غير صحيح الايمان، وإن زعم أنه كذلك: ثلاث من كن فيه كان منافقا وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا وعد أخلف،[2] إن الله عز وجل قال: في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[3] وقال: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[4] وفي قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، وكأن هذا الحديث يشير إلى مراتب ثلاث. فالوعد والخلف فيه يرتبط بالنية والقلب. وأما الحديث الكاذب

---

(١) مع اعتقادنا أن علمهم واحد، وأن ما دل على لزوم الأخذ عن النبي يدل كذلك على لزوم الأخذ عن الإمام، فلا حاجة لأن يروي الإمام عن الرسول، فالإمام في اعتقاد الشيعة ليس مجرد راو عن النبي.. فلماذا ينقل عن جده في هذا الحديث وبعض الأحاديث الأخر؟ والجواب على ذلك لأحد أمور: إما أن يكون لإعطاء أهمية وشمول لما هو المنقول فلا ريب أن المسلم المتلقي للحديث إذا رآه عن رسول الله سيتعامل معه بنحو مختلف عما إذا رآه عن أحد الأئمة. وكذلك للتأكيد على أن هناك أصولا شرعية أو أخلاقية كان يهتم المعصومون بتبليغها فتنقل عن غير واحد منهم أو ينقلها بعضهم عن بعض لأجل الاشعار بأهميتها.. وأحيانا قد يكون سامع الخبر غير معتقد بإمامة الأئمة عليهم السلام فينقل الإمام الحديث له عن رسول الله باعتبار أنهم (يتوارثون أصول هذا العلم).

(٢) في صحيح البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

(٣) الانفال:٥٨.

(٤) النور: ٧.

فيرتبط باللسان، وخيانة الأمانة ترتبط بالجوارح واليد. فهو يأخذ الأمانة ولا يردها.

وإذا كانت الخيانة ستدل على شيء فإنها كما قال عنها أمير المؤمنين عليه السلام «دَلِيلٌ عَلَى قِلَّةِ الوَرَعِ وَعَدَمِ الدِّيَانَة».[1]

جهات الخيانة:

وتتعدد جهات الخيانة بتعدد متعلقاتها، والممارسة فيها، وإن كان يجمعها النهي عنها وتقريع مرتكبها، وسيأتي الحديث التفصيلي عنها في صفحات قادمة.

١. فقد تكون الخيانة من العبد تجاه الله سبحانه وتعالى. كما قال القرآن الكريم: ﴿لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، وهي خيانة العهود التشريعية بين العبد وبين خالقه، فإن الله قد عهد إلى عبده[2] عهودا بالايمان به والتزام أوامره، ذلك أن كل خطاب منه لعباده هو عهد إلهم من الله سبحانه وتعالى ومع كل خطاب: يا أيها الذين آمنوا، يا أيها الناس، عهد من الله لعباده، فإذا لم يعملوا به، فقد خانوا عند الله.

٢. وقد تكون الخيانة في العلاقة الزوجية، سواء جاءت من الرجل أو من المرأة، بأن يسلك أحد الطرفين، أو كلاهما - والعياذ بالله - طريقا غير محلل لإشباع شهوته الجنسية، وأن يقيم علاقات غير مشروعة مع غير شريكه. ولا يقبل أي عذر هنا فلا يصح أن تقول عن زوجها: أهملني، فاضطررت أن أذهب وراء الأنترنت وأقوم بمحادثات وعلاقات.. أو أنه ضربني واضطهدني وظلمني،

---

(١) الريشهري؛ محمد: ميزان الحكمة ١ / ٨٣٤.

(٢) ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الأنعام: ١٥٢، ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ البقرة: ٤٠، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾النحل: ٩٥.

فأتاني غيره وفتح صدره لي، واستمع لهمومي، وكان بيننا ما كان.. هذا عذر باطل وفعل عاطل.

وكذلك عندما يزعم الزوج أنها لا تعطيه ما يطلب من إشباع محلل فيضطر لممارسة الحرام، ويقيم علاقة مع أخرى متزوجة أو غيرها بطريق غير مشروع.. هذا كله كلام باطل. ذنب عظيم!

٣. وقد تكون الخيانة في الولايات، بدءا من ولاية الأمة، فعندما يتولى حاكم أمر الأمة ثم يسرق أموالها، ويستحوذ على ثرواتها لنفسه من غير وجه حق، فهذه خيانة للولاية على الأمة.

ومنها أيضًا خيانة الولاية على الأوقاف، وسيأتي الكلام في كل هذه العناوين تفصيلا وإنما نشير إليها هنا بسرعة، والخيانة هنا قد تكون بمعنى صرف أموال الوقف في غير مصرفها، لا سيما على نفسه، بل حتى لو لم يفعل ذلك وإنما أهمل الوقف وضيّعه فالتضييع للوقف أيضًا، حتى ينتهي أو يتراجع هو نحو من أنحاء الخيانة ودرجة من درجاتها.

وهكذا خيانة الولاية على الأيتام، إذ بعض الأولياء المعينين من جهة المتوفى أو من جهة المحاكم على الأيتام، لتربيتهم والحفاظ على أموالهم، هؤلاء عندما تساء عشرتهم، ولا تحفظ أموالهم، يكون ذلك من الخيانة للأمانة والولاية.

بل وأيضًا، هناك خيانة للأموال الشرعية. فقد يكون شخص من أهل العلم، ولديه ولاية على الأمور الشرعية، بوكالة من مرجع التقليد، ولكنه لا يصرف هذه الأموال ولا يوجهها في سبيلها المحدد. هذه خيانة للولاية الدينية

٤. ومن ذلك خيانة الأموال، في الوظائف وهي كثيرة ومتنوعة، لا سبيل إلى

استقصاء أمثلتها، ولكن من أمثلتها الواضحة، من لديهم إشراف على مستودعات الشركات والمؤسسات، أو أموال الشركات، كمسؤولي الميزانيات، وأمناء الصناديق، فهؤلاء يبتلون بهذا الابتلاء الكبير. فقد تراه يتصرف في هذه المستودعات على غير النحو المقرر أو يستثمر أموال الشركة في حساباته الخاصة بدلا من أن يجعلها في صندوقها.. وهكذا!

٥. والخيانة للشركاء في العمل الاجتماعي أو الديني والسياسي، فقد تجد شخصا بعدما ائتمنه شركاؤه وأصحابه على أمرهم وأدخلوه في أسرارهم، وأشركوه في قضاياهم، وأحيانا مع قسمه لهم باليمين أن يحتفظ بما يعرف وألّا يكشف أسرارهم، حتى إذا عرف عنهم ما عرف! خرج ونشر عنهم ذلك، وربما استربح المال من وراء ذلك، سواء كان بعنوان مذكرات خاصة أو كان بثمن مستلم من قبل بعض الجهات! إن هذه خيانة، يحاسب عليها وعلى أمثالها لا سيما إذا تضرر غيره بما قاله عنهم في النفس أو العرض أو المال.. خصوصا مع وجود ما نُزّل عندنا منزلة القاعدة الفقهية: المجالس بالأمانات. وسيأتي الكلام فيها إن شاء الله.

المجالس بالخيانة أو بالأمانة؟

من جملة الآثار السيئة لصفة الخيانة: خيانة الأسرار بإفشائها، وخيانة المجالس الخاصة.

ذلك أن حياة الناس متداخلة وهذا يقتضي أن يشترك الإنسان مع أخيه الإنسان في كثير من الحالات. في العمل، وفي الاجتماعات العائلية، والسفر، كما يرتبط البعض بالبعض الآخر بصداقات قد تمتد أزمنة طويلة وهكذا.. طبيعة هذا الاشتراك تتيح أن يطلع كل من الطرفين على شؤون الطرف الآخر وخصوصياته وأسراره، مما قد لا يطلع عليها غيره.

فقد يشترك معه في سفر ويكتشف أخلاقه (من عنف ورحمة، وبخل وجود، وتدين وتهتك.. وهكذا)، وقد يكون معه في هيئة اجتماعية أو حركة سياسية ويطلع على أفكاره وآرائه بالنسبة للوضع العام (رأيه في السلطة، والناس، والشخصيات والجهات المختلفة) مما قد يحرص صاحب هذه الآراء على ألّا تُعرف عنه، ولا تنشر. لما قد يستتبعها من ضرر مادي أو معنوي أو بدني!

بل قد يكون طبيبًا ويأتي شخص فيبوح له بأمراضه البدنية ليعالجها، أو بدخيلة

نفسه وأسرار عائلته ـ لو كان طبيبًا نفسيًا ـ ومشاكله الخاصة، مما لا يحب أن يعرفه الآخرون ولكنه محتاج لخبرة الطبيب! ومثله أحيانًا المستشار وعالم الدين الذين قد يضع البعض كامل ثقته فيه فيفضي إليه بما يهمه!

والمفروض هنا أن كل هذه الأمور يمكن أن يطلق عليها أنها أمانة وأن الشخص الذي حصل عليها هو مؤتمن عليها فينبغي أن يلتزم بما جاء في كتاب الله ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١] إلا أن البعض قد يلجأ إلى الطريق الخاطئ، فيخونون هذه الأسرار، ويكشفونها، إما على سبيل الابتزاز، والتهديد بأنه: إما أن يحقق الضحية للمبتز مصالح معينة كالمال مثلا أو غيره، وإما أن يكشف معلوماته التي يضره كشفها! أو حتى لو لم يكن لأجل الابتزاز وإنما لأجل تحطيم شخصيته ووجوده الاجتماعي!

وفي كثير من الأحيان توظف الجهات السياسية هذا الأمر في الايقاع بين الناس بمعنى أنها تستقطب شخصًا كان مع جماعة معينة وتغريه بالمال أو المنصب لو تكلم عن خصوصيات تلك الجماعة! أو تشتري منه جهة ما ـ بهذا العنوان ـ حقوق مذكراته السياسية أو الاجتماعية ـ فيكتب هذا وتنشر تلك أن فلانًا فعل كذا، أو قال كذا! وأحيانا يرتب الأثر على هذه الكتابات بسجن فلان، أو تهديم شخصيته! أو غير ذلك!

هذه من خيانة الأمانة! ومن خيانة المجالس! فمن الذي سمح لك بأن تنقل عني كلامًا لا أرغب في نقله؟ ومن الذي أجاز لك ذلك؟ لا سيما وهو يسبب أذيتي أو أذية أهلي؟

لو أراد إنسان أن ينقل عن حياته ما شاء من حَسن وسيء فقد لا يعاتبه أحد ولا

---

(١) الأنفال: ٢٧.

يعترضه غيره، أمّا أن ينقل أن فلانًا أخذ شيئًا مني أو قال كلامًا هو كذا وكذا! أو فعل هذا الفعل، فلا يخلو أن ينطبق عليه أحد العناوين من الافتراء ـ لو كان النقل كاذبًا ـ أو الغيبة لو كان صحيحا وكان يسيء للمنقول عنه أو هو من عناوين أذية المسلم لو كان يحقق له تلك الأذية!

قاعدة المجالس بالأمانة:

من هنا ولأجل مواجهة هذا المرض الأخلاقي فقد تقرر في الشريعة الإسلامية، وعند الفقهاء قاعدة أخلاقية وشرعية فقهية. أن «الْمَجَالِس بِالأمانات»، أو «الْمَجَالِسُ بِالأمانة».

ومعنى ذلك أن المجالس التي تدور فيها أحاديث مبنية على أن تحفظ في دائرة أصحابها، فلا يجوز لأحد منهم أن يخرجها خارج هذه الدائرة حفاظا على خصوصية أصحابها، إلا إذا ترتب عليها ضرر أكبر على آخرين، أو اقتحام لحدود الله عز وجل.. فقد جاء في الخبر عن رسول الله ﷺ كما عَنْ جابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «المَجالِسُ بِالأمانة، إلّا ثَلاثَةَ مَجالِسَ: مَجْلِسٌ يُسْفَكُ فِيهِ دَمٌ حَرامٌ، ومَجْلِسٌ يُسْتَحَلُّ فِيهِ فَرْجٌ حَرامٌ، ومَجْلِسٌ يُسْتَحَلُّ فِيهِ مالٌ مِن غَيْرِ حَقٍّ»[١].

وأيضًا عنه ﷺ: المجالس بالأمانة، ولا يحل لمؤمن أن يأثر عن مؤمن أو قال: عن أخيه المؤمن قبيحًا.

ويشير إلى أنه: إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله، فلا يحل لاحدهما أن يفشي

---

(١) مسند أحمد مخرجا ٢٣/ ٤٥ وفي غيره كسنن أبي داود، ومعجم الطبراني والجامع الصغير وزيادته للسيوطي.

على أخيه ما يكره [١].

وقد قيل في بعض كتب الحديث أن هذه الكلمات مما لم يسبق به النبي المصطفى محمد ﷺ.

وبالرغم من أن بعضهم قد وصفه بالضعف في كتب مدرسة الخلفاء لجهالة ابن أخي جابر الذي ينقل عن جابر بن عبد الله إلا أن آخرين قد حسنوا الحديث، لاعتضاده بأحاديث أخرى فيكون حسنًا لغيره[٢].

ولا يختلف في هذا الحكم النساء عن الرجال وإن كان في بعض النصوص قد ورد عنوان (وإنما يتجالس الرجلان بأمانة الله..) فإن الحكم مشترك بين النساء والرجال.. ولذا لو كانت طبيعة المجلس، أو خصوصيات الحديث، فضلًا عمّا إذا قال أحدهم أو احداهن: المجالس بالأمانات، فلا يجوز للباقين نقله. إلا في الموارد المستثناة التي مر ذكرها آنفا! ولا يصح أن يعتذر بعضهم بالقول إني أنقله حتى تتكشف الحقائق. أو للتأكد أو غير ذلك فـ(المجالس بالأمانة)!

ومن التأكيد على ذلك ما ورد في وصية رسول الله ﷺ، لأبي ذر، قال: «يَا أَبَا ذَر، الْمَجَالِسُ بِالأمانة، وَإِفْشَاءُ سِرِّ أَخِيكَ خِيَانَةٌ، فَاجْتَنِبْ ذَلِكَ».

وقد عقد ثقة الإسلام الكليني[٣]، رضوان الله عليه، في كتاب الكافي، بابا،

---

(١) الحديث وما قبله من ميزان الحكمة١/ ٣٩٨.

(٢) قال عبد المحسن العباد في: شرح سنن أبي داود ٥/ ٥٥٤.. والحديث ضعفه الألباني في سنن أبي داود، ولكنه في الجامع الصغير أورده وحسنه، ولكن بدون هذه الزيادة، والتضعيف هو من أجل هذا الرجل المبهم الذي هو ابن أخي جابر، ولكنه حسنه لأنه جاء من طريق أخرى مرسلة عن علي رضي الله تعالى عنه، فيكون المرسل شاهدًا لهذا الحديث.

(٣) الكليني؛ الكافي – ط الاسلامية ٢ / ٦٦٠ ومما جاء فيه: صحيحة زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال

أسماه: المجالس بالأمانة. وأورد فيه عددا من الأحاديث. قسم منها معتبر، ومما جاء في ذلك الباب: عن أبي عبد الله الصادق ﷺ: «الْمَجَالِسُ بِالأمانة، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُحَدِّثَ بِحَدِيثٍ، يَكْتُمُهُ صَاحِبُهُ». فإذا كان صاحبه كاتما له لم يجز نقله عنه إلا بإجازته فإن أجاز، وإلا فلا. وفي تتمة الحديث «إِلَّا أَنْ يَكُونَ ثِقَةً (فقهاً) أَوْ ذِكْرًا لَهُ بِخَيْر». وهذا الاستثناء كأنه استثناء موضوعي، وخروج تخصصي فإن الفقه علم لا يكتمه صاحبه، وهكذا الذكر الطيب والخير، لا يكون مما يُكتم، وقد ذكر في أول الحديث أنه يكتمه صاحبه!

والعجيب أن الإمام الصادق ﷺ قد قبل تطبيقها حتى مع ابن أبي العوجاء في مسألة إلحادية، ولم يفشها عنه ويخبر عنه! بالرغم من أن ظاهر بعض الروايات هو أنها في الدائرة الإسلامية، إلا أنه يستفاد من هذه الحادثة أنها أوسع فقد (أتى أبا عبد الله ﷺ فجلس إليه في جماعة من نظرائه فقال يا أبا عبد الله إن المجالس أمانات ولا بد لكل من به سعال أن يسعل أفتأذن في الكلام؟ فقال تكلم! فقال إلى كم تدوسون هذا البيدر وتلوذون بهذا الحجر وتعبدون هذا البيت المعمور بالطوب والمدر وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر إن من فكر...) وبعد أن استمع إليه الإمام الصادق ﷺ، شرع يرد عليه ردا علميا قويا اعترف ابن أبي العوجاء في نهايته أنه قد لقي (جمرة بدل أن يلقى خمرة!) والشاهد في ذلك أن هذا المشكك الملحد طلب من الإمام العمل بقاعدة: المجالس بالأمانات! وما عرف ذلك عنه من جهة الإمام! حيث الرواية لا تروى عنه صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه!

قال رسول الله ﷺ: المجالس بالأمانة. ومثلها رواية ابن أبي عوف، عن أبي عبد الله ﷺ قال سمعته يقول المجالس بالأمانة. وقد وصفها العلامة المجلسي في مرآة العقول بالحسنة. وكذلك الرواية الأخرى عنه ﷺ قال المجالس بالأمانة وليس لأحد أن يحدث بحديث يكتمه صاحبه إلا بإذنه إلا أن يكون فقهًا أو ذكرا له بخير..

ويظهر أن هذه القاعدة كانت معروفة حتى عند السلاطين، وربما كان يمكن إلزامهم بها في بعض الحالات، مثل ما يستفاد من الحوار[(١)] الذي جرى بين الإمام موسى الكاظم عليه السلام وبين هارون الرشيد العباسي. فإنه قال الإمام له: «الْمَجَالِسُ بِالأمانات، وَخَاصَّة مَجْلِسُكَ». فقال هارون: لا بأس عليك. بمعنى: أن هذا الكلام لن أذهب به إلى القضاة، لن أدينك به، لن آخذه عليك وثيقة عليك..

ويستنتج من هذه الروايات، أن الأصل في المجالس أنه لا يجوز إفشاء ما لا يرضى به أهل المجلس. سواء أخبروا بذلك أو كان طبيعة المجلس أو الكلام الذي يجري فيه هو مما يُكتم. فلا يجوز لمن حضر ذلك المجلس فضلا عن غيره أن يبثه وينشره عن أصحابه أو بعضهم، ما لم يكن بإذن صاحب الكلام نفسه! إلا في بعض الموارد المستثناة والتي تقدم ذكرها.(إلا أن يكون قد سفك فيه دم حرام، أو مجلس استحل فيه فرج حرام، أو مجلس يستحل فيه مال حرام) فإن هذه القاعدة إنما شرعت لحفظ الحقوق فلا يجوز أن تكون سببا لتضييع حقوق أكبر واعظم!

هل يقتصر الأمر على المجالس بعنوانها الخاص:

---

(١) نقله الطبرسي في الاحتجاج ٢/ ١٦٣، وجاء فيه أن هارون سأل الإمام موسى: اخبرني لم فضلتم علينا ونحن وأنتم من شجرة واحدة، وبنو عبد المطلب ونحن وأنتم واحد،إنّا بنو عباس وأنتم ولد أبي طالب، وهما عما رسول الله صلى الله عليه وآله وقرابتهما منه سواء؟

فقلت: نحن أقرب.

قال: وكيف ذاك؟

قلت: لأن عبد الله وأبا طالب لأب وأم، وأبوكم العباس ليس هو من أم عبد الله ولا من أم أبي طالب.. إلى أن سأله عن سائر جهات تفضيل الإمام علي على جدهم العباس، وقال: زدني يا موسى!!

قلت: المجالس بالأمانات وخاصة مجلسك.

فقال: لا بأس به.

فقلت: إن النبي لم يورث من لم يهاجر، ولا أثبت له ولاية حتى يهاجر.. إلى آخر ذلك الحوار!

ويظهر أنه لا توجد خصوصية للمجلس بعنوانه المحدد، بل يشمل الحكم المكالمات الهاتفية والمكاتبة بين الأفراد. فلو كلمه مكالمة تلفونية، وسجلها الآخر صوتيا فهل يجوز له أن ينشرها مثلا على الإنترنت؟. لا يجوز ذلك إذا كان ذلك الحديث مما يكتمه صاحبه ولا يرضى بنشره! ما لم يدخل ضمن العناوين السابقة المستثناة.

ومما سبق يتبين أنه يدخل في هذا الإطار من منع إفشاء الخصوصيات، كل من له طريق إلى الاطلاع على أسرار الناس ولا يرضون بإفشائها فالطبيب، وهو مطلع عادة على أسرار الناس من الناحية البدنية، فقد يأتيه شخص مثلا وعنده مرض في المسالك البولية أو القدرة الجنسية، مما يكره المريض إعلانه وإفشاءه، فلا يصح من الطبيب أن يعلن عنه في المجتمع، وفي جلساته! بل حتى في غير هذه الأمراض!

وكتمان ما يرتبط بمرض المريض أصبح بروتكولا يقسم عليه الأطباء، منذ أن ورد ـ كما قيل ـ في قسم أبوقراط إلى أيامنا المعاصرة.

بل قد يشمل سائر الموارد التي يكره المؤمن الاعلان عنها، مثلما لو كان لدى شخص اطلاع على الحساب المالي لآخر مثل من يعملون في حسابات البنوك، فلا يكون من السائغ أن يكشف ذلك للآخرين! وهكذا مثل العالم الذي يجري حساب الخمس لهذا الشخص أو ذاك، فيقوم بالإخبار عنه بأنه يملك من الأموال كذا وكذا!

ولا يتحدد الأمر بأمراض الإنسان أو أمواله، بل يشمل مشاكله وقضاياه، فلو أخبرني شخص ـ باعتباري مثلا مستشارًا اجتماعيًا أو أخصائيًا نفسيًا ـ عن مشكلة نفسية عنده، أو أزمة بينه وبين زوجته، أو غير ذلك فلا يسوغ لي أن أكشفها لآخرين إذا كان لا يرضى بذلك، ما لم يأت عنوان آخر مسوغ للكشف والإخبار! نعم، ربما ولأجل نشر الفائدة أو التحذير من المشاكل، يمكن أن يعمم الموجه التربوي أو

الخطيب الاجتماعي المثالَ، ويحذف الخصوصيات المعرّفة بأشخاص المشكلة، ويتحدث عنها لكي يحذر الناس، وهذا ما قيل أن رسول الله ﷺ. كان يصنعه، فإنه إذا أراد أن يحذر من انحراف أو مشكلة اجتماعية، كان يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا.

وأسوأ من كل ذلك ما إذا قام أحد الشريكين الزوجين بكشف وإفشاء خصوصيات الشريك الآخر[١]؛ ولا سيما إذا حصل بينهما الفراق والطلاق! فإنه يشير إلى وضاعة نفس الكاشف والمفشي! كيف يصنع ذلك وقد ائتمنته على ما لا يؤتمن غير الزوج ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[٢]، وهكذا لو انعكست الآية فقامت هي بنشر أسرار زوجها الخاصة!

كل هذا يدخل بنحو من الأنحاء ضمن لزوم الحفظ وعدم الإفشاء وأن المجالس بالأمانات، ولذا نجد أن في فتاوى العلماء، يحتاطون بلزوم الكتمان حتى لو لم يأخذ عليه العهد بذلك! وسأنقل فتويين، وفيهما (كل الصيد)؛ الأولى: جواب المرحوم الشيخ التبريزي أعلى الله مقامه على سؤال: هل يجب على المؤمن كتمان سر أخيه المؤمن إذا أسرّه، سواء أخذ عليه العهد بعدم إباحته للغير أم لم يأخذ؟

والجواب: الأحوط وجوبا الكتمان فإن المجالس بالأمانات[٣].

والثانية وهي أكثر دلالة، فإنها تمنع حتى إفشاء السر الايجابي والمدح، إذا لم يكن صاحب السر يقبل بذلك! ففي استفتاء للسيد محمد سعيد الحكيم هكذا:

---

(١) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها) رواه مسلم.

(٢) النساء: ٢١.

(٣) التبريزي؛ الميرزا جواد: صراط النجاة – ج٦ / ٤٣٠.

شخص يفعل المستحبات ولا يريد أحدا أن يراه أو يتحدث عنه بفعل المستحبات ولكن شخص آخر تحدث عنه فهل تعتبر غيبة أو لا لأنه لا يجوز التحدث بفعلها؟

وكان الجواب: ليس ذلك من الغيبة المحرمة. نعم إذا اطلع شخصاً على عمله وأسر إليه به وشرط عليه الكتمان لم يجز له أن يكشف ستره لان المجالس بالأمانات لا لأنه من الغيبة![1].

---

(١) الحكيم، السيد محمد سعيد: الفتاوى/ أسئلة وأجوبة١ / ١٥٩.

الخيانة في المال والأعمال

عن أبي عبد الله[1] عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاث من كن فيه كان منافقًا وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا وعد أخلف،[2] إن الله عز وجل قال: في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[3] وقال: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[4] وفي قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾[5].

هذا الحديث الشريف، والخصال التي ذكرت فيه، ورد في مصادر المدرستين بعبارات مختلفة، ولكن الجامع المشترك بينها هو هذه الخصال الثلاث. وقد نفي عنه الاسلام هنا في هذا الحديث، وفي حديث آخر يجعله في مصاف الكافرين، لا

---

(١) الكليني؛ الكافي ٢/ ٢٩١.

(٢) في صحيح البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

(٣) الانفال: ٥٨.

(٤) النور: ٧.

(٥) الكهف: ٥٤.

كفر اعتقاد وإنما كفر عملي، وذلك: «أَنَّ أَحَدَهُم سَأَلَ الإِمَامَ عليه السلام: كَيفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤتُمِنَ خَانَ، قَالَ: هُو فِي أَدْنَى دَرَجَةٍ مِنَ الكُفْرِ، وَلَيسَ بِكَافِرٍ». فإنه وإن كان يتشهد الشهادتين وهذا يبقيه على إسلامه. لكن اجتماع هذه الصفات فيه، يجعله أقرب شيء إلى أن يكون كافرًا؛ وإن لم يكن كافرا كفرا عقيديا [1].

---

(١) الكليني؛ الكافي ٢/ ٣٨٩ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل قال عليه السلام:

الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه فمنها: كفر الجحود، والجحود على وجهين، والكفر بترك ما أمر الله، وكفر البراءة، وكفر النعم. فأما كفر الجحود فهو الجحود بالربوبية وهو قول من يقول: لا رب ولا جنة ولا نار وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم: الدهرية وهم الذين يقولون .

(وما يهلكنا إلا الدهر) وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان على غير تثبت منهم ولا تحقيق لشيء مما يقولون.. وقال: (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون). يعني بتوحيد الله تعالى فهذا أحد وجوه الكفر.

وأما الوجه الآخر من الجحود على معرفة وهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنه حق قد استقر عنده وقد قال الله عز وجل: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا..﴾ وقال الله عز وجل: ﴿.. وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ فهذا تفسير وجهي الجحود.

والوجه الثالث من الكفر كفر النعم وذلك قوله تعالى يحكي قول سليمان عليه السلام: ﴿.. هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ وقال: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾.

وقال: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ والوجه الرابع من الكفر ترك ما أمر الله عز وجل به وهو قول الله عز وجل: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون * ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم..﴾، فكفرهم بترك ما أمر الله عز وجل به ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده فقال: ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾.

إن مثل هذه الأحاديث، ينبغي أن تغير نظرة الإنسان إلى اتصافه بالإسلام. فقسم من الناس لا يجعلون الاتصاف بالصفات والالتزام بالأعمال، تصديقًا للعنوان. فالمسلم عندهم من يكون من أبوين مسلمين أو من أب مسلم! أو أنه يتشهد الشهادتين!. لكن جاءت مثل هذه الأحاديث لتصحح النظرة وتقول لنا: إنه وإن زعم أنه مسلم، وإن صلى وصام، إلا أنه مع اجتماع تلك الصفات، لا يكون مسلما حقيقيا، وإنما يعد في جملة المنافقين بل يكون أقرب درجة إلى الكافرين!.

وقد سبق لنا ذكر الصور المتعددة التي تتبلور فيها الخيانة، وقلنا إن هذه الصور وإن تعددت، إلا أن أساسها: أن الإنسان الخائن خالف مقتضى الأمانة في العمل الموكل إليه، المال الذي أؤتمن عليه. وأما الأساليب والوسائل في ذلك فلا مجال لحصرها (لاجتهاد) القائمين بها في اجتراح الطرق، والالتواء على مقتضيات الأمانة! ولكن قد يكون القائم بها هو أول العارفين بأن عمله ذلك غير مشروع وإن كان يحاول أن يوجد لنفسه تبريرا أو عذرا يسكت به نداء ضميره إن كان لا يزال فيه بقية يقظة! وربما حاول أن يستفتي هنا وهناك لكي يجد أحدا يسوغ له فعله!

وهذه الصفحات تتناول بعض نماذج الخيانة في المال والأعمال:

١. ما قد يُبتلى به بعض مسؤولي التسويق والشراء في الشركات؛ مثلا يعطَى هذا مبلغًا من المال ولنفترض أنه ١٠٠ ألف، ويقال له نريد منك أن تشتري كاميرات مثلا، أو أنوار، أو أنابيب أو غيرها، ولنفترض أن الشركة تحتاج إلى

والوجه الخامس من الكفر كفر البراءة وذلك قوله عز وجل يحكي قول إبراهيم ﷺ: ﴿.. كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده..﴾ يعني تبرأنا منكم، وقال يذكر إبليس وتبرئته من أوليائه من الإنس يوم القيامة: ﴿.. إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾.

وقال: ﴿.. إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا..﴾ يعني يتبرأ بعضكم من بعض.

ألف (وحدة) فيذهب هذا إلى السوق ويجد قسمين؛ أحدهما بعشرة والآخر بكفاءة أقل بخمسة، فيشتري الثاني ويحسبه بقيمة الأول ويعتبر الزائد من حقه!! وهذا الشخص يخون مرتين في أخذه المال يكون خائنًا لمن وكله في الشراء، وفي شراء الجهاز غير الكفوء[١]!

وذلك لأنه وهو الوكيل من طرف الشركة لم يكن أمينًا ولم يلاحظ مصلحة الموكل له، وفوق ذلك أخذ الزيادة لنفسه وهو أخذ بالباطل!.

ومثله ـ أو أسوأ منه ـ من يشتري شيئا لجهة العمل، ويكون قيمته بخمسة، فيتفق مع البائع أن يكتب له الفاتورة أن السعر هو بسبعة مثلا، ويأخذ هو الاثنين، فهذه خيانة صلعاء! إذ الفاتورة لا تحلل الحرام. وليكتب عشر فواتير فالحرام باق على حرمته، وهذه سرقة للمال! وخيانة لصاحب المال!

٢. ما قد يبتلى به مسؤولو الرقابة ومن بيدهم التقارير: من مهندس، أو مشرف، أو أمثالهم.. وطبيعة عملهم أن يمارسوا دورًا إشرافيًا ويقيّموا العمل: هل هذا المقاول أو الشركة نفذت المشروع بحسب المواصفات أو لا. فإذا رأى تبليط الشارع مثلا ليس بحسب المواصفات، لا بنية تحتية، ولا تصريف، ولا استقامة، ولا جودة في المادة المستخدمة: هنا تتبين أمانته أو خيانته.

يقول له المقاول أو مدير الشركة: «حقك محفوظ».[٢](!) وهو عارف بتلك

---

(١) هذا إذا كان وكيلا في الشراء كما هو الفرض، نعم يستطيع هو أن يصنع شيئا آخر بأن يتفق مع جهة الشركة بأني أدبر لكم هذا الجهاز بهذه المواصفات بعشرة، ويذهب يشتريه بما دون ذلك ثم يبيعه للشركة بمبلغ العشرة.. ففي هذه الحالة يجوز، حيث لم يكن وكيلا عن الشركة وإنما هو مشتر من جهة وبائع من جهة أخرى.

(٢) العجيب أنهم يتعاملون على أساس أن له حقا، وأنه محفوظ! ومن الذي أوجب له هذا الحق؟ فإن كان غرامة فليس له وإنما لجهة رسمية! وإن كان غير ذلك فما هو؟ أو أن يقال لا يخدم بخيل! وهذا العمل

الشفرة. أو يقول له الكلمة الخائنة المعروفة: «لا يُخدَم بخيل». ومعنى ذلك أن تكتب التقرير بما هو مخالف للحقيقة من كون المشروع غير صالح، وأن الانجاز سيء، فتكتبه على خلاف ذلك! وفي مقابله تربح مالًا! فيدبج هذا تقريره الكاذب، ويأخذ ثمن ذلك! إن هذه خيانة في العمل! ولا يحل له تملك ذلك المال! هو حرام عليه!

وللأسف فإن بلادنا المسلمة أصبحت مضرب المثل في الفساد الاداري، والذي هو تعبير في غالبه عن خيانة العاملين لمقتضى الأمانة في أعمالهم.. فترى لهذا السبب ما أن تهطل السماء برشة مطر حتى تظهر الفضائح، وإذا بالميزانيات المليارية ـ لا المليونية ـ تتكشف عن أوضاع بائسة! وبمقارنتها ببلاد أخرى تجد أنها لم تصرف على مشاريعها حتى عشرة بالمائة مما أنفق في بلادنا المسلمة، ومع ذلك تتعايش مع المطر طوال السنة من دون مشكلة! لصدق العاملين وشدة الرقابة على التنفيذ! ونحن تتحول الأحياء إلى بحيرات، والشوارع السريعة إلى سيول وتجرف المنازل!

وأمر مدراء المؤسسات والمراكز والشركات أكثر تعقيدًا، لأن امكانات الخيانة وفرصها كبيرة جدًا، والقدرة على التستر أسهل إلا من عصم بدين و﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ أو ضمير يقظ، وعرف أن سمعته الأخلاقية، هي قيمة الحياة التي ترخص دونها مئات الملايين، وأنه لا يستطيع أن يتصور نفسه يومًا ما قد قبض عليه بتهمة الخيانة لمنصبه أو المال، وأنه يقف أمام القانون لمواجهة الحكم عليه!!

إن إمكانات الخيانة من جهة وسهولة التستر عليها لعدم وجود جهات تفتيش أو

ليس خدمة! إن الموظف الذي يستلم راتبا في قبال اشرافه يجب أن يكون أمينا على عمله وإلا فلا يستحق الراتب الذي يستلمه!

عدم جدية الموجود بل وكون السرقة والاستحواذ هي القاعدة التي يتعامل بها عادة من (هم فوق / أو واصلون) وأنه لا بد أن يمشي مع هؤلاء (فيأكل ويؤكّل غيره) من المال العام، هذا كلها يجعل من اليسير على البعض استمراء الخيانة والتعود عليها حتى لو كان أول أمره مستقيمًا!

لقد نقل أحدهم عن بلد مسلم أنه كان في مدينة منه مستشفى ولأسباب مختلفة تصدع هذا المستشفى ولم يعد صالحًا للعلاج، وأفرغ من أطبائه وأجهزته، ولم يعد يستقبل المرضى! إلا أنه بعد اثنتي عشرة سنة من هذا التاريخ لاحظ أحد أبناء تلك المدينة -وعن طريق الصدفة- أن ميزانية هذا المستشفى كان لا يزال يستلمها المدير من الدولة، ويقدم قوائم برواتب للأطباء، والممرضات، وشراء الأجهزة! وتكاليف سيارات النقل والاسعاف.. وغير ذلك مما يعد بالملايين خلال هذه السنوات، والحال أن المستشفى لم يكن فيه أحد خلال هذه المدة! وكل سنة يستلم ذلك المدير ميزانيته عدًّا ونقدًا! فيأكل في بطنه من تلك النار والحرام!

وفي بلد مسلم آخر، أزكمت الأنوف رائحة ما سمي بفضيحة السونار-إن صحت- وذلك أنه مع تصاعد التفجيرات في ذلك البلد كانوا يحتاجون لجهاز يدوي يكشف وجود متفجرات في السيارات العابرة، وطريقة عمله أنه مع وجود (أو الاشتباه بوجود) متفجرات في السيارة يعطي إشارة بميلان الهوائي إلى جهتها، وقامت جهة بعقد صفقة مع شركة غير معروفة، وفي المقابل استلمت نصيبها الخاص من الشركة تلك في مقابل ارساء الصفقة معها، ليكتشف بعد عدة سنوات، وبعد أن تزايدت التفجيرات مع مرور السيارات المتفجرة من نفس هذه النقاط! ليكتشف بعد ذلك أن هذا الجهاز لا يعدو لعبة من الألعاب، ولا يكتشف شيئًا! وأنه لا يساوي عشر معشار القيمة المحسوبة له.

إن هذه الخيانة لم تكن ذات بعد واحد وهو البعد المالي، وإن كان حراما إلا أن فيها بعدا أعظم وهو فقدان المئات من المسلمين حياتهم، على أثر دخول السيارات المفخخة التي لا يكتشفها ذلك الجهاز المغشوش وموت هؤلاء الضحايا المطمئنين إلى أن منطقتهم منطقة آمنة!! ولا ريب أن من غش في هذا وخان الأمانة وأكل المال الحرام بسبب ذلك سيوقف على منصة الحساب الالهي يوم القيامة!

٣. والخيانة في العمل قد تصعد خطورتها إلى مستوى فقد الأبرياء لحياتهم أو أعضائهم أو أموالهم، مثلما لو كان مهندس يغش ويخون في المقادير لكي يوفر على نفسه أو على من يتفق معه، ويربح من وراء ذلك مقدارًا من المال، فيكتب التقرير أو يمضي العمل، حتى لا تمضي غير فترة قصيرة، ينتهي الأمر بالبناية أو البيت أن يسقط على رؤوس ساكنيه!

والمشكلة الأكبر في تقديرنا ليست هي الخيانة والسرقة فقط، وإن جلت وعظمت، وإنما بالإضافة لذلك هي ثقافة مدح الخيانة.. طبعا لا يقوم أصحابها بالقول إن الخيانة حسنة! فلا أحد يقبل ذلك! وإنما يغيرون عنوانها، فيقال هذه شطارة.. ويقال لصاحب المنصب الجديد: خليك شاطر! او تعلّم من أين تؤكل الكتف! وأن فلان استطاع خلال فترة قصيرة أن يصنع له ثروة عظيمة! وفي هذا من التلميح ما يغني عن التصريحات!

مع أن تغيير العنوان لا يغير من الواقع شيئًا، الخيانة وأخذ ما ليس بحق يبقى خيانة وسرقة وأمرًا محرمًا، ولو وضعت عليه عشرات اللافتات! وأكل الكتف إن كان حلالًا ومن مالك فهو ممدوح! وإن لم يكن كذلك فهو عمل محرم وقبيح وسرقة.. ولا يختلف عن عمل اللصوص في شيء! وبناء الثروة إن كان من خلال الجهد والكسب النظيف فهو ممتاز ويثنى على صاحبه ويقدم كنموذج، وأما لو كان

بالطرق الملتوية، والدروب المحرمة، وأكل ما ليس بحق فهو كسابقه في الحرمة واللصوصية!

٤. هل من الممكن أن نتورط في خيانة الأعمال مع أننا لسنا مدراء ولا أصحاب شركات ولا وكلاء تسويق؟ الجواب: نعم! كل شخص من الممكن أن يكون وفيًا بعقده مع جهة عمله ومن الممكن أن يكون خائنًا! فإذا كان الاتفاق بيني وبين جهة عملي أن أكون في محل الدوام والعمل ما بين الثامنة صباحًا إلى الثانية ظهرًا.. لكني آتي للعمل في التاسعة وأخرج بعد الصلاة في الثانية عشر لجلب الأولاد من المدارس ثم حيث لم يبق إلا القليل من الوقت لا يستحق الأمر الرجوع إلى مقر العمل، فأتركه.. هذا مع تخلل وجبة الافطار والشاي وما يتبع ذلك أثناء هذه الفترة ولا ينسى أيضًا فترة الصلاة وما قبلها من الاستعداد لها! سوف ترى أن هذا الإنسان لا يفي بأكثر من ٥٠٪ من عقد عمله! ومع ذلك يريد أن يستلم راتبه كاملًا ولو نقص منه ريال واحد أقام الدنيا ولم يقعدها!

ألا يعد هذا من خيانة العهد والعقد الموقِّع؟ وخصوصا إذا كان الأمر يرتبط بإنجاز حاجات المسلمين وقضاياهم!

إن مثل هذا بحسب القواعد لا يأكل ماله بالحق وإنما يأكل بالباطل. والقرآن الكريم يقول ﴿لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ والأعجب حين يتصور هذا الموظف نفسه متفضلًا على من يراجعه، بأنه سينجز معاملته! والحال أن من يراجعه هو المتفضل عليه، فلولا حاجات الناس هذه لما كان لهذا الموظف عمل يدر عليه المال، ويحميه من البطالة! وأقرب كلمة على لسان البعض منهم: راجعني غدًا. أو بعد اسبوع! مع أنه لا يحق له ذلك شرعا! الواجب عليه أن يؤدي عمل هذا المراجع

ما دام ليس مشغولًا بعمل أسبق منه أو أهم منه! وأما لأنه لا يريد اليوم إنجازه وإنما يريد فعل ذلك غدًا مع وجود وقت لديه، وإمكانية في القيام به، فهذا أيضًا يحرم عليه! وهو خيانة للعقد الموقع بينه وبين طرف العمل.

وللأسف نلاحظ هذه العادات السيئة عند بعض الموظفين! وكأنه يمُنُّ على من يراجعه عندما يقوم بعمله! أو حتى يطلب من بعض الناس مالًا في مقابل القيام بذلك العمل! فإنه يأخذ هذا المال حرامًا وسحتًا!

إن من الخيانة: عدم الالتزام بالعقد الموقع بين الطرفين، بأن لا يكون في العمل في الزمان المحدد[١]! ومن الخيانة أن يعمل الموظف المتعاقد مع جهة في عدة أماكن في نفس الوقت، فيوزع وقته على الأماكن المتعددة بالنصف أو الثلث مع أنه يستلم كامل الأجرة لكامل الوقت عن كل مكان وموقع! فتراه موظفا في البلدية يفترض أن يكون من الصباح إلى ما بعد الظهر، وهو أيضًا يعمل في مكتب هندسي أو عقاري ـ في نفس الفترة الزمنية ـ وهو في مكان ثالث، فيوزع فترة العمل تلك على الأماكن الثلاثة، ويستلم منهم راتبا كاملا.. هذا من الخيانة[٢]!

٥. ومن الخيانة: تضييع ما ولي عليه الإنسان وعدم إدارته إدارة حسنة، والتضييع هنا قد أخذ فيه جانب التعمد، فلو لم يحصل تعمد في ذلك فقد لا يعد

---

(١) ذكر عن أحدهم أنه مع كونه مسؤولا في دائرة مرتبطة بخدمات الناس، إلا أنه لا يترك فاتحة في الصباح في منطقته وقت دوامه إلا وقد حضرها، وهذا من عمى الألوان في حقيقته! فهو لا يترك المستحب الاجتماعي وهو الذهاب لتعزية أهل المتوفى تحديدا في ذلك الوقت، بينما يترك الواجب القانوني الذي يلزمه به العقد والأخلاقي الذي تلزمه به المسؤولية الاجتماعية في قضاء حاجات الناس.

(٢) بالطبع لو كان الاتفاق بينه وبين كل مكان على الوقت بأن يكون عاملا في هذه الفترة الزمنية، أما لو كان الاتفاق على العمل بأن يؤدي أعمالا معينة، وأمكنه القيام بها كلها فلا مشكلة. وكذا لو كانت طبيعة عمله استشارية.

خيانة.. نعم الاهمال وعدم المراقبة، وترك الأمور سائبة مع القدرة على تغييرها وتحسينها، هو كالخيانة. وقد يشير إلى هذا المعنى ما رواه أحدهم عن الإمام الصادق قال: «نَظَرْتُ إِلَى الإِمَامِ الصَّادِقِ عليه السلام وَهُوَ يُحَاسِبُ وَكِيلًا لَهُ وَكَانَ الوَكِيلُ يَكْثُرُ مِنْ قَوْلِ: وَاللهِ مَا خُنْتُ»، فقال له: «يَا هَذَا خِيَانَتُكَ وَتَضْيِيعُكَ عَلَيَّ مَالِي سَوَاءٌ»[1].

وسيأتي تفصيل ذلك.

---

(١) الكليني؛ الكافي ٥/ ٣٠٤.

أولياء السلطان والأوقاف.. أمانة أو خيانة؟

﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1].

قد صنفنا الخيانة إلى أصناف، منها: الخيانة في الولايات: بمعنى أن يتولى الإنسان ولاية صغيرة أو كبيرة، ثم لا يقوم بشأنها ولا يؤدي ما وجب عليه فيها متعمدًا، هذا يعد خائنًا لمقتضى ولايته تلك.

وأبرز الخيانات وأخطرها في الولايات، تلك التي تصدرعن بعض السلاطين الحاكمين في حق الأمة. ولذا ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أَعْظَمُ الخِيَانَةِ: خِيَانَةُ الأُمَّةِ»[2]. ومن يستطيع خيانة الأمة بهذا العنوان العريض، ليس ذلك الرجل العادي المغمور فإن مستواه ودائرة تأثيره لا تكون كبيرة، وإنما هم السلاطين والحكام الفاسدون الذين يستطيعون أن يهدموا مجد الأمة! ويفسدوا شعبها بالكامل!

إن القاعدة أن الخليفة أو الحاكم أو السلطان ورئيس البلاد قد أخذ عليه –ضمنًا– أن يكون حاميًا للبلاد وحافظًا لثرواتها، وسواء كان تعيين هذا الحاكم بتنصيب إلهي أو

---

(١) يوسف: ٥٥.

(٢) الإمام علي؛ نهج البلاغة ٣/ ٢٧.

ديني، أو كان بتنصيب بشري، كانتخاب الشعب أو أغلبيته له، أو كان بتراض اجتماعي فإنه قد أخذ عليه إما بشكل صريح ومباشر أو ضمني أن يكون أمينًا على من استخلف عليهم، وعلى من يدير شؤونهم أن يحمي الأموال كما يحفظ الاستقلال. وأول حمايته أموال الأمة واستقلالها ألّا يحتجب الأموال لنفسه وقراباته وإلا كان خائنًا!

لقد أشار أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام إشارة في غاية التعبير، فإنه عندما انتهت حرب الجمل بانتصاره على الناكثين وأراد العودة من البصرة إلى الكوفة. قام في أهل البصرة، وقال لهم: «مَا تَنْقِمُونَ عَلَيَّ يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ»، أي بمساعدتكم الخارجين علي؟ ثم أشار إلى قميصه وردائه، وقال: «فَوَاللهِ لَهُمَا مِنْ غَزْلِ أَهْلِي». ثم أشار إلى صرة في يده فيها نفقته، وقال: «وَاللهِ مَا هِيَ إِلَّا مِنْ غِلَّتِي بِالْمَدِينَةِ». يعني هي من أموالي الشخصية. «فَإِنْ أَنَا خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكُم بِأَكْثَرَ مِمَّا تَرَوْنَ، فَأَنَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْخَائِنِينَ»[١].

هذا مع أنه قائد منتصر على الخارجين عليه، ولو كان غيره لملأ غرائر جيشه وجيوب جنوده من غنائم المهزومين! ولهذا فإنه عندما حضرته المنية بعد ضربة ابن ملجم كان «مَا تَرَكَ صَفْرَاءَ وَلا بَيْضَاءَ. إِلا سَبْعَمِائَةِ دِرْهَم فَضَلَتْ مِنْ عَطَائِهِ أَرَادَ أَنْ يَشْتَرِيَ بِهَا خَادِمًا»[٢] كما قال ابنه الإمام الحسن عليه السلام في تأبينه!

هذا مع أنه كان في ذلك الوقت حاكما على دولة بمقاييس هذا الزمان تحتوي على عشرات الدول! وكان خمس بعض مناطقها يقدر بالملايين!

وخيانة الأمة قد تتصور بصور متعددة، فإن تسليم استقلالها وتضييع مستقبلها

(١) المجلسي؛ محمد باقر: بحار الأنوار ٤٠/ ٣٢٥.

(٢) ابن سعد؛ محمد : الطبقات الكبرى – ط العلمية ٣ / ٢٨.

برهنها بمعاهدات مجحفة[1] مع دول أخر هو من أوضح أنحاء الخيانة، وفي تاريخنا الحديث رأينا كيف أن بعض قادة المسلمين قد ضيعوا أراضي مسلمة وسلموها لأعداء المسلمين إما لضعف وجبن في قلوبهم أو لمصالح كانت تلحقهم في ذلك!

ومن ذلك اعتبار أن خزينة الدولة هي ملك السلطان والرئيس فليس عليه سوى أن يصدر مرسوما بأن يعطي فلانا كذا من المال، من دون أن ينتظر مناقشة من أحد ولا مساءلة من جهة! وكما قال أحد ملوك أوربا: أنا الدولة والدولة أنا!.

وفي درجة دونها عندما يقوم بعض أصحاب السلطة بتقنين قوانين تسمح بمصادرة أموال الأمة، لأشخاصهم أو من يقرب منهم! لقد ذكروا أن مجلسًا للنواب في إحدى الدول الاسلامية، لم يكن يكتمل فيه النصاب، لغياب الكثير من أعضائه (والغياب نحو من الخيانة في الولاية والعمل) إلا في جلسة هي تلك التي كان قد أعلن فيها أنه سيتم مناقشة رفع رواتب ومخصصات النواب أنفسهم! وأسفرت تلك الجلسة التي كان الحضور فيها شبيهًا بالاجماع! عن مجزرة مالية (!) لميزانية الدولة، وأعلن بعدها بأن أعلى راتب مالي في التاريخ السياسي للنواب في العالم هو ما يستلمه أولئك النواب لقاء الحضور (أو عدم الحضور) في عدة جلسات في الاسبوع هذا في الوقت الذي كان عامة الناس في ذلك البلد يعانون ازمات اقتصادية متنوعة من البطالة وقلة العناية الصحية وتعيش البلاد سوءا متناهيا في البنية التحتية!.

---

(١) آل سيف؛ فوزي: من أعلام الإمامية / ٣٢٦..تقدم البريطانيون في سنة ١٣٠٨هـ بمشروع اتفاقية مع ناصر الدين شاه القاجاري، يقضي بأن يكون محصول التبغ في إيران بكامله محتكرا في بيعه وشرائه للشركات البريطانية على أن تتولى تلك الشركة بيعه وتصديره لمدة خمسين سنة!. وكان التبغ آنئذ هو المحصول الزراعي الأساسي في اقتصاد البلد. وفي مقابل ذلك يضمن البريطانيون لناصر الدين شاه مبلغ (١٥) ألف ليرة ذهبية في السنة! وهذا يعني (١٢٥٠) ليرة في الشهر. الأمر الذي يستطيع بعض التجار إعطاءه كما ذكر له التجار ذلك!

وبمقارنة بسيطة بين ما يذكر في رواتب رؤساء الدول الغربية وبين نظرائهم في بلاد المسلمين يتبين هول المقارنة!

الخيانة في الولاية على الأوقاف.

إذا كان من غير المبتلى به لأكثر الناس أن يكونوا في موضع السلطة والرئاسة فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة للولاية على الأوقاف، فإن الكثير من الناس يمكن أن يبتلى به، وهنا أيضًا يكمن شيطان الخيانة!

إن من المعلوم أن الوقف هو من الأمور الخيرية والبرية التي يُندب إليها ويستحب فعلها في التشريع الإسلامي، بالإضافة إلى أنها ممارسة اجتماعية شائعة، فمن الشائع أن ترى أهل الخير يوقف أحدهم أرضًا، أو بناء، أو بستانًا أو عينًا جارية وهكذا.. مما فيه نحو ثبات واستمرار في العين الموقوفة[1]، وتجدد في المنفعة والفائدة المترتبة عليها.

فلو أوقف إنسان أرضًا لكي يصرف عائدها على الفقراء، وأجريت الصيغة، وتم القبض في موارد الإقباض. فهنا لا مجال للتغيير في هذا الوقف، حتى من قبل نفس الواقف، والتغيير هنا والتبديل مما ينطبق عليه قول الله تعالى ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

ولا يستطيع لا الواقف ولا غيره أن يجتهد في هذا مثلًا بأن يقول سأوجه المصرف إلى مؤسسة دينية! أو إلى مجلس عزاء الحسين أو إلى تأسيس مدرسة أو ما شابه! بل لا يمكن الإضافة إليه بأن يقال مثلًا سنعطي الفقراء نصف العائد ونؤسس مكتبة

---

(١) هناك خلاف فقهي في إمكان وقف الأموال (بمعنى النقد) والرأي المشهور عدم صحة ذلك.

(٢) البقرة:١٨١.

بالنصف الثاني.. وكذلك أيضًا لا يجوز بيعه أو تبديله إلا في موارد محددة[1].

ومن الطبيعي أن يكون ولي على الوقف إما بتعيين الواقف أو بتنصيب الحاكم الشرعي الفقيه المجتهد فيما لا ولي له وحين ولي شخص الوقف، فإن لذلك ضوابط معينة لو تجاوزها فإنه بذلك يكون خائنا لمقتضى الولاية. فلو كان منصوبًا بشخصه دون أن يكون له حق التنصيب والتولية فإن من الخيانة تولية آخرين كأولاده مثلا، من دون الرجوع إلى من له حق تعيين الولي وتنصيبه. فلو عجز عن القيام بشؤون الولاية فإن عليه أن يرجع إلى الواقف إن كان موجودًا أو الحاكم الشرعي إن فقد الواقف ولم يكن هناك نص في الوقفية يعين الولي، ولا يستطيع أن يتصرف من تلقاء نفسه في التعيين والنصب.

كذلك فإن من المفروض أن يتم استثمار ذلك الوقف، بالنحو الأحسن وأن تنمى موارده حتى تصرف في جهات مصارفه. فإن أحسن الوالي الولاية - كما هي سيرة المؤمنين- فنعما هي، وأما لو - لا سمح الله - خالف ذلك مثلما يفعل بعض غير الملتزمين، فهو خائن.. ومن تلك الصور المخالفة:

١. تحويل الوقف إلى ملك شخصي، وهو حرامٌ شرعًا. وربما تحصل حالات للأسف في هذا، فيأتي قائلًا: أنا لا أفهم معنى الوقف على الإمام

---

(١) السيستاني؛ السيد علي: منهاج الصالحين ٢/ ٣٦: لا يجوز بيع الوقف إلا في موارد: منها: أن يخرب بحيث لا يمكن الانتفاع به في جهة الوقف مع بقاء عينه، كالحيوان المذبوح، والجذع البالي، والحصير المخرق. ومنها: أن يخرب على نحو يسقط عن الانتفاع المعتد به، مع كونه ذا منفعة يسيرة ملحقة بالمعدوم عرفا. ومنها: ما إذا اشترط الواقف بيعه عند حدوث أمر، من قلة المنفعة أو كثرة الخراج، أو كون بيعه أنفع، أو وقوع خلاف بين الموقوف عليهم أو احتياجهم إلى عوضه، أو نحو ذلك. ومنها: ما إذا طرأ ما يستوجب أن يؤدي بقاؤه إلى الخراب المسقط له عن المنفعة المعتد بها عرفا، واللازم حينئذ تأخير البيع إلى آخر أزمنة امكان البقاء.

الحسين[١]..؟ وفي الأماكن المختلطة مذهبيًا، إذا كان التوثيق الرسمي للأملاك بيد اشخاص لا يعتقدون ولا يعترفون بخصوصية الفقه الجعفري، فإن بعضهم ـ يغري غير الملتزمين بتحويل الأوقاف من هذا النوع إلى أملاك شخصية! فيقول له: ائتني بشاهدين يشهدان أن هذا البستان لك! ويكتب له صكًّا بتملكه إيّاه!.

إن مثل هذا العمل يبقى حرامًا ولو اجتمعت محاكم الدنيا كلها وأصدرت صكوكَ تملكٍ له فلا ينفع ذلك في جعله حلالًا من الناحية الشرعية. كما أن عشرات الشهود لا تنفع في تحويل ما هو معلوم الوقفية إلى ملك شخصي. بل ولو تقادم الأمر، وكان قد حصل في زمان آباء الأجداد، فالوقف باق على وقفيته، وسكن هذا الشخص فيه خلال هذه المدة باعتباره ملكًا أمر محرم، وفيه ضمان الأجرة أيضًا! بل والقيام بالأعمال العبادية فيه كالصلاة ونحوها مع العلم بكونه وقفًا غير مأذون فيه، تعتبر باطلة.

٢. ومن أنحاء الخيانة في الأوقاف: تغيير المصرف، فلو فرضنا أن الواقف كان قد أوقفه على مجالس الحسين، وحصلت حاجة اجتماعية من اعطاء فقراء أو الصرف على يتامى أو علاج مرضى أو غير ذلك، فلا يجوز أن تصرف عوائد ذلك الوقف إلى هذه المصارف بل حتى لو كان بنية صالحة. وبفكرة في ظاهرها نافعة، مثلما قال أحدهم: إن الإطعام في بلادنا هذه الفترة كثير، في يوم عاشوراء، وأيام شهادة الأئمة المعصومين ﰈ، فلماذا لا نصرف عوائد هذه الأوقاف الحسينية في شراء الدواء للفقراء؟. وهذا الكلام بظاهره جيد. ولكنه من الناحية الشرعية لا يساوي شيئًا. ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ

(١) في المجتمع الشيعي يوقف المؤمنون أوقافا إما لقراءة التعزية أو ذكرى ميلاد المعصوم أو للاطعام في أيام ذكراه أو غير ذلك، وهو مشروع عند الإمامية.

فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾[١]. الأمر بعدما صار وقفًا في جهة معينة، كما قلنا، لا يصح تغييره ولا تبديله.

نعم، لو انتفى ـ لسبب من الأسباب ـ مورد الصرف في الوقف، بحيث لم يبق لذلك المورد محل للصرف فيه. هنا حتى ولي الوقف لا يستطيع أن يجتهد من تلقاء نفسه بتوجيه المصرف إلى حيث يشاء بل لا بد من استشارة الحاكم الشرعي المجتهد، لكي يقرر صرفه في أقرب الموارد إلى مراد الواقف.

فمن الخيانة تغيير مصارف الوقف وتبديلها في غير الموارد المجازة شرعا والتي هي خاضعة لنظر الفقيه بشكل دقيق وحاد.

٣. الإهمال والتفريط قد يرقى في بعض الحالات إلى الخيانة. فمع أن إدارة المشاريع والأعمال تختلف من شخص إلى آخر، ودرجات الإهمال والتفريط قد يكون لها أسباب مختلفة. وفي بعضها لا يمكن فعل شيء حاسم، فإن إدارة بعض كبار السن والذين تعودوا على الطرق القديمة في الأمور تختلف كثيرا عن طريقة إدارة المتعلمين ولا سيما المتخصصين في إدارة المشاريع التجارية والاستثمارية، إلا أن هذا قد لا تستطيع أن تصنع فيه شيئا غير النصيحة، ومحاولة ضم استشاريين متولي الوقف! إلا أن بعض الحالات من الاهمال والتقصير قد يبلغ درك الخيانة (لا درجتها). وتراه لا يتعامل بهذا النحو مع أمواله الشخصية، فهذا ليس أمينا وإنما كما قال الإمام الصادق عليه السلام فيما مر من الحديث عنه مع وكيله (خيانتك تضييعك مالي سواء). على أن الشخص حر في ماله، سواء نماه واستثمره أو ضيعه وأتلفه لكن ليس لولي الوقف ذلك في الوقف! فقد أخذ عليه ضمنًا أن يرعاه بنحو

---

(١) البقرة: ١٨١.

حسن! وهذا هو مقتضى ولايته عليه!

٤. ومن أنحاء الخيانة أيضًا تعمد تأخير العوائد عن مصرفها من غير مبرر، فإذا كان لدى ولي الوقف أموال الأوقاف ولكنه بدل أن يصرفها في مصارفها الموجودة، جعلها كحسابات وأرقام في البنوك، فهذا مع التعمد وعدم وجود المبرر يعد خيانة للولاية، فإن الواقف إنما أوقف هذا المكان أو الأرض من أجل قضاء الحاجات التي كانت سببًا في وقفه ما يملك، لا من أجل أن يستفيد البنك منها. هل من الصحيح أن الفقير الذي يوجد رصيد له في البنك لو صرف عليه لما احتاج، بينما تراه يذهب لهذا وذاك ليسألهم المساعدة والمعونة.. وتراه:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول؟

وهل يصح أن يكون تبليغ دين الله وأحكامه متوقفًا إلى حد أن بعض الناس يجهلون ماذا تعني سورة الاخلاص[1]! بينما هناك أوقاف مصرفها التبليغ ولها عوائد ضخمة مجمدة في البنوك التي تستثمرها في أعمال ربوية في الغالب؟ وهكذا بينما تكثر الأوقاف في جهة الإمام الحسين عليه السلام من قبل المؤمنين تجد أن الكثير من غير شيعة أهل البيت من المسلمين لا يزالون جاهلين بنهضته وحركته! فضلًا عن غير المسلمين الذين لا يعرفونه أصلًا! حتى قال أحد الظرفاء إن بعض أولياء الأوقاف يعتقدون أن الأموال التي لديهم، مصرفها هو البنوك الربوية التي توضع فيها لذلك ابقوها فيها!

(١) في مقابلة طريقة أجراها أحدهم مع عينات مختلفة من الشباب في بلد مسلم عن اسم اغنية هل يحفظونها؟ وبينما ترنموا بها بكفاءة عالية سألهم عن سورة الاخلاص فكان الصمت والخطأ والتخبط هو الجواب عليه!

مع أن هناك خطورة ـ وربما قيل بوقوعها فعلًا ـ من أنه في بعض الحالات، حيث أن هذه الأموال مسجلة في حساب ولي الوقف في البنك، ويموت فجأة وحيث أنه لا يستطيع أن يوصي، أو يوصي وتضيع وصيته أو تخفى من قبل بعض الورثة، فإذا بهذه الأموال الوقفية تذهب إلى جيب الورثة!

الخيانة الزوجية

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

عند الحديث عن الخيانة الزوجية، أول ما يقفز إلى الذهن ما قصته سورة يوسف ولا سيما تلك اللحظة النهائية التي أنهت سلسلة من المقدمات والأجواء التي هيأتها وعبرتها امرأة العزيز الحاكمة في القصر؛ لكي تطلب الخيانة بشكل صريحٍ من نبي الله يوسف عليه السلام.

وفي قصة يوسف يلتقي القارئ المتدبر بمعان معبرة للغاية في كل آية، بل في كل كلمة. فإنه يحتاج إلى أن يطلق لفكره القدرة على التخيل، ولعقله التأمل لكي يصل إلى نتائج مهمة! فلاحظ أخي القارئ أختي القارئة؛ أن تلك الخيانة التي أحيطت بسرية تامة، وبمحاولات من الإحكام ألّا يطلع عليها حتى حجاب وحرس القصر، فضلًا عمّن هم خارجه وفضلًا عمن هو خارج ذلك الزمان. فهي -أي امرأة العزيز- هي بنفسها لا بخدمها التي باشرت، وغلّقت (ولم يقل أغلقت وفي التشديد اللفظي

---

(١) يوسف: ٢٣.

معنى تشديد الاغلاق) الأبواب، ولم يكن بابًا واحدا. مع أن الباب الواحد يكفي في الاستتار، مقتضى الجمع هنا أنها أبواب متعددة؛ احترازا واحتياطا. ثم أعربت بصراحة عن رغبتها. والوضع سري، ولا يوجد أحد ناظر، ولا أحد يعلم.

كل ذلك الاحتياط من أجل إتمام العملية بسرية تامة وخفاء كامل.. ولكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد فضيحة إنسان بخيانة، فلا تقتصر الفضيحة على معرفة الزوج فهذه مرحلة ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ بل انتقل الأمر إلى خارج حتى صار حديث مجالس نساء أهل المدينة: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾، لا بل عبر ذلك الزمان إلى كل زمان جاء بعده وإلى زماننا الآن، وإلى أن يبقى هذ القرآن.

يمر منذ أن وقعت الحادثة إلى زماننا ما يقرب من ثلاثة آلاف وستمائة سنة، وخلال هذه الفترة فإن مئات الملايين من البشر، عرفوا أن هذه المرأة قد حاولت الخيانة، مع سعيها الشديد في الاستتار. مما يبين أن من يرد الله فضيحته، لا يمكن لأحد أن يستره. لا ليل يستره، ولا زمان يخبئه، ولا باب يحفظه. ولا زمان يتقادم عليه!

وبالرغم من أن نتيجتها كانت نتيجة حسنة إلا أن دعوتها للخيانة بقيت رمزًا ثابتًا في التاريخ!

في المقابل، النموذج الأبرز في العفة والاعتصام، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، أحسن هذا الرب مثواي.. فمن هو الرب الذي أحسن مثوى يوسف النبي؟ هنا رأيان؛ ذكرهما المفسرون نشير إليهما، فإن البعض منهم قال: إن يوسف النبي يقصد عزيز مصر فإنه مالكه ومولاه، وقد أحسن مثواه، إذ أوصى زوجته بشدة العناية به، ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ وما دام كذلك فلا

يناسب أخلاقه أن يخون صاحب النعمة عليه في امرأته وداخل قصره الذي هو بيت أمان له.[١] وشاهد ذلك أنه في الموضعين استعمل القرآن كلمة (مثوى) ففي وصية العزيز قال: أكرمي مثواه، وهنا قال يوسف إنه أحسن مثواي!

بينما رأى مفسرون آخرون أن قوله ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، إشارة إلى الله سبحانه وتعالى، فإنه يؤمن بأنه ربه الذي أحسن مثواه، صحيح أن النبي يوسف قد عبر عن الملك تارة بالرب ولكنه لم ينسبه إلى نفسه، وإنما نسبه إلى من يخاطبه إما لأن من يخاطبه يعتقد كذلك أو لأنه ربه بمعنى رب النعمة عليه فقد قال للسجين المحرر: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، ولم يقل: اذكرني عند ربي.. فعندما يقول ربي يقصد رب الأرباب، وملك الملوك. فهو الرب الحقيقي الذي أحسن مثوى يوسف. وهو الذي انتجبه واجتباه، وهو الذي حفظه في البئر، وسخر له السيارة القادمين، وألقى محبته في قلب العزيز وحفظه من كل الشرور. هذا هو المحسن الحقيقي وأما باقي الأشخاص والأشياء فليست سوى أدوات ووسائل. ويمكن لهؤلاء المفسرين أن يستشهدوا بأن الموارد التي استعملها يوسف ناسبا الرب إليه إنما كانت في حق الله سبحانه وتعالى دون غيره[٢].

وقد يكون المعنى الثاني أوفق بالمعنى الديني وموقع النبي يوسف عليه السلام واعتقاداته وما ينتظر منه، وأن التزامه الأخلاقي في هذا المورد وغيره راجع إلى

---

(١) وممن ذهب إليه ابن جرير الطبري في تفسيره ١٦ / ٣٢وابن كثير في تفسيره ٤/ ٣٧٩.

(٢) وممن ذهب إليه العلامة الطباطبائي في الميزان ١١/ ١٢٥، فقال: على أنه عليه السلام لم يكن ليعد العزيز ربا لنفسه، وهو حر غير مملوك له وإن كان الناس يزعمون ذلك بناء على الظاهر، وقد قال لأحد صاحبيه في السجن: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾: الآية ٤٢ من السورة، وقال لرسول الملك: ﴿ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ﴾ الآية ٥١ من السورة ولم يعبر عن الملك بلفظ ربي على عادتهم في ذكر الملوك، وقال أيضا لرسول الملك: ﴿فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ حيث يأخذ الله سبحانه ربا لنفسه قبال ما يأخذ الملك ربا للرسول.

معرفته برهان ربه، وإيمانه بحياطة الله له وإنعامه عليه، وكونه تحت ولايته والذي يتجلى في ثنايا السور ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾(١) والمعنى الأول أوفق بالجانب الاجتماعي والأخلاقي العام.

ولعل الاشارة التي لا تخطئها العين هي أن القصة كأنها تريد القول: أن الخيانة ليست بنت الوسائل ولا الأزمنة المتأخرة، فإنه قد يتصور قسم من الناس، أن هذه الذنوب والخيانات هي نتاج أزمنتنا وترى العبارة الجاهزة ربما عند الجميع، القول: الآن بعد انتشار وسائل التواصل الاجتماعي كثرت الخيانات، والطلاق أما في الأيام السابقة لم تكن! وربما أطنبوا وبجّلوا في الأزمنة القديمة (الجميلة)! وكأنهم يريدون القول أن المشكلة هي في الوسائل والإمكانات. إلا أنها فكرة خاطئة بلا ريب. فالوسائل لا تتحرك ما لم تكن هناك نفس (أمارة بالسوء)، وربما يكون لهذا السبب تم التركيز على هذه القضية ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.

الخيانة الزوجية من قبل الزوج أو الزوجة موجودة في كل العصور. والوسائل ليست أسبابًا وإنما هي مسرعات ومبطئات. وإنما السبب الحقيقي في الخيانة: هو الغفلة عن مراقبة الله سبحانه وتعالى، وفكرة (إنه ربي). والبعد عن الالتزام الديني والأخلاقي. وهذا قد يوجد في زمان نبي الله يوسف، وقد يوجد في زمان الجاهلية -كما في قضية والدة زياد ابن أبيه-، وفي ما بعد الاسلام، أو في أزمنتنا الحاضرة.

لعل هذا يذكرنا بما أكدت عليه الروايات من أن من أهم الصفات التي ينبغي أن تراعى في اختيار الزوج لزوجته أن تحفظه في ماله ونفسها، فإذا كانت كذلك لم يختلف الحال عندها في أن يكون لديها انترنت أو أنها تعيش في العصور السابقة!

---

(١) يوسف : ١٠١.

وإذا لم تكن كذلك لم يكن عدم الوسائل حافظًا لها عن الخيانة! وهكذا الحال بالنسبة للزوج.

وينبغي أن نشير هنا ونؤكد على أن الخيانة كما قد تحصل من الزوجة، كذلك قد تحصل من الزوج، وهما في هذا في الاثم سواء! خلافا لما هو في بعض الثقافات الشعبية من أن خيانة الزوجة عظيمة لا تغسل بخلاف خيانة الرجل، فأمرها سهل! ولذلك ترى من يعتقد بها ربما يقتل المرأة[1] لو مارست خيانة.. بينما لا يفعل ذلك بالنسبة للرجل وذلك لعظمة خيانة المرأة عنده وسهولة خيانة الزوج.

ما هو خيانة وما ليس كذلك:

وهنا لا بد أن نستثني ما يكون من العلاقات سليما من الناحية الشرعية، ونحدد الخيانة بما إذا كانت خارج هذا التحديد، وذلك أن بعض النساء قد تعد إقدام زوجها على الزواج بأخرى خيانة لها، ومن الواضح أن هذا غير صحيح.. فلا يعد ذلك خيانة على المستوى الديني والشرعي! أو أن يتزوج زواجا مؤقتا ـ باعتباره جائزا عند الإمامية ـ فهذا لا يعد خيانة.. بالرغم أن الموقف الأولي لبعض الزوجات عندما تكتشف أيًّا من الأمرين السابقين تعد ذلك خيانة لها غير مغتفرة وتبادر إلى طلب الطلاق!

نقول: من الناحية الدينية والشرعية لا ينطبق تعريف الخيانة على ما ذُكر! ولا يعد الزوج خائنا في ذلك. لا نقول إن هذا العمل حسن أو قبيح، فهذا أمر آخر ولكن لا ينطبق عليه عنوان الخيانة التي نتحدث عنها! إن الخيانة المعدودة جرمًا في الدين

---

(١) يوجد في العالم العربي وأمثاله من المناطق المتخلفة، ما يسمى بجرائم الشرف، وهو قتل بعض أفراد الأسرة للمرأة التي قامت بالزنا والغريب أن بعض القوانين الرسمية تغطي هذا القتل وتخفف حكم القاتل.. وقد تعرضنا لذلك في كتابنا فقه العلاقات الاجتماعية.

هي ما كان فيها تعدٍّ على أحكام الله وتجاوزٌ لها، وما ذكر لا يتحقق فيه هذا الشرط.

مقدمات الخيانة:

لا يحدث أن يتم في أول مقابلة دعوة أحد الطرفين الآخرَ للممارسة الجنسية الكاملة والفراش! وإنما تمر الخيانة عادة بمسار قد يطول وقد يقصر، فإذا كان الشاعر في السابق يقول:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء!

فإن الأمر في هذا الزمان يمر عادة بالإعجاب، والمدح والثناء، فإذا رأى عدة أسطر كتبتها تلك المرأة فإنه يثني على ما كتبت وكأن أفلاطون قد بعث ليكتب المدينة الفاضلة في جزئها الثاني! ثم ليطلب المراسلة على الخاص، وهكذا كلما فتحت له كوة نافذة، صنع منها بابًا للدخول إلى أن يحب التعرف عليها مباشرة، وهكذا من المكان العام إلى المكان الخاص حتى يقع المحذور.. ولات حين مندم!

وبعض هؤلاء الخونة أو الخائنات، يستطيعون تحويل حتى اللقاء السياسي الجاد إلى طريقة لعقد العلاقة، والانتهاء للنهاية الجنسية!

لا للخلوة ولا المفاكهة:

إن من يعاين المشاكل التي يتورط فيها أهل الخطيئة يدرك بعمق لماذا كانت تعاليم الدين صارمة في منع المقدمات المهيئة للخيانة والانحراف! بدءًا من عزل الإنسان عن البيئة المشجعة على ذلك، مثل تحريم مشاهدة الأفلام الخليعة المهيجة للغرائز، ولا سيما تلك التي تبث ثقافة الخيانة الزوجية (١).

---

(١) راجت في فترة من الفترات، في عالمنا العربي الافلام المكسيكية المدبلجة والمترجمة التي حملت

ورفضت تعاليم الدين (مفاكهة النساء) لما يترتب عليها من خطوات لاحقة.. وبالرغم من أن بعضهم يتهمون أو يتهمن الدين وأهله بالتزمت هنا، إلا أن هؤلاء وغيرهم يعلمون أنه تلك المفاكهة في الغالب لا تكون بريئة وإنما هي أقرب إلى الطعم الذي يستنزل الطير إلى المصيدة! فقد ورد في الأحاديث:

(ومن فاكه امرأة لا يملكها حبس عن كل كلمة ألف عام في النار، والمرأة اذا طاوعت الرجل فالتزمها او قبلها او باشرها حرامًا او فاكهها او أصاب منها فاحشة فعليها من الوزر ما على الرجل)[1]. وكذلك فقد تم التحذير من التميع في الكلام والتغنج فيه مما يعد دعوة إلى بناء علاقة آثمة ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾[2] وهذا الخطاب وإن كان أوله وظاهره لنساء النبي لكنه ليس خاصًا بهن حتمًا بمعنى أنه لا يجوز لهن الخضوع بالقول لخوف طمع ذوي القلوب الآثمة والشهوات المندفعة.. لكنه يجوز لغيرهن أن يخضعن بالقول حتى لو هيجن الغرائز وأشعلن الشهوات.. هذا غير ممكن!

وكذلك فقد حارب البيئة المشجعة على الخيانة، بتحريم الخلوة بين الرجل والمرأة إذا كان يحتمل أن تؤدي تلك الخلوة لارتكاب الحرام، فقد وردت روايات[3]في هذا وعليها الفتوى. وكلما ذكر هو في المرأة المتزوجة والرجل

ونشرت ثقافة الخيانة الزوجية والعلاقات الجنسية على أوسع مدى، وأنها طبيعية جدا فما دامت الزوجة لديها مشاكل مع زوجها فلتقم علاقة جنسية مع زميلها في العمل، وهكذا الزوج لا مانع أن يقيم علاقة مع زوجة جاره لأن الجار يؤذي زوجته! أو أنها لا تستلطفه.. وهكذا.

(١) بابويه؛ محمد بن علي بن: ثواب الاعمال ٢٨٣.

(٢) الاحزاب: ٣٢.

(٣) البروجردي؛ السيد حسين: جامع أحاديث الشيعة ٢٠/ ٣١١.. - عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن محادثة النساء - يعني غير ذوات المحارم - وقال لا يخلون رجل بامرأة فما من رجل خلا بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما.

المتزوج أشد وأعظم، ومن هنا كانت عقوبة الزاني المحصن ـ المتزوج ـ أعظم من عقوبة غيره.

ولا ينفع هنا القول بأنها كانت تعيش حياة جافة أو باردة المشاعر من جهة زوجها! فلما لقيها ذلك الشاب أفضت إليها بسريرة قلبها واستمع إليها وتعلقت به وكان ما كان.. هذا كله تغيير للحقائق وإلباس للجريمة لباس الفضيلة أو المظلومية. ولا يغير ما ذُكر كونَ الأفعال من بدايتها خاطئة محرمة وفي نهايتها كارثة!

إن الاعذار التي تساق، والتبريرات التي تقدم! لا تنفع في شيء إلا في خديعة صاحبها ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾[1] وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم غير صادقين في ذلك ﴿بَلِ الْإِنسان عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[2].

ينبغي إرجاع المسألة إلى حقيقتها، لا ينبغي التخفيف منها. كلمة: أعيش حرمانًا عاطفيًا؛ لذلك ذهبت مع فلان، أو فلانة، هذا تعبير خاطئ. التعبير الصحيح: أنني ذهبت لإقامة علاقة عبّر عنها الشرع بتعبير: الزنا. والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾. لهذا الشخص الذي يقول: أنا لا أجد مع زوجتي ارتياحاً تاماً، فليس لديها ثقافة، ولا يوجد بيننا مشترك في النقاش فأجلس معها بلا حوار. لذلك أذهب أتحاور مع فلانة!. يقال: لا تضحك على نفسك. هذه بداية، بداية الانزلاق في علاقات محرمة بالنسبة إلى بعض الناس. يقال: تيقظ فالمرأة التي تتناقش معها، إن كانت غير متزوجة، توكل على الله، فالطريق معروف وشرعي، أقم معها علاقة

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال ثلاثة من حفظهن كان معصوما من الشيطان الرجيم ومن كل بلية من لم يخل بامرأة لا يملك منها شيئا، ولم يدخل على سلطان، ولم يعن صاحب بدعة ببدعه..ولتفصيل فتاوى العلماء في هذا وبيان اختلافهم يراجع كتابنا فقه العلاقات الاجتماعية.

(١) البقرة: ٩.

(٢) القيامة: ١٤ـ ١٥.

شرعية وكن منسجمًا مع داخلك. أما إذا كان لا يمكن، كأن تكون متزوجة فالغالب أن هذا طريق النار. فلا تخدع نفسك! لقد سلك غيرك هذا الطريق، وتورط فيه، وزلت قدمه. والبعض استمرأ هذه الطريقة واستمر فيها.

وقد جعل هذا الذنب من أعظم الذنوب عند الله عز وجل، كما ورد في الحديث فقد سأل عبد الله بن مسعود، نبينا المصطفى محمداً ﷺ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ فقال: أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَقَدْ خَلَقَكَ قال ابن مسعود: ثُمَّ أَيُّ؟، قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ»(١)! والجار هنا ليس له خصوصية بمعنى أنه لو زنى هذا بامرأة غير جاره، فلا بأس! كلا. وإنما من جهة أن هذه هي الأقرب من ناحية المكان فلا يحتاج إلى عناء في الذهاب والمجيء، ومن جهة أخرى هي الأشنع باعتبار حق الجار أن يحفظ أكثر من غيره.

ومن العقوبات التي قررها الاسلام، لمنع ومحاصرة الخيانات الزوجية، هو أنه حرم على من زنى بامرأة متزوجة، الزواج بها حرمة مؤبدة! فلو أن شخصًا أقام علاقة مع امرأة متزوجة وانتهت إلى الزنا، ثم طلقها زوجها أو مات عنها فإن هذا الزاني وتلك الزانية لا يستطيعان الزواج أبدًا! وقد يكون في هذا ردع لبعض الخاطئين الذين يفسدون علاقة الزوجات بأزواجهم ويطمعون في الزواج بهن فيما بعد أو بالعكس عندما تغريه ليقيم العلاقة المحرمة معها، ثم تتزوجه.. حرم الدين ذلك(٢).

هذا فضلا عن العقوبات الأخروية التي جعلت على الزانيين! فقد ورد «لَنْ تَجِدَ

---

(١) ورد في الصحيحين؛ البخاري ومسلم وفي مسند احمد وغيرها مع اختلاف في التعابير واتفاق على خصلة (تزاني حليلة جارك).

(٢) يرى مشهور فقهاء الإمامية؛ كما في العروة الوثقى ٥ / ٥٢٦: أنه إذا زنى بذات بعل دواما أو متعة حرمت عليه أبدا فلا يجوز له نكاحها بعد موت زوجها، أو طلاقه لها، أو انقضاء مدتها إذا كانت متعة. ولا فرق على الظاهر بين كونه حال الزنا عالما بأنها ذات بعل أو لا.

رَجُلًا أَعْظَمَ مِنْ رَجُلٍ هَدَمَ الْكَعْبَةَ، أَوْ قَتَلَ النَّبِيَّ، أو رَجُلٌ أَرَاقَ مَاءَهُ فِي فَرْجِ امْرَأَةٍ حَرَامًا».

وإذا كان هذا الحديث ظاهرًا في الرجل الزاني المريق ماءه في فرج الزانية، وإن كان لا خصوصية لإراقة الماء في داخل الفرج فحتى لو لم يرق الماء ولكنه زنى فيترتب عليه نفس العقاب، وإنما نظر الحديث إلى ما هو الغالب عند أصحاب هذا الفعل من أنهم يقومون بذلك لبلوغ اللذة الكاملة وهي إنما تحصل بالإراقة كما في الحديث.. فقد ورد في شأن المرأة المتزوجة الزانية أنه لا يكلمها الله ولها عذاب أليم، ففي حديث يروى عن الإمام الصادق عليه السلام: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُم اللهُ وَلَا يزكِّيهِم وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ، مِنْهُم المرَأَةُ تُوطَئُ فِي فِرَاشِ زَوْجِهَا»[1] فمثل هذه تجعل الزوج يخرج للعمل، ويتعب لتدبير الرزق، بينما تخلو بعشيق لها منحرف في بيت زوجها وعلى فراشه!

ونختم هذه الصفحات ببيان بعض الآثار والنتائج المترتبة على الزنا، وهي تشمل الطرفين، كما ورد في حديث ينقله الإمام الصادق عن أبيه الباقر[2] عليهما السلام عن أبي الله الصادق عليه السلام، عن أبيه الباقر، قال: «لِلزَّانِي سِتُّ خِصَالٍ، ثَلَاثٌ فِي الدُّنْيَا، وَثَلَاثٌ فِي الآخِرَةِ، أَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا، فَيُذْهِب بِنُورِ الوَجْهِ وَيُورِثُ الفَقْرَ وَيُعَجِّلُ الفَنَاءَ وَأَمَّا التي فِي الآخِرَةِ: فَسَخَطُ الرَّبِّ، وَسُوءُ الحِسَابِ وَالخُلُودُ فِي النَّارِ».

الدنيوية: الذهاب بنور الوجه فإن من المعروف أن هناك أعمالًا تنير الوجه مثل صلاة الليل كما ورد في آثارها، وبعكس ذلك يكون الزنا مذهبًا للنور.. والنور يختلف عن لون الوجه وأنه أبيض أو أسمر!

---

(١) الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: ثواب الأعمال و عقاب الأعمال ١ / ٢٦٣.

(٢) بينا وجه نقل بعض المعصومين الحديث عن بعضهم الآخر.

كما أنه من موجبات الفقر، بمعنى أن للفقر أسبابا طبيعية وظاهرية، وهناك أسباب غيبية تسلب البركة من الرزق، فقد تراه كثير السعي قليل البركة والخير والزنا يصنع الفقر بهذا المعنى، وتعجيل الفناء؛ من الممكن أن يكون بشكل طبيعي على أثر تعوده على الزنا وانتقال الأمراض الفتاكة إليه، وما أمر الأيدز ببعيد! أو قد يكون لعامل غيبي..

وأما الآثار والنتائج الأخروية فَسَخَطُ الرَّبِّ، وَسُوءُ الحِسَابِ وَالخُلُودُ فِي النَّارِ، أما سخط الله تعالى فقد اقترن في القرآن بحبط الأعمال وبالخلود في النار وكفى بهما خاتمة سيئة، وأما سوء الحساب، فهو وإن لم يكن بمعنى الظلم حيث أن الله سبحانه لا يظلم الناس شيئا، ولكن سوء الحساب بمعنى التدقيق والتفتيش والتقريع مما هو عذاب بذاته فضلا عن أن يكون مقدمة للخلود في النار.

هكذا نقاوم الرغبة في الخيانة

لماذا يخون البعض؟ سواء في أمور المال أو الولاية أو العمل أو الزواج؟ وما الذي يرغبهم فيها؟

يرغب البعض في الخيانة لأسباب:

١. الشعور الكاذب بالانتصار. بمعنى: أن هذا الإنسان يرى أنظمة وقوانين وأعرافًا اجتماعية تحكم حركته، قد يكون منها ما هو ديني، أو أخلاقي أو اجتماعي، والغالب أن هذا الإنسان لا يستطيع أن يواجهها ويعصيها في العلن وأمام الجميع، مع أنه يود لو يعصيها ويخالفها لأنها تحد من رغباته أو نزعاته! ويستشعر الانتصار لو يحصل له ذلك، وربما حدث نفسه أو غيره ممن يأمنه: انظر، لعبت على مدير الشركة وخدعته، وحصلت منه على أموال من دون أن يدري»!. هنا يشعر بزهوٍ أنه بارع وذكي! ليس شخصًا عاديًا!. إنه أبرع من سائر الموظفين فإذا كان الموظف العادي، يأتي للعمل من الصباح إلى ما بعد الظهر، ويأخذ راتبًا قدره كذا.. فإني أخذت في ساعة ما يأخذه في شهر! هذه الخيانة المالية تغذي عنده شعور

الانتصار وتقنعه بانه متميز واستثنائي!

إن الشعور الكاذب بالانتصار، وتخطي القوانين، قد يدفع الإنسان في الشارع لتجاوز الاشارة الضوئية بحركة معينة، ويدفعه إلى تجاوز الأنظمة الاجتماعية التي تقضي بلزوم الانتظام في الطابور، والقضائية التي تلزم بعدم أخذ شيء خارج العقود المتفق عليها، والدينية التي تقضي بحرمة الزنا والممارسات الخاطئة، وهكذا فبتجاوزه هذه الأمور، يرى نفسه ذكيا، بارعا، منتصرا، متغلبا على غيره، فعل ما لم يستطعه الآخرون فيدعوه ذلك إلى أنحاء من الخيانة قد تقدم الحديث عنها.

٢. بل قد لا يجد بعضهم اللذة الحلال التي يحصل عليها من زوجته، مساوية مع اللذة المحرمة التي يأخذها من شهوة غير مشروعة وزنا! ولا ريب أن الشيطان هنا يقوم بدوره ويحسن هذا الفعل ويعطيه صورة أجمل من حقيقته ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(١)].

وقد يشار هنا إلى أن الممنوع - كما يقال - مرغوب، وهذا الكلام معتمد على أمثال شعبية غير صادقة أو قصص غير نافعة لتكوين ثقافة سليمة، ولكنها على أي حال دارجة. وإنما الصحيح أن يفكر الإنسان بالنحو الذي قاله أمير المؤمنين عليه السلام «كَمْ مِنْ ذَنْبٍ تَذْهَبُ لِذَّتُهُ وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ» فحتى لو فرضنا أن هناك شعورًا كاذبًا بالانتصار أو نشوة بالذنب المرتكب، فإلى كم من الزمان؟ إن لذته تتصرم وتبقى صورته التي تأتي يوم القيامة ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[(٢)]!

---

(١) الأنعام:٤٣.

(٢) الكهف:٤٩.

كيف نضعف الرغبة في الخيانة:

١. إن أهم العوامل التي تضعف التوجه إلى الخيانة هو الإحساس بالرقابة الإلهية. بأن يستحضر الإنسان رقابة الله سبحانه وتعالى ويذكره. إن ذكر الله سبحانه وتعالى وهو (أكبر) ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾. هو الذي جعل نبي الله يوسف مع توفر كل دواعي الخيانة بسهولة تامة (من رغبة المرأة الجامحة، وطاقة الشباب القوية لدى يوسف، وأمن المكان بإغلاقه والاستتار فيه) ولكن حينها ذكّر يوسفُ زليخا بأن ربه الله قد أحسن مثواه، فلا يصح أن يعارض ذلك بالتمرد عليه، إنه قد أنعم عليه في كل مراحل حياته فلا يستطيع أن يعصيه بارتكاب الخيانة الجنسية! وذكر الله هنا، الذكر القلبي، بأن يتذكر الإنسان أنه في محضر الله عز وجل، وتحت إحاطته وعلمه وعينه، وأنه الآن، في هذه اللحظة، ينظر إليه، ويسجل عليه، حال ارتكابه للمعصية.

ولذلك جاء في الروايات ألّا تجعل الله أهون الناظرين إليك؛ لأن الإنسان غالبًا لا يعصي أمام الآخرين. هل رأيتم أحدا مثلا يزني في السوق؟! لا يحصل هذا عادة. ولا يسرق أمام الملأ؟ ولكنه في خلواته يقوم بذلك، مع أن الله حينئذ ينظر إليه! فهنا عندما أمارس الذنب ولا أحد معي، ولكني أعلم أن الله ينظر إلي، بينما لا أمارسها في حضور أخي، وابن عمي، وصديقي، فكأنما نظر الله عندي أقل قيمة، وأهون عليَّ من نظر أخي وابن عمي. بينما إذا عظم الإنسان مقام ربه، وأحس برقابته عليه فإنه من الممكن أن يرعوي عن الخيانة.

وكان من صفات أولياء الله والمؤمنين به أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1]، أي ذكروا الله سبحانه وتعالى وتذكروا عينه المحيطة

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

بهم. فخرجوا من عمى الهوى وظلام الشيطان.

ينبغي أن يتذكر الإنسان أنه ليس وحده في أي وقت من أوقاته من ليل أو نهار، وإنما معه في بيئة المعصية غيره وإن كان يتصور نفسه وحيدًا منفردًا، بل معه بعد ربه ورقابته عليه، الملكان الكاتبان الموكلان بحساب حسنات وخطايا الإنسان. حيث يعتقد المسلمون أنهما يرافقان الشخص أينما حل وارتحل، ووظيفتهم وظيفة رقابية.

وتؤيد ذلك روايات كثيرة، كما ورد هذا المعنى في الأدعية أيضًا فنحن نقرأ في دعاء كميل، «وَكُلَّ سَيِّئَةٍ أَمَرْتَ بِإِثْبَاتِهَا الْكِرَامَ الكَاتِبِينَ الَّذِينَ وَكَّلْتَهُم بِحِفْظِ مَا يَكُونُ مِنِّي». بل الوارد في بعضها[1] أنه حتى إذا مات الإنسان يبقيان على قبره إن كان قد أحسن جوارهما وسيرتهما معه، فيستغفران له إلى يوم القيامة.

وورد الدعاء لهما والصلاة عليهما في جملة الصلاة على الملائكة، فعن الإمام زين العابدين في الصحيفة السجادية، نقرأ: «اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَصَلِّ عَلَى جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَصَلِّ عَلَى أَنْبِيَائِكَ المرْسَلِينَ وَصَلِّ اللهُمَّ عَلَى الكِرَامِ الكَاتِبِينَ». وفي دعاء آخر: «اللهُمَّ يَسِّرْ عَلَى الكِرَامِ الكَاتِبِينَ مَؤُونَتَنَا، وَامْلأْ لَنَا مِنْ حَسَنَاتِنَا صَحَائِفَنَا، وَلَا تُخْزِنَا عِنْدَهُم بِسُوءِ أَعْمَالِنَا». أي لا تجعل وجوهنا سوداء أمامهم من سوء أعمالنا، فهؤلاء هم آخر من يبقون على قبرنا إلى آخر الوقت.

---

(١) المجلسي؛ محمد باقر: بحار الأنوار ٦/ ١٧٣ (.. فإذا فارقته روحه تبعاه الملكان اللذان كانا موكلين به يبكيان ويترحمان عليه، ويقولان: رحم الله هذا العبد كم أسمعنا الخير، وكم أشهدنا على الصالحات، وقالا: يا ربنا إنا كنا موكلين به وقد نقلته إلى جوارك فما تأمرنا؟ فيقول تعالى: تلزمان قبره وتترحمان عليه وتستغفران له إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة أتياه بمركب فأركباه ومشيا بين يديه إلى الجنة وخدماه في الجنة..).

أما لو كان لا سمح الله غارقا في وحل الخيانة قد سجلت عليه خياناته. فماذا ينفعه شعور الانتصار الكاذب لبرهة من الزمان، وقد دُوِّن في صحيفة عمله أنه خان هذا في ماله، أو اعتدى على زوجة غيره؟ وقد ثبَّت الكرام الكاتبون هذا في صحيفة عمله. لقد ذهبت لذة دقائق أو ساعات، ومر عليها عشرون سنة، ونسيها هذا الملتذ الخائن، ولكن هؤلاء الكتاب الأمناء الكرام لا ينسون، وقد دونوها في كتاب لا يغادر لا كبيرة ولا صغيرة!

هؤلاء رقباء على ابن آدم بعد رقابة الله عليه! وحقيق به بعد شعوره برقابة الله أولًا ثم ملائكته هؤلاء ثانيًا ألّا يذهب وراء مسالك الخيانة.

وثالث الرقباء: بيئة المكان: الحجر، والأرض، والسقف، والأثاث وكل شيء حول الإنسان، فهو عندما يعصي ربه ويخون الأمانة، لا يفعلها في الفضاء، بل يقف على الأرض ويقوم بهذا العمل. وينام المنحرف على السرير ويفعل الفعل المحرم. هذه الأرض، وهذا السرير، وذلك الأثاث، وتلك الطاولة.. الزمان والمكان والأشياء كلها تأتي شاهدة يوم القيامة لتشهد عليه بما صنع. هي الآن بيئة لذة، لكنها تصبح يوم القيامة بيئة شهادة عليك وتقديم إفادة.

والرقيب الرابع: بدنك فكله يشهد عليك. عضوك الذي تعصي به، لسانك إن تكلمت به في غيبة آخرين أو النميمة عليه أو إثارة الضغينة بينهم؛ يأتي هذا اللسان يوم القيامة ويشهد عليك. ورجلك إن سعيت فيها إلى إحنة أو شحناء أو بغضاء أو إفساد بين مؤمنين، أو تخريب حياة زوجية، أو زنا، أو خمر، أو أو.. سواء مشيت بها أو ركبت سيارة، فهذه الرجل تأتي يوم القيامة وتتكلم. فرجك يشهد عليك، أذنك تشهد عليك، يدك تشهد عليك، لسانك يشهد عليك، جلدك، بشرتك، كل هذه تتحول إلى شهود إثبات لا مجال لتكذيبهم.

ومن الطريف أن القرآن الكريم ينقل هذا المشهد المؤثر من مشاهد القيامة: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.[1]

ومع أنه ذكر أن الشهود هنا هم السمع والأبصار والجلود، إلا أنه خص الجلود بذكر الحوار بينها وبين أصحابها «وإنما خصوها بالسؤال دون سمعهم وأبصارهم مع اشتراكها في الشهادة لان الجلود شهدت على ما كانت هي بنفسها أسبابًا وآلات مباشرة له بخلاف السمع والأبصار فإنها كسائر الشهداء تشهد بما ارتكبه غيرها وقيل: تخصيص الجلود بالذكر تقريع لهم وزيادة تشنيع وفضاحة وخاصة لو كان المراد بالجلود الفروج»[2] فهذا الجلد الذي أرعاه بالتنظيف، والتغسيل، والعناية و(الكريمات) وغير ذلك، يصبح شاهدًا ضدي، وما كان منتظرًا منه ذلك، لذا نسألها ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ﴾، يعني أن ما يربطنا بالله هو فوق ما يربطنا بكم، فأنت تستعمل جلدك لكنك لا تستطيع التحكم فيه بالنطق والصمت! لكن ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يفعل ذلك! وبالتالي فقد أفسدت هذه الجلود عليكم ﴿مَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ كم من الأبواب تغلق والستائر تسدل ولكن هل تستطيع أن تختفي عن جلد بدنك؟ وهو واسطة لذتك؟ هو نفسه الشاهد عليك! بل تسافر إلى البلاد البعيدة لا أحد يعرفك أو يعرفها؟ وشخصيتك مستورة واسمك مجهول.. ولكن هل تستتر من يدك ورجلك وأعضائك الأخرى؟ وفوق ذلك وقبله وبعده وأعظم من كل ذلك «وكُنْتَ أَنْتَ الرَّقيبَ عَلَيَّ مِنْ وَرائِهِمْ،

---

(١) فصلت ٢٠ـ٢٢.

(٢) الميزان ١٧/ ٣٧٩.

وَالشَّاهِدَ لِما خَفِيَ عَنْهُمْ»[١].

إذا تيقن الإنسان هذا المعنى، واستحضره دائما، خفف هذا من سعيه باتجاه الخيانة أو امتنع منها. سوف يتبين له أنه لم يكن ذكيًا، حيث تصور أنه لا أحد يعلم عنه! كلا إنه تحت المراقبة، وضمن مدى الكاميرات والتصوير! وتكشفه الشهود المتنوعة والمتعددة.. لست ذكيًا أيها الخائن! بل... لقد كنت مفضوحًا وأعمالك مسجلة بالصوت والصورة وقد حفظت من قريب وبعيد وداخل وخارج، بينما كنت تتصور أنك مخفي مستور!

٢. ومن العوامل المساعدة على تجنب الخيانة؛ أن يتعلم الإنسان الأحكام الشرعية والمسائل الابتلائية التي قد يؤدي الجهل بها إلى خيانات. ذلك أن بعض الخيانات ترتبط بالجهل وعدم المعرفة بالحكم الشرعي، ولعل الشخص لو عرف أن هذا غير مشروع ربما لم يقدم عليه، فقد رأينا أن البعض يقول هكذا: لدي تأمين طبي من جهة عملي، بحيث يوفرون لي كل سنة نظارة مثلا، وتخفيضًا في المستشفى، ولم أستخدم ذلك خلال هذه السنة حيث كنت بصحة جيدة، لكن أخي يحتاج إلى نظارة ورعاية طبية! فأعطيه ورقة التأمين التابعة لي ليتعالج بها! إن مثل هذا لو كان يعلم أن هذا الفعل غير جائز شرعا، ما لم تسمح جهة التأمين به.. ربما كان لا يقدم عليه!

استفت قلبك .. هل هي صحيحة؟

ومن المهم الرجوع إلى المجتهدين والفقهاء في معرفة الأحكام، وعدم اعتماد الشخص على فهمه الخاص و(عقله) كما يقول بعضهم أن هذا (بالعقل جائز)! ولا

(١) القمي؛ الشيخ عباس: مفاتيح الجنان دعاء كميل.

سيما إذا استندوا على فكرة شائعة منسوبة للنبي ﷺ وفهموها بطريقة خاطئة، فإن قسما من الناس يقولون (استفت قلبك، وإن أفتاك الناس وأفتوك) يعني خذ بما تراه مناسبًا!

ونتوقف قليلا عند هذه الفكرة، والنص، فنقول إن مثل هذا النص لم ينقل في مصادر الإمامية، ومن ذكره من الإمامية كصاحب الميزان فإنما هو ناقل عن مدرسة الخلفاء، وهو منقول عند الناس مجتزأ ومفهوم بخلاف المراد منه. أما نص الحديث كما ورد في مصادر مدرسة الخلفاء[1] عن وابصة قال: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَنَا لاَ أُرِيدُ أَنْ أَدَعَ شَيئًا مِنَ البِّر وَالإِثْم إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ فقال يا وَابِصَة، أُخْبرُكَ عَمَّا جِئْتَ تَسْأَلُ عَنْهُ، أَمْ تَسْأَلُ؟»، «قَالَ: يَا رَسُولُ اللهِ أَخْبِرْنِي. فَقَالَ: جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ البِّر وَالإِثْم، ثُمَّ جَمَعَ أَصَابِعَهُ الثَّلَاث، وَأَخَذَ يَنْكُتُ بِهَا فِي صَدْرِي. وَيَقُول: يَا وَابِصَة، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، البِّرُ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيهِ القَلْبُ وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيهِ النَّفْسُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي القَلْبِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ».

وهنا ينبغي أن نشير إلى أن ما استفاده بعضهم من أنه لا داعي إلى التقليد والمرجعية والرجوع إلى العلماء، حيث أن النبي بنفسه قال: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ اسْتَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ»؟! فإذن، استفت قلبك، لا أن تستفتي الناس والعلماء.

هذا المعنى لا ريب أنه غير صحيح، فإنه يتعارض مع ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]، ويتعارض مع أن الإنسان يُسأل في يوم القيامة: لمَ لمْ تعمل، فيقال لم أكن أعلم، فيقال له: هلا تعلمت، فيخصمه، وهذا من مصاديق ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ ويتعارض مع حكم العقل برجوع غير العالم إلى العالم.

---

(١) كما في سنن الدارمي ومسند أحمد.

(٢) النحل: ٤٣.

فإن صح صدور الحديث عن رسول الله ﷺ، فإنه يشير إلى أن وابصة لما كان بصدد أن يسأل النبي ﷺ عن كل مفردات الاثم والشر في الدنيا! وهذا بالطبع لا يتيسر استيعابه لا في يوم ولا في شهر، فأراد النبي أن يعطيه قاعدة عامة ووجدانية يميز بها مصاديق الشرور والآثام، فيما لم يكن يعرف حكمه الشرعي المباشر عليه، فأرشده إلى حكم فطرته عليه، وتعامل عقله مع ذلك المصداق، فإذا وجد الأمر طبيعيا سلسا، وأطمأن إليه القلب، ولم تمجّه الفطرة، فليقدم عليه وإلا فإن تلجلج في صدره وحاك في داخله واستيقظت به النفس اللوامة، فليجتنب! وما نحن فيه من الخيانة هو مما يحوك في النفس ولا يطمئن إليه القلب!

وإلا لو كان يعلم بحكمه الشرعي، فلا معنى لأن يعرضه على عقله أو نفسه ما دام قد حكم الله عليه بالحرمة فلا معنى لانتظار حكم النفس.. نعم في موارد الاشتباه وعدم تبين الأمر، يستطيع عرضه كما قيل. إن الصدقة على الضعيف لا ريب تختلف في حكم الفطرة عن سرقة مال اليتيم من دون علمه! فالأول منسجم مع الفطرة حتى لو لم تأت الأحاديث باستحبابه، والثاني مستقبح عند العقل حتى لو لم تأت التشريعات بمنعه!

ولك أن تضع نفسك مكان من تخونه في ماله! وتخالف الاتفاق بينك وبينه، فلو وضعت نفسك مكان مالك شركة التأمين وفعل معك أحد عملائك ما ستعمله بالنسبة لأخيك هل كنت ترضى بذلك؟

وما عرضه النبي على وابصة، يشبه في نتيجته ما قاله النبي لشاب طلب من النبي أن يأذن له في الزنا..«يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنِ لِي بِالزِّنَا. فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيهِ، فَزَجَرُوهُ: مَه، فقال النبي ﷺ: «ادْنُ»، فلما دنا منه قال له النبي: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟»، قال الشاب: «لَا وَالله»، فقال النبي: «نَعَم، وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِم»، قالَ: «أَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قالَ:

لا. قالَ: «وكَذَلِكَ النّاسُ لا يُحِبُّونَهُ لِبَناتِهِمْ». قالَ: «أتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟» قالَ: لا. قالَ: «وكَذَلِكَ النّاسُ لا يُحِبُّونَهُ لِأَخَواتِهِمْ». فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلى صَدْرِهِ، فَقالَ: «اللهُمَّ كَفِّرْ ذَنْبَهُ، وطَهِّرْ قَلْبَهْ، وحَصِّنْ فَرْجَهُ»[١].

إن المقصود هنا من النبي أن يثير فيه نداء الفطرة التي تقبح هذا الفعل إذا ارتكب من الأم أو البنت، فإذا كان كذلك فينبغي أن تكره الفعل لو كان في أجنبية عنه، لا أنه لو قال له أرضاه لهن يسمح له! فهل لو كان الشخص منحرفا وقال لا مانع لدي أن يعمل مع أقاربي، هل سيقال له: إذن اذهب وازنِ؟

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٨/ ١٨٣.

الشك في أقسامه والموقف منه

عن أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ أنه قال: «عَلَيكَ بِلُزُومِ اليَقِين، وَتَجَنُّبِ الشَّكِ، فَلَيسَ لِلْمَرْءِ شَيْءٌ أَهْلَكَ لِدِينِهِ مِنْ غَلَبَةِ الشَّكِ عَلَى يَقِينِهِ».[1]

توصية الإمام ﷺ بأن يتجنب الإنسان الشك ويلزم اليقين هي بمعنى: السعي وراء مقدمات اليقين، وتجنب مقدمات الشك. وإلا فإن الإنسان لا يسيطر على شكه بحيث يمنعه من الحدوث.

وهذا الاستعمال عرفي ومتداول فعندما يقال لك: عليك بالسلامة في قيادة السيارة. فالمقصود من ذلك: وفر مقدمات السلامة. فاستخدم مثلا: حزام الأمان، التزم بالإشارات المرورية، لتكن قيادتك في حدود السرعة المعقولة، وهكذا. فعندما تلتزم بهذه المقدمات، ينتج عنها السلامة.

كذلك عندما يقول الإمام ﷺ: الزم اليقين. معنى ذلك: هيىء مقدمات الاستيقان، من الوعي والمعرفة -مثلا- والتركيز والتأمل[2]، وعدم الالتفات لوساوس الشيطان،

---

(١) الريشهري؛ محمد: ميزان الحكمة ٢ / ١٤٩٨.

(٢) قد يكون من ذلك أن الوظيفة المطلوبة في العبادة من الشاك ألّا يرتب أثر الشك بمجرد حصوله، وإنما

وما شابه ذلك.

وتجنب الشك، يعني: هيىء المقدمات التي تمنع عنك الشك، والتي ترفعه لو حصل![1] عالج ما يصنعه الشك في نفسك. لماذا؟ يقول الإمام عليه السلام: «فَلَيسَ لِلْمَرْءِ شَيْءٌ أَهْلَكَ لِدِينِهِ مِنْ غَلَبَةِ الشَّكِ عَلَى يَقِينِهِ». يعني ليس هناك أمر أكثر إهلاكا للدين كما هو غلبة الشك والظن على اليقين.

عندما يفسد يقين الإنسان، قد يبدأ بفساد يقينه بالله عز وجل - مثلا - وأنه على كل شيء قدير، وأنه حلال لكل مشكلة، وأنه رزاق لكل دابة. عندما يفسد يقين الإنسان بهذا المعنى، يقل توكله على ربه، واعتماده عليه، فيلجأ إلى طرق أبواب غير الله عز وجل.

يتفرع عليه أنه قد يفسد يقينه بعباداته فيتساءل مشككا ما الداعي إلى هذه العبادة وما هو المبرر لها؟ ها هو أصبح غير واثق من فائدة الصلاة، أو من آثار الصوم والحج، فلا يعود ينبعث إليها ولا يتحرك باتجاهها، «فَلَيسَ لِلْمَرْءِ شَيْءٌ أَهْلَكَ لِدِينِهِ مِنْ غَلَبَةِ الشَّكِ عَلَى يَقِينِهِ».

وقد يعرض الشك على العلاقة الزوجية فيفسدها، وهكذا تتوالى مفاسد هذا الشك كما سيأتي في الحديث عنها. فماذا يعني الشك؟ وما حدوده؟

مع استقراره، والتأمل في أطراف الشك فإذا حصل له ميل لأحد الأطراف وظن به في عدد الركعات يتبعه ويلغي باقي الأطراف، بل وعلى رأيٍ في سائر نواحي الشك غير الركعات.

(١) لعل أحد النتائج التي تحصل من تطبيق القواعد والأصول الجارية في الشكوك هو رفع أثر الشك من الناحية العملية والوظيفية، فالاستصحاب مثلا للحالة السابقة ينهي الأثر العملي من الناحية الشرعية للشك الطارئ عليها، وهكذا قاعدة الفراغ مثلا فإنها تبطل ما يترتب على بقاء الشك في الصلاة السابقة من لزوم فراغ الذمة ولو بإعادة الصلاة، فقاعدة الفراغ تبطل أثر الشك من الناحية العملية، وترتب أثر الصحة على الصلاة السابقة.

الشك -كما قال ابن فارس-: (شَكَّ) الشِّينُ وَالْكَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُشْتَقٌّ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى التَّدَاخُلِ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ شَكَكْتُهُ بِالرُّمْحِ، وَذَلِكَ إِذَا طَعَنْتَهُ فَدَاخَلَ السِّنَانُ جِسْمَهُ. قَالَ

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ   لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ

وَيَكُونُ هَذَا مِنَ النَّظْمِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ إِذَا شُك وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الشَّكُّ، الَّذِي هُوَ خِلَافُ الْيَقِينِ، إِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ الشَّاكَّ كَأَنَّهُ شُكَّ لَهُ الْأَمْرَانِ فِي مَشَكٍّ وَاحِدٍ، وَهُوَ لَا يَتَيَقَّنُ وَاحِدًا مِنْهُمَا، فَمِنْ ذَلِكَ اشْتِقَاقُ الشَّكِّ. تَقُولُ: شَكَكْتُ بَيْنَ وَرَقَتَيْنِ، إِذَا أَنْتَ غَرَزْتَ الْعُودَ فِيهِمَا فَجَمَعْتَهُمَا.[1]

كما سبق وأن ذكرنا قبل قليل أن الشك قد يتعلق بأمور:

فقد يعرض الشك على المبادئ والأفكار. فبينا يعيش الإنسان حياته الدينية العادية، إذ به يحصل له شك، على أثر شبهة من الشبهات، أو سؤال لم يجد له إجابة فقد يكون في قضايا المبادئ، كأن يتساءل: من يقول إن الله موجود؟ وهذه قد لا تصنع تشكيكا بالنسبة لكثير من الناس. لكنها بالنسبة إلى بعضهم قد تدخل على يقينه فتفسد شيئا من هذا اليقين.

وهذه الأسئلة وما يتفرع منها قد أجاب العلماء والفلاسفة الالهيون عليها، ودونوها لكن من لا يتعرف على تلك الأجوبة، قد لا يستقر اليقين في نفوسهم. وسيأتي أن من مسؤوليات العالم المفكر الواعي، أن ينشر اليقين، لا أن ينشر الشك والتردد.

إن الموقف الطبيعي السليم في مواجهة هذه الشبهات والإثارات، وهي كثيرة

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣/ ١٧٣.

منها ما يرتبط بالله عز وجل ومنها ما يرتبط بالنبي المصطفى ﷺ، وبالذات ما يثيره أساتذة الجامعات في وجه الطلاب المبتعثين وأبناء الجاليات، الموقف الطبيعي في مثل هذه الحالات أن يرده إلى أهل المعرفة والتخصص ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ وليس هذا خاصا بالموضوع الديني بل في كل المواضيع إذ لا يتيسر للإنسان أن يتخصص في كل الأمور وأن يحيط بها بمعرفة عميقة، وإنما يستفيد من أصحاب التخصصات ويعتمد عليهم.

وكما قلنا قد يكون الشك مرتبطا بالأمور العبادية، وهنا قد يكون الشك فيها من خارجها بمعنى الشك في وجوبها أو فوائدها أو آثارها وهو يرتبط بما سبق، وقد يكون الشك في العبادة من الداخل، بمعنى أن أشك في أعدادها أو كيفيتها أو ما شابه مما له مسار محدد في الفقه الاسلامي. وهذا يأتي الكلام عنه.

وثالثة قد يكون الشك ذا طابع اجتماعي، مثل الشك في الحياة الزوجية. كأن يشك الزوج في زوجته أنها تقوم بفعل غير منسجم مع الحياة الزوجية، أو عكس ذلك وكيف ينبغي أن يتصرف في مثل هذه الحالات؟

وقد يكون الشك ذو الطابع الاجتماعي فيما هو في الدائرة الأوسع كأن يشك بعضهم في العاملين في المجتمع أو في العلماء أو الوجهاء.. ويتأثر منسوب الثقة في هؤلاء بحسب درجة الشك الحاصلة.

هل للشك قيمة إيجابية أو سلبية؟

بالرغم من أننا نجد أن الفلسفة الحديثة والثقافة التي قامت عليها، تصنف الشك باعتباره قيمة إيجابية عالية، وتنسب إليه التقدم العلمي وبالذات بعد ديكارت، إلا أننا نجد، الآيات القرآنية والروايات، تصنف الشك ضمن الدائرة السلبية، وبالذات منها ما يرتبط بالعقائد وقضايا الايمان، فقد ورد في تفسير الآية المباركة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ

اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١] عن الإمام الصادق ﷺ، «الرِّجْسُ هُوَ الشَّكُ، وَاللهِ لَا نَشُكُّ فِي رَبِّنَا أَبَدًا»[٢]، وهذا أحد التطبيقات والمصاديق للرجس وإلا فالرجس معنى ينطبق على عناوين كثيرة[٣]، منها: الذنب، ومنها غيره. وهنا طبقه الإمام ﷺ على الشك.

وفي رواية عن الإمام الباقر ﷺ، في تفسير قوله تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ)، قال: «شَكًّا إِلَى شَكِّهِم».[٤]هؤلاء مرضى القلوب بمعنى الإباء للحق، وعدم الخضوع للهدى، إن يروا آية بينة، بدلا من أن تزيدهم هدى، مثل حال (الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)، تزيدهم شكا.

ويستطيع الإنسان ملاحظة ذلك في المثال العرفي، فمن يكون لديه احتقان في فمه وحلقه، تكون رائحة فمه غير حسنة، وحتى الطعام الذي يأكله ليس ذا طعم عنده. فلو أنك تعطيه طعاما طيبا لا يحس بطعمه الحقيقي. وبدل أن يستطعمه لذيذا طيبا قد لا يستسيغه، بينما تستلذه وتستطيبه أنت صحيح البدن. وقد قال الشاعر في تشبيه لطيف:

أرى الإحسان عند الحرّ ديناً وعند النّذل منقصةً وذمّا

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) البروجردي؛ السيد حسين: جامع أحاديث الشيعة ١ / ١٨٦.

(٣) قال المصطفوي في كتابه التحقيق في كلمات القرآن ٤/ ٥٦ في كلمة رجس: أنّ ما يظهر من هذه الكلمات ومن موارد استعمال المادّة في الكتاب الكريم وغيرها: أنّ الأصل الواحد فيها هو ما يكون غير مناسب وغير لايق شديدا بحيث يعدّ في الخارج عند العرف العادل والعقل السالم مكروها وقبيحا مؤكّدا.

وهذا الأصل له مصاديق: كالقذر والنجس والخلط والوسخ وكل ما يستقذر والصوت الشديد الخارج عن الاعتدال أو الصوت المكروه والشكّ والكفر واللعنة وما يرتفع في القبح وما لا خير فيه.

(٤) المجلسي؛ بحار الانوار ٢٢/ ٦٨ عن تفسير القمي، ومثله في تفسير القرطبي ٨/ ٢٩٩.

كقطر الماء: في الأصـداف درّ وفي جوف الأفاعي صار سمّا

وفي رواية ثالثة في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾، قال: «بِشَكٍّ»[١]. فجعل الشك مساويًا للظلم، ورأى أن من يخلط إيمانه بشك فإنه كمن يخلطه بظلم واعتداء!

يتبين من هذه الآيات المباركات وتفسير المعصومين لها أن الموقف الديني تجاه الشك موقف سلبي لا يستحسنه ولا يحرض عليه.

ومن المهم أن نؤصل هذا هنا، ذلك أن الشائع اليوم أن الوضع الثقافي المعاش يعطي قيمة كبيرة للشك، وبدلا من أن يكون نقطة سلبية كما تتحدث عنه الآيات والروايات، ها هو يصبح قيمة ايجابية، وأصبح الفرد الشكاك في المبادئ الأساسية ينظر إليه كمفكر ومجدد وما شابه[٢]!

اليقين قيمة إيمانية كبرى

وفي مقابل القيمة السلبية للشك من الناحية الدينية، فإنه تم إعطاء القيمة الكبرى لليقين، فعن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، في مقام الاعتزاز والافتخار، يقول: «مَا شَكَكْتُ فِي الحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ»، «إِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَغَيرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي»[٣]. ولو كان الشك محمودا وخصلة علمية جيدة، لكان أمير المؤمنين عليه السلام أولى بها، بل وهو يبين الآثار السلبية للشك من إطفاء نور العقل، ومن تحوله إلى حيرة وضلال من الناحية العملية، يقول الإمام عليه السلام: «الشَّكُّ يُطْفِئُ نُورَ القَلْبِ، وَثَمَرَةُ الشَّكِّ الحِيرَةُ، «

(١) الكليني؛ الكافي ٢/ ٣٩٩.

(٢) لبيان الفرق بين الشك المنهجي، والتشكيك النفسي يمكن الرجوع إلى كتابنا: التشكيك كيف واجهه أهل البيت.

(٣) الريشهري؛ ميزان الحكمة ٢ / ١٥٠٠ وكذا الاحاديث بعده

كَنْ يَضِلَّ المرْءُ حَتَّى يَغْلُبَ شَكُّهُ يَقِينَهُ».

ويوضح الإمام زين العابدين بشكل جلي الأثر السلبي للشك في أنه يصنع الفتنة الفكرية، ويعكر الصفو في حمد الخالق. فيقول «وَأَزْهِقْ البَاطِلَ عَنْ ضَمَائِرِنَا وَأَثْبِتْ الحَقَّ فِي سَرَائِرِنَا»، لماذا؟ «لِأَنَّ الشُّكُوكَ وَالظُّنُونَ لَوَاقِحُ الفِتَنِ»، تلقح الفتنة، «وَمُكَدِّرَةٌ لِصَفْوِ المنَائِح وَالمنَن»[1].

(١) المجلسي؛ بحار الانوار ٩١/ ١٤٧ مناجاة المطيعين.

الشك وسوء الظن في المجال الاجتماعي

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.[1]

تتناول هذه الصفحات موضوع التشكيك في المجال الاجتماعي، فقد يسيء الشخص الظنَّ في عموم أبناء المجتمع، فلا يعتقد أنهم متدينون صادقون، وبناء على ذلك فهو دائما شاك في معاملته معهم! يخشى منهم أن يغشوه أو يسرقوه أو يخدعوه.. وهذا الصنف من الناس غير طبيعي. وكأنه يريد أن يقول ـ بطريق غير مباشر – أن الصالح الوحيد في هذه الدنيا هو أنا. وأما الباقي من الناس فهم مراؤون في عبادتهم، وغير صادقين في معاملتهم. وقد يقول ذلك بلسانه أو لا يقول إلا أن موقفه العملي التشكيكي وسوء الظن منه في عامة الناس، ينتهي إلى هذا الفكرة. مع أنها لا تتفق مع الواقع.

الواقع الاجتماعي يقول إنه كما يوجد في هذا المجتمع –بل في كل مجتمع– سيئون، فإنه يوجد –ولعلهم الأكثرية الغالبة– أناس طيبون.

---

(١) الحجرات: ١٢.

ولأن الواقع هو كذلك، فقد أُمر الإنسان ضمن التوجيهات الدينية بأن يتعامل مع سائر الناس على ظاهرهم وألا يفتشهم.[١]

نعم تم الاستثناء في موارد؛ وطلب من الشخص ألّا يستسلم لحسن الظن، وإنما يحتاط ويدقق فمنها: فيما إذا كان حال الزمان حال خديعة، والفساد هو الغالب على الناس فهنا ينبغي الاحتياط. مثلا بأن يكون ٧٠٪ من الناس منحرفين، ويقوم أمرهم على الغش والخديعة، فلا بد من التدقيق وسبب ذلك أن « صَرْعَةَ الاسْتِرْسَالِ لَا تُسْتَقَالُ »كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام و«إذا كان الغدر طبعاً فالثقة بكلّ أحد عجزٌ»[٢].

ونحن نعلم أن الاستثناء هو على خلاف القاعدة.

ومنها: ما يرتبط بالمعاملات المالية، فلا ينبغي ان يعتمد دائمًا على الثقة وحسن الظن في كل من يتعامل معه، وفي نفس الوقت لا ينبغي أن يتهمه ويشكك فيه، وإنما يحتاط لنفسه، بالتدوين والكتابة للمعاملة. فحتى لو أقرضت أحدهم خمسة دراهم. وكان مؤمنًا متدينًا، فاكتب هذه المعاملة ودوّن هذا الدين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾[٣]. وكتابة الدين ليست تشكيكا في طرف المعاملة، وإنما هي قاعدة لحفظ الحق، جعلها الدين طريقة من طرق الاستيثاق والتوثق.

---

(١) فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ النساء: ٩٤، ومنها قضية أسامة بن زيد حين قتل أحدهم بعدما تشهد! فلما أخبر النبي استنكر فعله وقال له: أقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا، فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ!

(٢) المدني؛ السيد علي خان: رياض السالكين ٣/ ٣٢١.

(٣) :٢٨٢ البقرة.

ومما يرتبط بهذا الجانب، ما جاء في سورة الحجرات، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، فإن الآية لم تأمر باجتناب مطلق الظن، وكل الظن، وإنما ﴿كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ وتعليل ذلك: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. فالظن المقصود هنا بالاجتناب، هو: الظن السيء. وقد أمر المؤمن بالاجتناب عنه. والظن السيء أحد نتائج الشك.

أما الظن الحسن فقد مدح في القرآن الكريم: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[١]. هنا القرآن يمدح ظن المؤمنين بعضهم ببعض الخير، وظن المؤمنات بعضهن بالبعض ظن الخير.

حمل فعل المسلم على الصحة:

إن مما رتبه الفقهاء واستفادوه من الآية المباركة السابقة والروايات الواردة في حسن الظن بالمؤمنين، قاعدة فقهية سميت بقاعدة الصحة في فعل المسلم.[٢] ولها تطبيقات مهمة في الفقه. فمن تلك الروايات ما عن أمير المؤمنين عليه السلام: «احْمِلْ عَمَلَ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ، حَتَّى يَأْتِيكَ مَا يَصْرِفُكَ عَنْهُ».[٣] هو يعمل عملا معيّنًا، وأنت بين أن تظن فيه ظنًا سيئًا أو حسنا، بين أن تقول: هذا يعمل كذا ليستولي على أموال الناس، أو أن تقول: لا، الرجل يطلب الخير بعمله. فلا تظنن بكلمة منه صدرت

---

(١) النور: ١٢.

(٢) المصطفوي؛ السيد محمد كاظم: مائة قاعدة فقهية ١/ ١٥٠: معنى القاعدة هو حمل فعل المسلم على الصحة، وموضوعها الشك في صحة العمل (بان لا تكون صورة العمل محفوظة)، ومنشأ الشك قد يكون احتمال فقدان الشرط وقد يكون احتمال وجود المانع، معنى أصالة الصحة هو ترتيب الأثر على العمل الصادر من الغير، ولا اختصاص لأصالة الصحة بهذا المعنى بعمل المؤمن، بل جارية في حق جميع المسلمين، بل الكافرين أيضا في بعض الموارد.

(٣) المصدر.

سوءًا وأن تجد لها في الخير محملًا.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: (إذا اتهم المؤمن أخاه انماث الايمان من قلبه كما ينماث الملح في الماء)

فأنت تذهب لشراء سيارة من السوق، فتسأل: بكم هذه السيارة؟ فيقال لك: بعشرين ألف. تسأله: هذه سيارتك؟ يقول لك: نعم، تشتريها منه وتعطيه الثمن. حسنا، ألا يحتمل أن هذا سارق للسيارة؟ وأن هذه الأوراق أعدت بطريقة ما؟. لكنك لا تسأله من أين لك هذه السيارة؟ وكيف صارت عندك. ثم نفس الكلام في البائع الذي باعها له من قبل! هل ينبغي أن أعمل تحقيقا في الأمر؟ لو كان الأمر هكذا، لصعب القيام بأكثر المعاملات.

وتريد أن تتزوج امرأة تعلم أنها مطلقة، فبمجرد أن تعلم أنها خرجت من عدتها يجوز لك أن تعقد عليها. ولا تتقيد بأن تذهب لزوجها لتسأله هل جلب شهودًا وقت الطلاق؟ وهل كانوا عدولًا، أو أنها هل كانت وقت الطلاق طاهرًا من الحيض والنفاس؟[١] وإنما تكتفي بأنك تعلم بأنه قد طلق زوجته وهو رجل مسلم، والمسلم يجري في أموره على وفق منهج الشرع، إلى أن يتبين خلاف ذلك.

ومرجع هذه القاعدة إلى إحسانك الظن بأخيك المسلم وعدم اتهامك إياه فمن دون ذلك يصعب أن تجري معاملة. حسنا، عندما يكون الأمر هكذا، ليس على المستوى الأخلاقي فحسب بل على المستوى الفقهي والقانوني حيث يرتبط بالأحكام الشرعية، لماذا عندما نأتي للموضوع الاجتماعي والعمل الديني والاسلامي يتغير الحال، فإذا بالتشكيك يحل محل الثقة؟ وإذا بالاتهام يحل محل حسن الظن؟ ولماذا لا يحمل عمل الأخ المسلم هنا على أحسنه؟ حتى يأتيك

(١) يلتزم الإمامية بعدم صحة الطلاق وعدم وقوعه إذا لم يكن جامعا للشروط المذكورة.

(برهان) يصرفك عن ذلك؟

إن الإمام أمير المؤمنين ﷺ يقول: اطلب لأخيك عذراً، فإن لم تجد له عذراً فالتمس له عذراً[١].. هل ترى أن الدين كان يأمر بحمل فعل المسلم على الصحة في شراء سيارة ومنزل، ويترك ذلك في مثل العمل الاجتماعي والديني، والذي يؤثر في عموم حياة الناس؟

بينما لا نرى في الحياة العامة اليومية هذا التدقيق والتحقيق (وإساءة الظن) فمعاملاتنا تجري بسلاسة! حتى إذا وصل الأمر للجمعية الخيرية، والمركز الاسلامي، والنادي، والعمل السياسي، والنشاط الاجتماعي سارعنا إلى التشكيك في أنه ربما بنى هذا المشروع ليبتلع الأموال، أو يجمعها لأهله.

قد يقال: إن ذلك بسبب وجود متلاعبين بالأموال، وكذابين لا سيما في النشاطات العامة! وجواب ذلك: أنه سبق القول بأن حسن الظن كقاعدة عامة يستثنى منه موردان، أحدهما ما (إذا ساء الزمان وغلب الفساد على أهله) وقد سبقت الاشارة إليه. ولا نظن أننا وصلنا إلى هذه المرحلة وشاهد ذلك أننا لا نرتب أثرا على هذا العنوان في سائرا الموارد! ونتعامل مع الأوضاع باعتبارها أوضاعا طبيعية وإن كان يوجد فيها كاذبون وغاشون وسراق!

إننا نعتقد أن في الاسلام من الحسن والجاذبية وموافقة الفطرة ما يجعل غالب الناس يتوقون إلى تطبيقه في حياتهم الفردية والاجتماعية (في الإجمال)، وإن كان ربما وجد من يخالف ذلك بنسبة من النسب! إلا أنها بلا شك ليست النسبة الغالبة!

بل المسألة قد تتعدى فعل المسلم، لترتيب الأثر على العمل الصادر حتى من

(١) القمي ؛ الشيخ عباس : سفينة البحار ٥/ ٣٥١.

غيره! كما ذكره السيد الخوئي ﵀ في مصباح الأصول حيث قال (معنى أصالة الصحة هو ترتيب الأثر على العمل الصادر من الغير، و هذا هو محل الكلام، ولا اختصاص لأصالة الصحة بهذا المعنى بعمل المؤمن، بل جارية في حق جميع المسلمين بل الكافرين أيضًا في بعض الموارد).(١)

بالطبع لسنا في صدد تنزيه العاملين في النشاط الاجتماعي والديني وأمثاله، والدعوة لأن يسير الشخص خلفهم مغمض العينين، وإنما في صدد المسارعة إلى إساءة الظن فيمن يتصدى للشأن الإجتماعي لمجرد تصديه! والتشكيك في نياته وغاياته! وكأن التدين لا يتم إلا بالانعزال عن الأمر الاجتماعي! وأن التقدس لا يحصل إلا بالانزواء بعيدًا عن المشاركة في خدمة الناس وقضاياهم!

كيف يتم التشكيك؟

إن التشكيك في العاملين ليس بالضرورة أن يكون مباشرًا! بل قليلًا ما يحصل هذا النحو، فقد لا ترى الكثير من المشككين يصرح بذلك بشكل مباشر بالقول: أنا أشكك في فلان! أو هو سارق للأموال! أو أنه غير مخلص! وإنما يأتي في الغالب في (لفافة) فيقول الشخص مثلا: صحيح فلان عامل.. لكن خلينا لا نريد أن نخوض في غيبة الناس! أو أنه نشط لكن المهم هي النية المخلصة و(إنما الأعمال بالنيات)! أو يقول: الحمد لله الذي عافانا.. فإن ظاهره ذكر وحمد لله لكنه في واقعه تشكيك وطعن! وهكذا..

هل نترك إذن نقد الأعمال؟ ونمدحها حتى وإن كانت خاطئة؟

الجواب: أن من المسؤولية الاجتماعية الرقابة على العاملين والمتصدين، لا

---

(١) مصباح الأصول ٢ / ٣٨٩.

سيما أولئك الذين سيتصرفون في أموال الناس ومصائرهم.. لكن يمكن للشخص أن ينتقد الفكرة وطريقة العمل والادارة، بأن يقال هذه الطريقة تؤدي إلى النتيجة الكذائية! لا أن يقال إن فلانا فعل كذا، وقصده كذا. فما يدريك ما قصده وما نيته؟ هل كنت في قلبه؟ نعم يمكنك تقييم العمل: من أي شخص صدر، وبأي نية كان، فله نتائج كذا وكذا. هذا لا مانع فيه.

الشك وتدمير الحياة الزوجية

مثلما أن الشك قد يحصل في العقائد، فيهزها وفي العبادات فيفقدها روحانيتها، ويحصل في الحياة الاجتماعية فيمن يتصدى للخدمة، فتسلب عنهم ثقة الناس بعملهم فينكفئون عن التعاون معهم، قد يحصل الشك في الحياة الزوجية بين الزوجين. فيكون سببا مدمرا للحياة الزوجية، إذا لم يتصرف الطرفان بنحو صحيح.

في البداية، لا بد من التنبيه إلى شك الإنسان المتعارف والطبيعي، وبين شك الشّكاك، ذلك أن الشك قد يكون صادرا من إنسان طبيعي على أثر قيام شريكه الزوجي ببعض الحركات أو الألفاظ، فينقدح في ذهن شريكه الشك والتساؤل عن أسباب هذه التصرفات وعن الغاية منها، فيبدأ هذا الشريك بالبحث والتحري ودافعه في ذلك شكه في أعمال ونيات الطرف الآخر.

وقد يكون هذا الطرف مريضًا بالشك مليئًا به، وليس ناشئًا من مناشئ عقلائية وإنما ناشئ مثلًا من غيرته المبالغ فيها! أو اعتقاده بقلة تدين والتزام الطرف الآخر الأخلاقي. أو لأنه شخص يشك أكثر مما يطمئن، ويظن أكثر مما يستيقن، وقد أشرنا إلى هذا النموذج من قبل، وأنه قد يكون حتى في الحياة العامة. فلا يعتقد

بوجود أحد نظيف أو طيب طاهر، بل قد ينظر إلى المصلي، ويقول: هو مراءٍ! وإلى المنفق، ويقول: هو منافق صاحب منفعة، وهكذا..

ويعرف هذا الطرف الثاني بسهولة ذلك أنك لو عرضت نفس المعطيات والملاحظات التي أشعلت عنده نار الشك على غيره لرآها أمورا طبيعية ولا تستحق هذا الشك! وأنه لو اتبع القاعدة الدينية بحملها على المحمل الحسن لما أتعب نفسه وأتعب غيره..

مثلا لوكان الزوج مصابا بهذه النحو من الشك المضاعف، ورأى زوجته تأخذ تلفونها وتخرج من الغرفة، ثم تتكلم في الصالة بعدما كانت معه في غرفة النوم! بدلا من حمل هذا الفعل على المحمل الحسن، بأنها لا تريد أن تعكر عليّ استراحتي ونومي! وهذا أحد المحامل الحسنة[1] التي أمر الإنسان أن يحمل فعل أخيه عليه، وأقرب من يحتاجون إلى ذلك هو الزوجة! بدلا من ذلك يقول هذا الشكاك شكًا مرَضيًا؛ إنها على علاقة محرمة مع شخص والآن هو موعد الاتصال بينهما! وفي رأيه أن أحد الأدلة على ذلك أنها تتم في الساعة العاشرة والنصف ليلًا! بينما قد لا تكون كل هذه المقدمات كافية عند غيره لينبعث مارد الشك في نفسه! فخروجها من الغرفة ليس (دليلًا) ولا أن الوقت المذكور فيه علامة!

إن مثل هؤلاء الشكاكين، سواء كان رجلًا أو امرأة، يعتبر وجود كلمة سر على فتح الهاتف النقال! وكلمة سر على البريد الالكتروني دليلا على وجود (شيء) يريد الطرف الآخر إخفاءه! ولا بد أن يكون ذلك الشيء مريبًا! مع أنه يندر أن يجعل

---

(١) البروجردي؛ السيد حسين جامع أحاديث الشيعة ١٦ / ٣٤٥ عن أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وأنت تجد لها في الخير محملا.. وقد اشتهر: احمل عمل أخيك على سبعين محملا من الخير، وقد ذكر محدثون أنه لا يوجد هذا النص في كتب المدرستين. والله العالم.

إنسان وسائله الخاصة متاحة للجميع، خاصة أنه ليس واجبًا على الزوجة ولا على الزوج شرعًا، أن يطلع أي منهما الآخر على كل ما في هاتفه!

وتتعاظم المسألة فيمن يكون طبيعة عمله أنه يكون تحت الطلب التلفوني، مثل قسم من أطباء القلب بل غيرهم، أو فنيي الطوارئ، أو بعض العلماء أيام مواسم الحج والاستفتاءات، أو مدراء بعض الشركات التي تحتاج لقرارات فورية! فقد ترى زوجها يتأخر في جواب مكالماتها عندما يكون خارج المنزل بينما يسارع إلى الرد على هذه الاتصالات عندما يكون في المنزل!

والمريض بالشك كما قلنا ـ سواء كان رجلا أو امرأة ـ ليس عنده قواعد يعتمد عليها! فإذا تكلم شريكه باختصار في حضوره مع طرف آخر، تصوّر هذا الشكاك بأن الحديث الأصلي المطول بينهما سيكون في غيابه، وإذا أطال في حديثه فكّر في أنه ماذا يعني أن تتكلم زوجته مع رجل أجنبي عشر دقائق أو يتكلم زوجها مع امرأة اجنبية عشر دقائق؟

إذا تأخر في الوصول إلى عمله! شكت في سبب هذا التأخر.. لماذا تأخر نصف ساعة، وإذا سبق غيره في التبكير للذهاب شكت في مبرر هذا التبكير! وهكذا.. مع أن للتأخر أسبابا عادية كثيرة، كالزحام، والاصطدام، وتعطل السيارة، وتذكر أحد الأعمال، ومرافقة شخص.. الخ. لكن ذلك بالنسبة لها يعني شيئا آخر، وهكذا لو انعكس الأمر وكان الزوج هو المصاب بالشك المفرط!

ومن علائم الشك المَرَضي والشكاك الانشغال بالتفتيش لإثبات سوء ظنه. فبينما يطرد الإنسان الطبيعي الوساوس والشكوك، ويستعيذ بالله من الشيطان الذي يغذيها ويذكيها، (فإن الشكوك لواقح الفتن ومكدرة لصفو المنائح والمنن)، ويبحث عن اليقين والاسترخاء والصفاء في منزله، يعكس الشكاك ذلك، ويبحث

ويتحرى لا للوصول إلى الحقيقة، وإنما لإثبات سوء ظنه، ويتمنى أنه يصل إلى ما أساء الظن فيه حتى يقول: كان شكي في محله! وأنا كنت صادقا وذكيا من أول الأمر! وربما يتأذى لو عثر على براهين تخالف ما كان يظنه سيئا! بل لم يقتنع بذلك وإنما واصل التفتيش لعله يعثر على ما يؤكد سوء ظنه!

وهذا من العجيب فإن الإنسان الطبيعي يحاول الدفاع عن نفسه وعرضه وشخصيته ومن يرتبط به، وربما دفع الأموال وقدم التضحيات من أجل ذلك، بينما صار همُّ هذا الشكاك وسعيه أن يحصل على أدلة تؤكد شكوكه حتى لو دفع أموالا من أجل ذلك!!

فإذا أضيف إلى ذلك ما سبق ذكره من أنه يعتبر ما لا دليلية فيه برهانا قاطعا وحجة دامغة وهو يريد الوصول إلى هذه النتيجة، سترى عزيزي القارئ عزيزتي القارئة كيف سيكون الأمر! بينما يأمر الدين هذا الشخص وأشباهه بأن: «كذب سمعك وبصرك وصدق أخاك المؤمن»[1] الذي ينفي التهمة وينزه عن الفاحشة والسوء! ومن الواضح هنا أنه ليس المقصود الأخ النسبي ولا الرجل دون المرأة وإنما من ترتبط معه بعلاقة الايمان فـ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]، والزوجة ترتبط معك برباط الزوجية ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾[3] بالإضافة إلى رباط الايمان، فهي أولى بالحديث المذكور ممن يرتبط معك برباط واحد.

---

(١) الكليني؛ الكافي – ط الاسلامية ٨ / ١٤٧: عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك الرجل من إخواني يبلغني عنه الشيء الذي أكرهه فأساله عن ذلك فينكر ذلك وقد أخبرني عنه قوم ثقات فقال لي: يا محمد كذب سمعك وبصرك عن أخيك فإن شهد عندك خمسون قسامة وقال لك قولا فصدّقه وكذبهم لا تذيعن عليه شيئا تشينه به وتهدم به مروءته فتكون من الذين قال الله في كتابه: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾.

(٢) الحجرات: ١٠.

(٣) النساء: ٢١.

نعم من المهم هنا أن نقول إن أحد الشريكين إذا رأى من الطرف الآخر إفراطًا في الشك، فينبغي أن يبدد هذه الشكوك قدر الامكان، لو لم يعمل من حوله بمقتضى التوجيه الديني في حسن الظن وحمل أفعاله على الصحة فليسع هذا الشريك لإزالة الشك قدر الامكان، من الحصول أصلا وأن يدفعه بما يستطيع بعد حصوله من الطرف الشكاك، كما نقل من فعل نبينا المصطفى محمدا ﷺ عندما كلم صفية زوجته .

ففي الخبر كما نقل عن الإمام زين العابدين عليه السلام «أن صفية[١]زوج النبيّ ﷺ أخبرته أنها جاءت الى رسول اللّه ﷺ وهو معتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان ثمّ قامت لتنقلب (ترجع لبيتها). فقام معها رسول اللّه ﷺ يقلبها ـ حتّى اذا بلغ قريبا من باب المسجد عند باب أمّ سلمة زوج النبيّ ﷺ مرّ به رجلان من الانصار فسلما على رسول اللّه ﷺ ثمّ نفذا فقال لهما رسول اللّه ﷺ على رِسلكما إنمّا هي صفية بنت حي قالا: سبحان اللّه يا رسول اللّه! وكبُر عليهما ذلك فقال رسول اللّه ﷺ: انّ الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم وانّي خشيت ان يقذف في قلوبكما شيئًا».[٢]

ولا تجسسوا:

بعدما أمر القرآن الكريم المؤمنين بترك الظن السيء، وهو الذي عبر عنه بـ ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ معلّلًا ذلك بـ ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ نهى عن التجسس

---

(١) صفية بنت حيي بن اخطب: تزوجها النبي ﷺ بعدما أسرت على أثر هزيمة اليهود في خيبر سنة ٧ هـ فاعتقها النبي وتزوجها وبالرغم من معاناتها مع بعض نسائه الا ان النبي كان يفهمها انها من سلالة الانبياء والاوصياء. قيل إنها كانت تقول للنبي في مرضه الذي توفي فيه: « أما والله، يا نبي الله! لوددت أن الذي بك بي». اختلف في تاريخ وفاتها اختلافا واسعا ما بين سنة ٣٦ و٥٠ هـ.

(٢) العطاردي؛ الشيخ عزيز الله: مسند الإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام ٢/ ٢٠٥.

فقال (ولا تجسسوا) وذلك لما بين سوء الظن والتشكيك في الشخص وبين التجسس والتفتيش عن أحوال من يُظن به السوء! وترى هذا الشخص بعدما يسيء الظن لا بد أن يبحث ويفتش ويتجسس على الشخص الآخر ليجد له عثرة أو زلة يصدق بها سوء ظنه فيه! فإن وجد وإلا استمر في ذلك، فيبتلى بمحذور آخر ومحرم ثان وهو التجسس عليه والمراقبة له، وتسجيل عثراته، فإن كانت زوجة فتش هاتفها، وإن كان زوجًا قلّبت أوراقه وفتحت صناديقه! وحاولت في معرفة رسائله وحساباته الالكترونية.. وهكذا! وإن عثر أو عثرت على عثرة أو زلة فإن طريقها ليس أن تكتم وإنما أن تنقل إلى هذا وذاك ولهذا نهى القرآن عن المرحلة الثالثة بالقول (ولا يغتب بعضكم بعضا).. هذا هو المسار السيء للشك والتسلسل اللا أخلاقي فيه.

وأما ما ينبغي أن يُعمل في نظر الاسلام، فإنه لو حصل شك، يُنظر هل لهذا مناشئ عقلائية أو هو عبارة عن توهمات، فإن كان الثاني تم إهماله وحذفه بالكامل حتى لا يفسد صفو الحياة الزوجية، وإن كان له مناشئ تحدث مع صاحب العلاقة (زوجًا كان أو زوجة) فإن نفى الموضوع فهنا يأتي: كذّب سمعك وبصرك وصدق أخاك المؤمن.. ولا تظنن بأخيك سوءً وأنت تجد له في الخير محملا! واجتنب الكثير من الظنون وقد يكون منها ظنك هذا، وينبغي للطرف الآخر الذي تعلق الشك وسوء الظن به أن يسعى لإبعاد التهمة عن نفسه بإخراج نفسه من مواضع التهمة وتوضيح الأمور المغلقة قدر الامكان!

ما بعد الزواج يختلف عما قبله:

وهنا أرى من الضروري الاشارة إلى نقطة مهمة، وهي أن على كل طرف في الحياة الزوجية أن يتفهم طبيعة الحياة الجديدة التي يعيشها، وأنها تقتضي سلوكا وطريقة حياة قد لا تتفق مع تمام تفاصيل الحياة السابقة على الزواج! فإن الزوجة

التي كانت تعيش حياة منفتحة بشكل كبير على أبناء عمومتها مثلا أو أقاربها عموما أو زملاء العمل، لا بد أن تفهم أن المعادلة تغيرت بنحو ما.. في السابق كانت تعيش حياتها بمفردها وتتخذ قراراتها وطريقة إدارة حياتها من انفتاح أو انغلاق بمفردها، لكنها اليوم شريكة حياة شخص آخر وقد لا يستطيع تحمل أو هضم هذا المقدار من الانفتاح! وقد يكون عليها الاختيار بين سلامة حياتها الزوجية أو الاصرار على طريقتها السابقة! وإلا فإنها ستزيد من نسبة الشكوك والظنون وهي لواقح الفتن والمشاكل!

والكلام نفسه يأتي في شأن الرجل، فقد يكون طريقة حديثه وتلطفه مع زميلات عمله في سابق أيامه قبل الزواج لا يسبب من المشاكل ما يسببها الآن وهو متزوج وزوجته تسمع مثل تلك الألفاظ والضحكات وما شابه.. إنه ليثير في نفس الكثيرات من الشك وسوء الظن ما هو ليس بحاجة إليه!

فإذا كان هناك تفاهم بينك وبين زميلتك في شأن عملي فليكن في مكان العمل قدر الامكان، وليكن أيضًا في حدوده العملية.. أما الدخول في الخاص والتطويل والتعريض والاستلذاذ بالنكات وإنفاق الوقت في ذلك لا سيما بمرأى من الزوجة، لهو مما يقدح فتيل الشك وسوء الظن ويشعل أوار الغيرة ويسبب المشاكل.

الشك والوسوسة في العبادات

ورد في الخبر المعتبر، عن عبد الله بن سنان، قال: قلت لأبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام: «رَجُلٌ مُبْتَلَى بِالوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ، وَهُوَ رَجُلٌ عَاقِلٌ، فَقَالَ -أي الإمام الصادق-: وَأَيُّ عَقْلٍ لَهُ وَهُوَ يُطِيعُ الشَّيْطَان، قلت: وَكَيفَ يُطِيعُ الشَّيْطَان؟ قَالَ: سَلْهُ، هَذَا الَّذِي يَأْتِي لَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ؟ فَإِنَّهُ يَقُولُ لَكَ: مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»[1].

الرواية واضحة حيث يسأل فيها عبد الله بن سنان الإمامَ جعفرا الصادق عليه السلام، ويقول له: أن رجلا من إخوانه مبتلى بكثرة الشك والوسوسة في موضوع الوضوء والصلاة، يكرر الوضوء مرة بعد أخرى ويشك فيه ويعيد، وهكذا الحال بالنسبة للصلاة وقد وصل إلى حد الابتلاء! هذا مع أنه رجل عاقل فاهم!. وقد فاجأه الإمام بفكرتين؛ الأولى أنه ليس بعاقل تمام العقل إذا كان يعمل هكذا! والثانية أنه يعبد الشيطان!

وأمام هذه المفاجأة المركبة! التي أدهشت ابن سنان باعتبار أنه يعرف الرجل من العباد والمتقدسين فكيف يصفه الإمام بأنه من عبدة الشيطان ومطيعيه؟ أخبره

---

(١) الكليني؛ الكافي- ط الاسلامية ١ / ١٢.

الإمام بمعادلة بسيطة وهي أن من يترك التوجيه الالهي الديني الذي يجعل كثير الشك لا أثر لشكه ولا يجوز له أن يعتني به، وبدلا من ذلك يلتزم بتسويل الشيطان وتشكيك إبليس ويعيد الوضوء بأمر عدو الله ويعيد الصلاة كذلك بأمر عدو الله.. فإنه حينئذ لا يطيع الله وإنما يطيع الشيطان!

وأعطاه ميزانًا لكل من هو مبتلى بهذا الداء: (سَلْهُ، هَذَا الَّذِي يَأْتِي لَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ؟ فَإِنَّهُ يَقُولُ لَكَ: مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) أي: اسأله، هذا الذي يقول له: أعد الوضوء، فوضوؤك باطل، إنك لم تغسل اليد اليمنى، أو اليسرى، وأن الماء لم يصل إلى كل العضو.. من أين يأتيه؟ هل هو وحي ينزل عليه؟ سيقول لك: هو من عمل الشيطان!! إن الله قال له: اغسل يدك مرة واحدة وللاستحباب مرتين ولا يجوز أكثر من ذلك فإذا قال له الشيطان اغسلها خمس مرات! وغسل مرات خمس.. فهل أطاع الله هنا أو أطاع الشيطان؟

كثرة الشك في الأمور العبادية:

قد سبق أن ذكرنا أن الدين لا يعطي الشك قيمة إيجابية، وإنما يعطي لليقين القيمة المهمة، لا سيما في أمور العقائد والايمان، فإن آيات القرآن الكريم تشير إلى اليقين وأصحابه بعين الاجلال والاحترام،[1] وفي مقابل ذلك تنعت أهل الشك في عقائد الايمان بمن في قلوبهم مرض تارة، وزيغ أخرى وتشير إليهم اشارات ناقدة.

---

(١) آيات تشير إلى احترام اليقين والمستيقنين ذكر بعضهم أن لفظة اليقين وردت في القرآن الكريم ثلاث وعشرين مرة بصيغ مختلفة، منها .﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ٢٠ الجاثية، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ٢٤ السجدة، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ٧٥ الأنعام.

وفي الروايات ما عن رسول الله ﷺ: أَلَا إِنَّ النَّاسَ لَم يُؤتَوا في الدُّنيا شَيئاً خَيراً مِن اليَقين والعافِيَة فاسأَلُوهُما اللهَ.

ولا يختلف الحال في الأفعال العبادية عنه في الأمور العقائدية، فقد أراد الدين من الإنسان أيضًا أن يؤدي عمله العبادي وهو على اطمئنان قدر الإمكان. وألّا يعيش حالة التشكيك والتردد. بل حتى في الحياة العامة، جاءت وصايا الدين على ترك التردد والتشكيك، وأن الإنسان إذا أراد أن يقدم على شيء، فليدرسه ويتأمل فيه، ثم ليقدم عليه ولا تلتفت إلى جهات التردد.

وعلى فرض أنه ما انتهى فيه إلى نتيجة جازمة، فليستشر أهل الرأي والحكمة، ويعمل برأيهم ولا يتردد. وعلى فرض اختلافهم في التقدير والرأي، وعدم الوصول إلى نتيجة موحدة، حتى هنا يقول لك الدين، لا تبق مترددا! اذهب واعمل بالاستخارة! فالبقاء مع التردد يعني اللا قرار وهو يعطل حركة الإنسان هذا بالنسبة إلى الحياة العامة.

والغرض مما سبق أن نؤكد على أن الدين يريد اخراج الإنسان من حالة الشك والقلق والتردد، والمصير به قدر الامكان إلى حالة اليقين أو على الأقل الاطمئنان، وأدنى الدرجات أن يوجد له طريقًا عمليًا ووظيفة مشروعة في وقت الشك والتردد.

وفيما يرتبط بالأعمال العبادية، قد تعرض صفة الشك، باعتبار أن العبادة تتكون من أعمال سواء كانت مستقلة كالوضوء أو غير مستقلة كالركوع في الصلاة والسجود فيها.. وأمثال ذلك. وهذه كلها من الممكن أن يطرأ على العامل بها شك أو ترديد. وينقسم الناس بحسب ضعف وشدة الشك إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أصحاب الشك المتعارف والاعتيادي، حيث يعرض عليهم في بعض الأعمال شك أو ترديد لكن الصورة العامة لهم أن أعمالهم خالية من الترديد والشك.

الثاني: المبتلى بكثرة الشك في خصوص الصلاة ويسمى كثير الشك.

والثالث: الوسواسي والذي يشك في كل الأمور العبادية التي ينشغل بها.

والقسم الأول: قد لا يخلو منه أحد من الناس، ولو في بعض الفترات أو الأعمال، وذلك راجع غالبًا إلى أن ذهن الإنسان لا ينشغل في أمور متعددة في وقت واحد إلا غفل عن بعضها ولعل الآية المباركة ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[(١)] ناظرة إليه.

وهذا من علائم عجز الإنسان ونقصه من جهة وعظمة الله عز وجل وقدرته من جهة أخرى!

فلو نظرنا إلى عظمة الله عز وجل وكبير قدرته، وأنه يدبر تريليونات المخلوقات في وقت واحد، ولا يشغله شأن عن شأن. ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾[(٢)] فـ ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[(٣)]. كل هذا بل ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[(٤)].

وأما هذا الإنسان؛ أنا وأنت قد نفكر في ثلاثة أشياء في وقت واحد، فنضيع منها اثنين ويبقى واحد في الذهن. ونلاحظ أنه في الصلاة بمجرد أن نتذكر موضوعًا في أذهاننا ونفكر فيه كموقف حدث مع الزوجة أو الأولاد أو في العمل فلوهلة يفكر

(١) الأحزاب: ٤.

(٢) يونس: ٣١.

(٣) هود: ٦ .

(٤) فاطر: ١١.

فيه المصلي، فإذا به يضيع في أي ركعة هو؟ ذلك أنه ﴿ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.

ومن هنا يتطرق الشك إلى الإنسان في عباداته، ولقد أصبح الأمر واضحا هذه الأيام، فإن الاحصائيات تتحدث عن أن نسبة لا تقل عن ٤٠٪ من حوادث السيارات هي على أثر الانشغال بالهاتف النقال (الجوال) إن معنى ذلك أن الذهن حين انشغل بالجوال لم يستطع أن يلاحظ ما حوله فيحصل الحادث.. الأمر الذي دعا المؤسسات المرورية إلى منع استعماله أثناء القيادة إلا بكيفية خاصة! هذا مثال عرفي توضيحي عن انشغال الذهن وكيف يؤثر ذلك عليه في الغفلة عن أمور أخر.

فيكون هذا من مناشئ الابتلاء بالشك: ذلك أنه من جهة لا يستطيع أن يحبس فكره عن الانتقال وذهنه عن التخيل والتفكير، ومن جهة أخرى لا يستطيع أن يجمع بين الفكر في الصلاة وأفعالها والتوجه إليها كاملا، بين انتقال فكره وذهنه إلى أشياء مختلفة.. فيحصل أن يشك المصلي أو القائم بالعمل العبادي في أطراف هذا العمل وصحته!

وفي هذا المجال فقد قرر الشرع عددا من الأحكام والتشريعات تتلافى بقاء الشك وفساد العمل به:

القسم الأول:

إذا كنت لا تزال في محل الفعل المشكوك فيه ولم تتجاوزه بعد، يقول لك: ائت به!. مثلا لو كنت بعدما كبَّرت، لا تزال واقفا ولا تدري هل أتيت بسورة الفاتحة أو لا؟! فإنك لا تزال في المحل، يوجب عليك الشرع أن تأتي به بهذا الفعل المشكوك فيه لأنك لا زلت في المحل، فتأتي بذلك الجزء المشكوك فيه. وذلك لأن

استصحاب[(١)] عدم الاتيان بالفعل، ينبئك بأن الفعل لم يتم الاتيان به. فيترتب عليك الاتيان به وفعله. لكنك لو تجاوزت محله بأن ذهبت للركوع في المثال المتقدم، وقد شككت في أنك هل أتيت بالفاتحة أم لا؟ هنا يقول لك الحكم الشرعي: لقد تجاوزت محل التدارك، فلا تعتنِ بذلك الشك.

فإنك لو رجعت وأتيت بالفاتحة ثم ركعت من جديد لزدت ركوعًا تعمدًا وهو مبطل للصلاة. أو أتيت بالفاتحة وهويت إلى السجود فلم تأت بها في موضعها! كل ذلك والحال أنك إنما كنت شاكًّا فلا تعتن بهذا الشك مع تجاوزك للمحل.

وأوضح من ذلك في عدم الاعتناء بالشك هو ما إذا شككت بعدما انتهيت من الصلاة، في أنك هل اتيت بالفاتحة أو الركوع أو لم تأت بهما؟ أو أنك هل أتيت بهما بشكل صحيح أو غير صحيح، يأمرك الشرع عنا بعدم الاعتناء بهذا الشك.. لأنك فرغت من الصلاة.[(٢)]

---

(١) الاستصحاب: عرف بتعاريف كثيرة قد يكون اوضحها الحكم ببقاء الحالة السابقة وترتيب الآثار الشرعية عليها كما لو كانت موجودة فعلا.. فلو كانت الحالة السابقة هي الطهارة وشك في حدوث النجاسة فإنه يبني على بقاء الطهارة ولا يلتفت الى الشك الحادث. وفي مثالنا في المتن فإن الحالة السابقة كانت عدم الاتيان بالفعل وهو يشك الآن في الاتيان به ويبني على بقاء الحالة السابقة وهي عدم الاتيان.

(٢) معنى قاعدة التجاوز كما قال السيد المصطفوي في كتابه: مائة قاعدة فقهية ١ / ٨٥ هو: أنه إذا شك المكلف في تحقق جزء من العبادات بعد تجاوز المحل فلا يعتني بشكه ولا يترتب على الشك أي أثر.. وقد اوضحتها بالمثال صحيحة زرارة بن أعين قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: رجل شك في الأذان وقد دخل في الإقامة وقد كبر، قال عليه السلام: يمضي. قلت: رجل شك في الأذان والإقامة وقد كبر، قال عليه السلام: يمضي. قلت: رجل شك في التكبير وقد قرأ، قال: عليه السلام: يمضي. قلت: شك في القراءة وقد ركع، قال عليه السلام: يمضي. قلت: شك في الركوع وقد سجد، قال: يمضي على صلاته، ثم قال: يا زرارة إذا خرجت من شيء ثم دخلت في غيره فشكك ليس بشيء.

وأما قاعدة الفراغ: فهي بغض النظر عن اتحادها مع قاعدة التجاوز وعدمه ما يكون الشك في الجزء

وقد يكون الشك في الركعات.. ولبحث هذه المسائل تفصيلا تراجع الرسالة العملية التي تحتوي على تفاصيل الأحكام.. فلم يكن الغرض إلا الإشارة إلى بعض ما قرره الشارع المقدس للقضاء على آثار الشك ونتائجه؟

وهذه الأحكام ترتبط بصاحب الشك المتعارف، مثل كثير من الناس.

القسم الثاني:

كثير الشك. وهو الذي يكثر شكه أكثر من المتعارف، عند سائر الناس لكن يوجد منشأ عقلائي لشكه، كما قد يحصل لمن انشغل فكره بمرض ولده أو والده المستعصي، أو من يطلب للمحاكمة ويخشى السجن على أثر ذلك، أو من خسر في قضية تجارية ولحقته الديون أو من لديه مشكلة زوجية سيطرت على تفكيره.. وهكذا! فإنه قد يشك في كل صلاة يصليها! أو يسهو عن أفعالها، ويكون مستغرَقا بالكامل في تلك القضايا!

وقد عُرِّف بأنه: من لا تمضي عليه ثلاث صلوات إلا ويشك في واحدة منها. أو يشك في الصلاة الواحدة ثلاث مرات وبعضهم أرجعه إلى العرف.. ووظيفة هذا من الناحية الشرعية ألّا يعتني بشكه في المورد الذي يشك فيه. فيبني على وقوع المشكوك فيه إلا إذا كان وجوده مفسداً أو موجباً لكلفة زائدة كسجود السهو فيبني على عدمه.

والفرق يتبين بينه وبين صاحب الشك المتعارف، فلو كان كثير الشك في القراءة والآن هو واقف يشك في هل قرأ الفاتحة أو لم يقرأها فإن صاحب الشك المتعارف (الإنسان الطبيعي) يجب عليه أن يعتني وأن يقرأ الفاتحة ثم يركع، بينما كثير الشك

العبادي (وجودا او صحة) بعد الفراغ من العبادة.

في الفاتحة لا يعتني ويقول: لقد قرأت الفاتحة ولا حاجة لقراءتها! وهكذا لو كان كثير الشك في الركوع وهو واقف الآن.. لو كان شكه عاديا يجب عليه الاتيان بالركوع كما سبق القول لأنه لا يزال في المحل، بينما كثير الشك هنا لا يعتني ويبني على وقوع المشكوك فيه وهو الركوع وأنه قد ركع فلا معنى لأن يركع من جديد!

والقسم الثالث:

وهو الوسواسي؛ وهو يتميز عن سابقيه بأن مناشئ شكه غير عقلانية، بحيث لو رآه أحد على حالته فإنه لا يجد له مبررا أو عذرا بخلاف السابق ـ كثير الشك ـ وأيضًا فهو لا يختص بشيء دون شيء وإنما وسوسته وتردده وشكه بحده الأعلى في أكثر الأمور، فهو وسواسي في الطهارة والصلاة كما هو في الحج وسائر العبادات وكما هو وسواسي وشكاك في الحياة الزوجية، بل إن الأطباء يتعاملون معه باعتباره مريضا ولا سيما إذا كان وسواسا قهريا،[1] ويحتاج إلى متابعة علاجية ودوائية!

وفيما يرتبط بالموضوع العبادي والحكم الفقهي، يقال: إن وظيفة الوسواسي ألّا يعتني بأي شيء. ويبني على أساس أن عمله صحيح. وما كان يجب على غيره، من التدارك ما دام في المحل أو ما شابه ذلك لا يجب عليه.

إذا كان الإمام الصادق عليه السلام قد عبر عن هذا النموذج بأنه يطيع الشيطان، فما ذاك إلا لأن نتيجة هذا الشخص هو أن يترك العبادة أصلا، أو يتركها في وقتها ولا

---

(١) موقع وزارة الصحة السعودية

https://www.moh.gov.sa/HealthAwareness/EducationalContent/Diseases/Mental/Pages/003.aspx:

الوسواس القهري هو نوع من الاضطرابات النفسية المرتبطة بالقلق، تتميز بأفكار ومخاوف غير منطقية (وسواسية) تؤدي إلى تكرار بعض التصرفات إجباريًا (قهريا)، مما يعوق الحياة اليومية.. / قرئ بتاريخ ١٨ رمضان ١٤٤١هـ.

ريب أن هذه هي بغية الشيطان وخطته، فهو كما يحصل لبعضهم يذهب لوضوء صلاة الفجر مع أذانه، ولا يخرج من الحمام متوضئًا إلا بعد خروج الوقت وشروق الشمس! فهل هذا أمر الله؟ ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾؟.

لقد نقل عن بعضهم أنه لم يذهب إلى الحج طيلة عمره مع تمكنه من ذلك، لأنه يقول إن أراضي مكة ومنى كلها نجسة فكيف أحج في مكان نجس، فربما بال شخص في هذه الأماكن ويكون عليها الماء فيما بعد فإذا مشيت عليها تنجس بدني أو ثياب احرامي! وهكذا الحال في منى حيث توجد دماء وغيرها! فانظر، كيف يلعب الشيطان بالإنسان إلى هذا المقدار. فيحرمه من الحج الذي يقول فيه القرآن: (وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)[1]، بزعم أنه يريد أن يحافظ على الطهارة ويجتنب النجاسة.

ماذا يصنع الوسواسي؟

قد يبتلى البعض بهذا البلاء في العبادات، فماذا يصنع؟

١. أن يتعرف على حالته ولو بمساعدة غيره، فإن قسمًا من هؤلاء قد يكونون غافلين عن وسوستهم ويعتبرون الأمر طبيعيًا فما دام يشك في النجاسة فعليه أن يطهرها! وما دام لم يأت بنظره بالغسل صحيحًا فعليه أن يعيده وهكذا! ومثل هذا لا بد من مساعدته في التعرف على أن وضعه غير طبيعي. والقسم الآخر يعرف نفسه ويعلم أنه غير طبيعي! وأن لديه وسواسًا في هذه الأمور العبادية. تحديد المكان والتعرف على الحالة ضروري لمعالجة آثارها.

٢. الاقتناع ولو عن طريق الناصح بأن هذا مرض وليس حالة صحية، بل هو

---

(١) آل عمران: ٩٧.

مذموم من قِبل الشرع الحنيف إلى الحد الذي يجعل المتورط فيه عبدًا مطيعًا للشيطان، بدل أن يكون عبدا طائعا لله! وأن هذه الممارسات وإن كان ظاهرها الورع والاحتياط إلا أن واقعها ينطوي على مبغوضية الباري سبحانه، عمله هذا في إعادة الصلاة والغسل والوضوء مرارا ليس عبادة، بل هو عمل شيطاني هو لا يقربك لله بل يبعدك عنه. «هذه الحالة حالة ذميمة عقلا وشرعًا لأنها خروج عن الوسطية والاعتدال وهدر لطاقات الإنسان من غير أن يجني منها فائدة، فالوسوسة ليست ضرباً من الورع والتقوى ولا عناية مرغوب فيها بأحكام الشرع المقدّس وانما هي نحو اختلال في ادراك الإنسان وضعف في نفسه وارادته واستسلام لإيحاءات الشيطان الخبيث كما اشير اليه في الحديث».[١]

٣. أن يُتفق معه على مرة واحدة في شيء. وبحدّ معين، لا تتوضأ من الحنفية، هات لك طاسة أو قنينة؛ ولا يُستقل هذا المقدار فإن النبي المصطفى ﷺ كما عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام (يتوضأ بمد ويغتسل بصاع)[٢] فهل ترى هذا أفضل من النبي في فعله، والمد تقريبا أقل من ٧٠٠ غرام أي ما يعادل ثلاثة أرباع اللتر!

وأن يلتفت إلى أن واجبه وحكمه الشرعي هو ذاك، وأن عليه أن يكبّر مرة واحدة للإحرام، وهكذا بالنسبة لباقي الأفعال. ولا بد من حزمه مع نفسه، وحزم أهله معه لتخليصه بذلك من قبضة الشيطان.

---

(١) موقع المرجع الديني الأعلى السيد علي السيستاني. قرئ بتاريخ ١٥ رمضان ١٤٤١
https://www.sistani.org/arabic/archive/414/

(٢) الحر العاملي؛ وسائل الشيعة ط الاسلامية ١ / ٣٣٨.

الغضب جمرة الشيطان

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(١)

هاتان الآيتان المباركتان، من سورة آل عمران، تبدءان بالحديث مع المؤمنين حول المسارعةِ الى أسباب المغفرة. فإن مغفرة الله سبحانه وتعالى هي من شؤونه عز وجل، وهي ليست بأيدينا حتى نسرع إليها وليست موجودةً مثلاً في مكان كالكعبة حتى نذهب إليها، وإنما نسارع الى الأسباب التي تنتهي بنا الى مغفرة الله عز وجل.

وكذلك الحال في مسارعة الإنسان إلى ما ينتهي به الى جنة عرضها السماوات والأرض. قد أعدت للمتقين. ومعنى أُعدت: كما يراه قسمٌ من المفسرين، بل لعل الأكثر منهم والمتكلمين؛ أن تلك الجنة حاضرةٌ وموجودة بالفعل الآن، لا أنها ستخلق يوم القيامة. ولكننا لا نراها لأن أجهزة إدراكنا قد أعدت بنحو تتخاطب مع

---

(١) آل عمران: ١٣٣ـ ١٣٤.

القضايا الدنيوية .ويكون حالها حال أكثر القضايا الغيبية كالملائكة وغيرها مما هي موجودة الآن تتنزل وتعرج وتحفظ وتتوفى وغير ذلك، ولكن لا نراها لأنّ أجهزتنا ليست معدة لهذا.

والغيب بالمعنى الأعم كثير جدا وإنما نتعرف عليه من خلال آثاره أو نستكشفه من خلال الأجهزة المساعدة.

وهذه الجنة المعدة والحاضرة الآن ليست لكل الخلائق وإنما جهزت وأعدت للمتقين الذين وصفهم القرآن بأنهم ينفقون في السراء والضراء، ونعتهم بالكاظمين الغيظ والعافين عن الناس.

والكاظم هو الذي يكظم الشيءَ، بمعنى أنه يُحكم عليه ويمسكه، قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة.(كَظَمَ) الْكَافُ وَالظَّاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، وَهُوَ الْإِمْسَاكُ وَالْجمعُ لِلشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ الْكَظْمُ: اجْتِرَاعُ الْغَيْظِ وَالْإِمْسَاكُ عَنْ إِبْدَائِهِ، وَكَأَنَّهُ يَجْمَعُهُ الْكَاظِمُ فِي جَوْفِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وَالْكُظُومُ: السُّكُوتُ.

ونلاحظ في الآية المباركة لا يقول في وصفهم أنهم لا يغضبون وإنما يقول يكظمون الغيظ، فهم يغضبون بمقتضى الطبيعة البشرية، لكنهم يسيطرون على ذلك الغضب، ويمسكونه ويحبسونه. ونجد شرحها في آية أخرى ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[١] ذلك أن الإنسان الطبيعي يمتلك غريزة الغضب، بل هي من ضروريات حياته.

إلا أن هذه الصفة التي قد تكون في أصلها من ضروريات الحياة الإنسانية، ربما

(١) الشورى: ٣٧.

تتحول بسوء إدارتها إلى قنبلة متفجرة، تدمر حياة الإنسان الأسرية، أو العملية، وأحيانا الشخصية، فإذا بصاحبها في مهاوي السجون، على أثر ارتكابه جرائم تحت تأثير الغضب وعدم السيطرة عليه.

وهناك الكثير أمام الإنسان مما يمكن أن يثير غضبه، من التهديد له، والكلام عليه بكلام سيء، والتدخل غير المناسب في أمور حياته، وتحديه، وغير ذلك. فإذا بهذا الإنسان الذي كان هادئًا راكدًا، تراه بعد وجود ذلك المثير الإغضابي قد أصبح في حالة متحفزة للانتقام، والمواجهة، لفظاً ويداً، وأحياناً مستعدا للقتل. هذه حالته النفسية.

كما تتأثر حالته البدنية أيضًا بشكل واضح، فإن الأطباء يقررون أن الإنسان في حالة الغضب يرتفع عنده مستوى الأدرينالين، والذي هو اشبه بالتهيئة في داخل النفس للمواجهة. علما بأن هذا الأنزيم إنما يرتفع في حالتين: حالة الخوف وحالة الغضب.

ويترتب على ارتفاعه، أن تزداد سرعة حركة الدم وعلى أثر تسارع نبضات القلب، كما تظهر آثار الغضب في وجوه الحيوانات والإنسان، بل حتى البدن بشكل عام في حالة الغضب لا يعود ذلك البدن المسترخي المسترسل، وإنما يشد أطرافه فأكتاف الغاضب غير أكتافه في حالة الرضا!

إن من اللازم أن نشير إلى أنه ليس كل غضب مذمومًا. فهناك الغضب الممدوح، وهو الغضب في الله ولله. كالغضب جراء انتهاك حرمات الله عز وجل، وهكذا الغضب الذي يتملك الإنسان على أثر تجاوز الظالمين على المظلومين والاعتداء عليهم، وهذا ما صدر من نبي الله موسى -على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام- عندما رجع ﴿مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ

بَعْدِي﴾.[1] وكان غضبه لأجل رسالته فإن كل هذه التضحيات التي قدمها من أجل أن يخرجهم من ظلمات الذل إلى نور العزة والايمان قد تبخرت بمجرد أن غاب عنهم لميقات ربه.. فإذا بهم يتخذون العجل إلٰهًا من دون الله عز وجل، لم تكن سوى أربعين ليلةً وإذا بهم قد قلبوا كل ما قد بناه وشيده من أجلهم!

هذا الغضب من موسى النبي عليه السلام غضب محمود وحسن. ولو لم يغضب لكان الأمر غير طبيعي على الاطلاق. الغضب الذي يشعر به المصلحون من أجل إصلاح أحوال الأمة هذا غضب محمود. فليس كل غضب سيئاً.

إنما الغضب الشخصي إذا كان بسبب أمور بسيطة هو غضب مذموم. كأن تمشي في الطريق ويصطدم بك أحدهم ممن يكون مشتت الفكر لمشكلة عنده! أو قلة التفات! فتغضب منه وتتجهز للمواجهة معه، هذا الغضب لا يمكن أن يكون ممدوحًا. ولو قال أحدهم ـ لاشتباه عنده أو انفعال ـ كلمةً سيئةً في حقك! فهل يسوقك الغضب لأن ترد عليه كما يقول بعضهم: إذا تُسمعني كلمة؛ أسمعك عشرة؟! لو حصل هذا فلا يمكن أن يكون غضبك ممدوحًا!

لماذا يغضبون؟

قد تتعجب عندما تسمع أن شخصًا أخذه الغضب بالطول والعَرض حتى خسر حياته الزوجية، ثم تفتش عن السبب الذي أثار غضبه فتراه سببًا تافهًا لا يستحق التفكير فيه فضلا عن تهديم الحياة الزوجية! وأحيانا تسمع عن جريمة قتل حدثت ثم تسمع عن أن سببها هو النزاع على لعبة من الالعاب الالكترونية! فما هي الأسباب التي تجعل هؤلاء يغضبون إلى هذه الدرجة؟

---

(١) الأعراف: ١٥٠.

١. من الأسباب التي تثير غضب البعض: الرغبة في الإخضاع حين لا تسير الأمور كما يحب الغاضب. وهذا راجع في جزء منه إلى تعاظم حب الذات عنده بحيث يجب أن تسير الأمور كما يشتهي. فإذا لم تسر الأمور هكذا لأن لكل أمر ظروفه ومعادلته الخاصة، فإن الواحد منهم يتوتر ويغضب ويصب غضبه على من هو مسؤول في ذلك! فتراه يتجهم ويتوتر حتى لأن الطريق مزدحم أثناء توجهه لعمله ولو عارضه شخصٌ في هذه الأثناء ولو بالخطأ وأخذ مكانه، فإن لن يسلم من نظرات الغضب وألفاظ السباب وربما نزل إليه (ليؤدبه!)، إن المفروض في رأيه أن يسيروا على جانب الطريق حتى يعبر هو بسرعة! فكيف يقوم أحدهم بسد الطريق عليه؟ إنها خطيئة لا تغتفر!

مثل هؤلاء يتساءلون بغضب: كيف حصل هذا؟ ومن الذي فعله بهذا النحو؟ حتى لو كان حصوله بذلك الشكل هو الحالة الطبيعية، لكنها غير مرضية بالنسبة له، لهذا يستنكر ويتوقع أنه كان ينبغي أن يحصل الأمر بالنحو الذي كان يريده هو!

٢. الاحساس المفرط بأنه تم التعدي على كرامته؛ وأنه لا يمكن أن يسمح بذلك مع أن القضية قد لا تستحق ـ عند غيره ـ ذلك المقدار من الغضب. فلو تجاوز أحدهم على مكانه في الصف، وتقدم عليه من أجل أن يشتري ربطة خبز، فقد يقيم معركة دونها داحس والغبراء، وقد نقلت بعض الجرائد حصول جريمة قتل بسبب النزاع على ذلك.. بينما عندما يناقشها أحد (العقلاء) يرى ان حدودها هي خمس دقائق زادت في مدة انتظاره وأن ذلك لا يستحق معركة قد يتضرر فيها!

لكنه هنا لا ينظر إليها بمنطق الدقائق الخمس، وإنما بمنطق أنه أهانه وتعدى على كرامته! وسلبه حقه.. الى غير ذلك.

عندما يقول لزوجته أو تقول له كلامًا قاسيًا! لا يقول إن هذه كلمات لا تلبث أن تتبخر مع الريح، وتختلط بترليونات الذبذبات الصوتية في عالم الدنيا لكي لا يبقى منها عين ولا أثر.. وإنما يرى أن شخصيته (!) قد أهينت. وكرامته قد حطمت وأن الموت خير له من الحياة بعد ذلك، فإذنْ لا بد أن ينتقم لنفسه، ويرد اعتباره، وتغذي هذه المشاعر المتشنجة حالة الغضب عنده ليرد الصاع صاعين وينتقم بما هو موجع للطرف الآخر، فإذا كان زوجا أو زوجة فليؤذه بالطلاق والانفصال. وإذا كان عاملا أو زميلا فليعاقبه بالطرد وهكذا.

٣. اقتناع البعض بأن الغضب هو الطريق الأحسن لمعالجة الأمور: حين يتربى الشخص تربية سيئة، يتعلم فيها أنك لا تستطيع أخذ ما تريد إلا بالغضب وأن الآخرين يخافون الإنسان الغاضب فيضطرون إلى تحقيق ما يريد. ويتعلم الطفل هذه الفكرة بدءًا من والده فإنه يراه إذا غضب على أمه وظل يصرخ عليها وعلى أولاده تسارعوا لتنفيذ طلباته بوجَلٍ، بينما لو خاطبهم بهدوء ومرح فإنه لا يحصل على شيء! فتتكون في ذهنه نظرة أن الغضب هو حلال المشاكل وهو مفتاح الأقفال! فيأخذ هذه الفكرة إلى كبره ويطبقها في حياته ضمن إطار الأسرة والمجتمع.

إن من المهم أن تسلب القيمة عن الغضب السلبي والشخصي، بحيث لا يصبح موضعًا للتفاخر والتباهي! وينبغي أن يكون في ذهن الناس صغارًا وكبارًا مسبة لا مفخرة! وسلب القيمة هذا هو ما نلاحظه في الأحاديث والروايات التي ذمته وذمت صاحبه:

فعن رسول الله ﷺ -لما استوصاه رجل-: لا تغضب، قال: ففكرت حين قال رسول الله ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله.

وعن الإمام عليٍّ عليه السلام: الغضب يثير كوامن الحقد. الغضب مركب الطيش. الغضب يردي صاحبه. بكثرة الغضب يكون الطيش. إياك والغضب، فأوله جنون وآخره ندم

وفي وصيته لعبد الله بن العباس عند استخلافه إياه على البصرة: وإياك والغضب، فإنه طيرة من الشيطان.

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: إن هذا الغضب جمرة من الشيطان تتوقد في قلب ابن آدم، وإن أحدكم إذا غضب احمرت عيناه، وانتفخت أوداجه، ودخل الشيطان فيه.

ولما سأل عبد الأعلى الإمام جعفرا الصادق عليه السلام: علمني عظة أتعظ بها! قال له: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه رجل فقال له: يا رسول الله علمني عظة أتعظ بها، فقال له: انطلق ولا تغضب، ثم أعاد إليه فقال له: انطلق ولا تغضب - ثلاث مرات ـ.[1]

هل يصح التبرير بالظروف الخاصة؟

ينبغي أن يشار هنا إلى أن الغضب أمر قبيح بالمقدار الذي تحدثت عنه الروايات وقد أوردنا قسمًا منها، فهو جنون، وندم، وجمرة من الشيطان، ومركب الطيش ومثير للأحقاد وسبب للهلاك، وباختصار فهو يجمع الشر كله!!

وهذه الصفات تنطبق عليه سواء كان الإنسان في ظرف عادي أو ظرف صعب.. فإن قسمًا من الناس يقولون لقد كنت جائعا أو صائما مدة ست عشرة ساعة!! فأغضبتني زوجتي فغضبت؟ أو كان رأسي يؤلمني فلم يفعل ما أردته منه فواجهته بكلمات غاضبة! أو أنني كنت في ظرف نفسي خاص فلا غرابة أن أكون غاضبًا!

(١) الأحاديث كلها من: ميزان الحكمة ٣/ ٢٢٦٥.

نقول بوضوح: كل هذه التبريرات غير صحيحة ولا نافعة في تخفيف قبح الغضب الشخصي والسلبي! هو شر كله وهو جمرة شيطان متقدة وهو جنون وهو مركب طيش وهلاك! بل إننا نعتقد أن هذه الروايات إنما جاءت لكي تحذر من الغضب في هذه الحالات الخاصة، وإلا فلو أن إنسانًا كان جالسا مرتاحًا وشبعانًا ومسترخيًا ولا مشكلة لديه فيغضب فجأة في هذا الظرف فإنه لا يكون عاقلًا بتاتًا! إنما يتوقع الغضب في حال الجوع والازدحام والألم وما شابه.. وهناك تقول الروايات إنه سيء ويحمل تلك السمات السلبية التي ذكرناها!

لذلك لا ينبغي أن يسمع تبرير البعض أنه كان كذا وكذا لذلك غضب! الغضب خطأ حتى في تلك الظروف! من الخطأ أن يفكر الغاضب بأن هناك مبررات طبيعية لغضبه (كالشمس المحرقة أو أنه لم ينم البارحة بما يكفي أو أنه صائم وجائع.. الخ) ومن الخطأ أن يقبل المجتمع تبريره، وأن يجد له عذرًا في غضبه! فإن هناك العشرات من أمثاله تمر بهم نفس الظروف ولا يجدون أنفسهم يصرخون بأعلى أصواتهم غضابًا، ولا يتصرفون بحدة من شدة الطيش بل يعالجون المسائل بهدوء قدر ما تتحمل.

إعلاء منزلة كظم الغيظ:

على عكس ما يفكر فيه من أن الغضب قوة، وأنه يخيف الآخرين، لا بد أن يقال: إن الغاضب ضعيف الشخصية! وهزيل القوة! فإن الذي لا يستطيع أن يسيطر على لسانه حال الغضب، وعلى يده، وعلى مواقفه، فإنه يعتبر فاقدا للقوة! وأما من يتحكم بأعصابه ويقدر على كظم غيظه فهذا هو القوي حقيقة!

لقد عظم النبي محمد ﷺ منزلة المسيطر على غضبه، عندما مر على جماعة يتصارعون ليروا أيهم أشد بأسًا وأقوى فقال لهم: ليس الشديد بالصرعة، إنما

الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب، وسأل ﷺ - أصحابه -: ما الصُّرَعة فيكم؟ قالوا: الشديد القوي الذي لا يوضع جنبه (على الأرض)، فقال: بل الصرعة حق الصرعة رجل وكز الشيطان في قلبه واشتد غضبه وظهر دمه، ثم ذكر الله فصرع بحلمه غضبه.

ماذا نصنع عندما نستغضَب؟

عندما يستثار الإنسان ويستغضب، فلكي يتجاوز آثار الغضب والانفعال به ينبغي أن يقوم بخطوات متعددة:

١. تذكر سلبيات الغضب، وأنه من الشيطان وأن آثاره ونتائجه مهلكة، فكم هدمت من عوائل وكم أزهقت أرواح على أثر الغضب ومن الممكن أن يكون غضب هذا الغاضب مؤديًا إلى إحدى تلك النتائج المؤسفة! وفي المقابل أن يتذكر سيرة الصالحين ممن مدحوا بكظم الغيظ كالذي نقل[١] عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين[٢] عليهما السلام.. حيث أن جارية له كانت تسكب عليه الماء[٣] فسقط الابريق من يدها فشجه فرفع رأسه إليها

---

(١) السيوطي؛ جلال الدين: الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٢١ / ٣١٧ ناقلا عن البيهقي، وكذلك فعل الآلوسي في روح المعاني وأما في تفاسير الشيعة فكل من فسر آية والكاظمين الغيظ قد ذكر قصة الإمام عليه السلام ومنهم الطبرسي في مجمع البيان وقبله الشيخ الصدوق في الأمالي ١/ ٢٦٩.

(٢) العجيب أن البعض قد نقلها في حق ميمون بن مهران الجزري كاتب عمر بن عبد العزيز إذ حلّ عليهضيف، فاستعجل جاريته بالعشاء؛ فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة من الثريد، فعثرت في ذيلها وأراقتها على رأس سيّدها ميمون، فقال: يا جارية أحرقتيني! قالت: يا معلّم الخير ومؤدّب الناس.. الى آخر القصة.

(٣) اختلفت عبارات الرواية هناك بين (تسكب عليه الماء..) وفي أخرى (ليتوضأ) وفي بعضها (للصلاة) وقد تأمل بعض الباحثين في هذه العبارة لجهة أن الاستعانة بالغير في الوضوء مكروهة لمنافاتها لبعض درجات الخلوص، بينما لم يرَ آخرون في ذلك بأسا لأن الصب هو من المقدمات البعيدة أو لأن هذه

فقالت الجارية إن الله تعالى يقول ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ..﴾ فقال: كظمت غيظي، قالت ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ..﴾ قال عفوت عنك! قالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى!

٢. ومن خطوات الوقاية من آثار الغضب ما ذكرته الروايات وهو تغيير الهيئة والمكان وظروف حالة الغضب. فقد ورد أنه ينبغي في مثل هذه الحالة أن يغير الإنسان من هيئته، فلو كان قائما فليجلس، وإلا بالعكس، وإن كان في مكان معين فليخرج من ذلك المكان، فإن تلك الأمور (بيئة الغضب) قد تساعد على اشتعال فتيله! فقد ورد عن رسول الله ﷺ (إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس؛ فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع).

ومثل ذلك عن أبي جعفر عليه السلام: (ان الرجل ليغضب فما يرضى أبدا حتى يدخل النار، وأيما رجل غضب على قومه وهو قائم فليجلس من فوره ذلك، فانه سيذهب عنه رجس الشيطان).

وتغيير المكان الذي حدث فيه المغاضبة والاشكال والانصراف عنه، فإذا كان حدث بين الطرفين مشكل في هذا المكتب فليذهب إلى مكتب آخر، أو ليخرج من العمل مؤقتًا إلى مكان آخر، ولو حصل بين الزوجين مغاضبة في صالة المنزل فلينصرف من يريد إسكات الغضب مثلا إلى غرفة النوم أو إلى فناء المنزل الخارجي، أو ليخرج خارج المنزل وهكذا!

٣. ومن ذلك ما إذا كانت المغاضبة بين طرفين بينهما علاقة رحمية، كأب وابن

الرواية تفيد بعدم محذور فيه، وإلا لما كان الإمام يفعله! ويحتمل أن تكون الكلمة يتوضأ لو كانت وحدها بالمعنى اللغوي وهو مطلق الغَسل وليس خاصا بالصلاة. ومما يهون الخطب أن نقل الحادثة ليس على يد معصوم وإنما هو بواسطة راوٍ.

أو أخوين أو أبناء عمومة، أو كان الزوجان من الأقارب، فإذا حصل بينهما مغاضبة وهو الغالب إذ كثرة الاختلاط وما يتبعها من الاختلاف هي في داخل العائلة.. فمما ينبغي فعله هنا الملامسة البدنية، فإن الرحم إذا لامست الرحم قرت وسكنت، ففي تتمة الحديث السابق عن الإمام أبي جعفر الباقر (..وأيّما رجل غضب على ذي رحم فليدن منه فليمسه، فان الرحم إذا مست سكنت)، ومثل ذلك قاله الإمام أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام لهارون الرشيد العباسي، عندما كان عازما على الفتك بالإمام عليه السلام.. فمس الإمام يده فسكن غضبه، وأخبره الإمام[1] بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله، في هذا المعنى.

٤. ومما يذكر أن له أثرًا في تخفيف الغضب وردع آثاره، إسباغ الوضوء، فإن للوضوء تأثيرًا نورانيًا على الإنسان ولهذا استحب للمؤمن أن يكون دائما على وضوء وطهارة، بالإضافة إلى تأثيره البدني، وقد عبر في بعض الأخبار عن الغضب بنار الشيطان، وبالجمرة المتوقدة فليكن ماء الوضوء هو المطفئ لتلك النار والجمرة! وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من النار، وإنما تُطْفأ النار بالماء، فإذا وجد أحدكم غضبًا فليتوضأ).

---

(١) الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢/ ٧٨، عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: انه قال: لما دخلت على الرشيد سلمت عليه فرد عليّ السلام ثم قال: يا موسى بن جعفر خليفتين يجبى اليهما الخراج؟! فقلت: يا أمير المؤمنين أعيذك بالله ان تبوء باثمي واثمك وتقبل الباطل من اعدائنا علينا فقد علمت انه قد كذب علينا منذ قبض رسول الله بما علم ذلك عندك فإن رأيت بقرابتك من رسول الله أن تأذن لي أحدثك بحديث أخبرني به أبي عن آبائه عن جده رسول الله فقال: قد اذنت لك فقلت: اخبرني أبي عن آبائه عن جده رسول الله أنه قال: إن الرحم إذا مست الرحم تحركت واضطربت فناولني يدك جعلني الله فداك فقال: ادن فدنوت منه فاخذ بيدي ثم جذبني الى نفسه وعانقني طويلا ثم تركني وقال: اجلس يا موسى فليس عليك بأس.

٥. وليتذكر غضب الله سبحانه وتعالى عليه لو ظلم غيره ممن هو أضعف منه. أيها الغاضب قد تغضب على ابنك فتصفعه، أو على زوجتك فتشتمها، أو على سائقك وعاملك فتؤذيه.. تذكر أن هناك من هو أقوى منك وأنه لو شاء إذا غضب عليك حطمك ولا يبالي! وكما تدين تدان.

هذا ما يقوله الحديث، حيث ينقل شيخنا الكليني في الكافي رواية عن أحدهم فيقول: سمعت أبا عبدالله يقول إن في التوراة[١]مكتوبا يا ابن آدم اذكرني حين تغضب، أذكرْك عند غضبي، فلا أمحقك في من أمحق واذا ظُلمت بمظلمة فارضَ بانتصاري لك، فإن انتصاري لك خيرٌ من انتصارك لنفسك.[٢]

(١) قد أشرنا في غير هذا الموضع إلى أن الإمام لا يحتاج إلى أن يستشهد على كلامه بالتوراة أو أقوال الأنبياء أو الأئمة الآخرين ولكنه يفعل هنا ليبين أن هذا من الأصول المشتركة بين أنبياء الله وأوصياء الرسل، وأن البرنامج هنا متفق.

(٢) الكليني؛ الكافي- ط الاسلامية ٢ / ٣٠٤.

الظلم ظلمات يوم القيامة

الظلم مما ورد النكير والوعيد على فاعله في القرآن الكريم وفي الروايات، ومعناه عند الناس واضح، ولكن أصله كما في معجم مقاييس اللغة[1]: (ظَلَمَ) الظَّاءُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا خِلَافُ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ، وَالْآخَرُ وَضْعُ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ تَعَدِّيًا.

ولعل المناسبة في أن يقترن المعنيان في أصلهما هو أداء الظلم إلى الظلمات في الدنيا والآخرة، وقد ورد عن النبي ﷺ (اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة).[2]

وللظلم تقسيمات متعددة بالقياس إلى الطرف الذي وقع عليه الظلم:

فقد يكون الظلم واقعًا بالقياس إلى الله سبحانه.

وقد يكون الظلم واقعًا من الإنسان لنفسه.

وقد يظلم الإنسان أشخاصًا آخرين.

---

(١) فارس؛ أحمد بن: معجم مقاييس اللغة ٣/ ٤٦٩.

(٢) المجلسي، العلامة محمد باقر: مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ١٠ / ٣٠١ وقد وصفه بالصحة.

القسم الأول:

فهناك كلام وخلاف في أنه هل يصح أن ينسب وقوع الظلم من العبد على الله تعالى؟ أو لا يصح. وقد ذهب اتجاه واسع من المفسرين إلى إنكار وقوع الظلم عليه سبحانه، وعدم تصحيح هذا التعبير، ورأوا أن الشرك بالله والذنوب التي يرتكبها العبد ليست إلا ظلمًا للعبد نفسه، ولا يقال فيها أنها ظلم للرب. وخطأوا من ثلّث الأقسام! .

فيما ذهب غيرهم إلى أن تعريف الظلم صادق هنا وواقع فهو (وَضْعُ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ تَعَدِّيًا) كما تقدم ولا ريب أن الشرك بالله هو وضع للشيء في غير موضعه وهو تعدٍّ على مقام الله سبحانه! وهكذا العصيان والتمرد على أوامر الله هو من وضع الشيء في غير موضعه فلقد كان يجب على العبد أن يتمرد على الشيطان وأن يعصيه وفي المقابل يسلم لأمر الله ويطيعه، فلما عكس ذلك، متعديًا كان ظالمًا لربه.

صحيح أن الله تعالى لا يتأثر، ولا يرد عليه النقص، لو قام العبد بتلك الأعمال، فالله سبحانه وتعالى هو الغني كما لا تنفعه طاعة من أطاعه لا تضره معصية من عصاه!

وقد ورد وصف الكافرين بالظالمين، وهكذا وصف الشرك بأنه ظلم عظيم! وقد استفاد منها أصحاب هذا الاتجاه بأن المقصود منها الظلم الصادر من العبد إلى مقام الله تعالى، وإن كان الله تعالى لا يتأثر بذلك لكن هذا الفعل ظلم، وقد صرح الراغب الاصفهاني في تفسيره بهذا المعنى بقوله « لما كانت العدالة بالقول المجمل ثلاث: عدالة بين الإنسان ونفسه، وعدالة بينه وبين الناس، وعدالة بينه وبين الله تعالى، كذلك للظلم ثلاثة في مقابلتها وأعظم العدالة ما بين الإنسان وبين

الله وهو الإيمان، وأعظم الظلم ما في مقابلته وهو الكفر، فلذلك قال: ﴿والكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.[١]

بل، حتى لو لم يكن هناك جحود أو إنكار، وإنما كان عدم الإفراد له بالعبادة، وجعل الشركاء له فهذا أيضًا يعتبر ظلما، كما قال لقمان لابنه: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ).[٢]فأنت تضع من لا يستحق شيئا إلى جانب صاحب القدرة المطلقة. وتجعل الأصنام البشرية والحجرية إلى جانب ربك. وهذا وضع للشيء في غير موضعه. وقد يكون في كلام صاحب تفسير الأمثل ما يفهم منه هذا وإن كان لم يصرح به، ولكنه لما تحدث عن الظلم ثم عن ظلم الإنسان نفسه، ربما كان مقصوده ما نحن بصدده، قال في شرح الآية المباركة «.. وأيّ ظلم أعظم منه، حيث جعلوا موجودات لا قيمة لها في مصافّ الله ودرجته، هذا من جانب، ومن جانب آخر يجرّون الناس إلى الضلال والانحراف، ويظلمونهم بجناياتهم وجرائمهم، وهم يظلمون أنفسهم أيضًا حيث ينزلونها من قمّة عزّة العبودية لله ويهوون بها إلى منحدر ذلّة العبودية لغيره».[٣]

ولعل القائلين بعدم صحة هذا التقسيم، يريدون النجاة من محذور أن يكون الله سبحانه محلا للحوادث والوقائع عليه، ومثلما العبد عندما يُظلم يتأثر في بدنه أو نفسه أو ماله، فإذا قلنا بأن الله يقع عليه الظلم يحصل مثل هذا التوهم!

القسم الثاني:

حين يظلم الإنسان قد يظلم نفسه. بجعلها في غير موضعها تعديا، فبينما خلق

---

(١) الاصفهاني؛ الراغب تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٥٢٢.

(٢) لقمان: ١٣.

(٣) الشيرازي؛ الشيخ ناصر مكارم: الامثل في تفسير كتاب الله المنزل ١٣ / ٣٦.

هذا الإنسان لأجل عبادة الله وطاعته ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١). فإذا جعل الإنسان نفسه، في غير هذا المقام، بأن عصى الله، وعمل السيئات، وترك الواجبات، فإنه يكون قد ظلم نفسه بذلك. خاصة وأنها ستعذب بسبب ذلك، فهذه جهة أخرى تجعله ظالمًا.

قال: أبو عبد الله عليه السلام: وكتب رجل إلى أبي ذر رضي الله عنه يا أبا ذر أطرفني بشيء من العلم فكتب إليه أن العلم كثير ولكن إن قدرت ألّا تسيء إلى من تحبه فافعل، قال: فقال له الرجل: وهل رأيت أحدًا يسيء إلى من يحبه؟ فقال له: نعم نفسك أحب الأنفس إليك فإذا أنت عصيت الله فقد أسأت إليها.(٢)

ومن المناسب هنا أن نقف قليلا أمام هذه الرواية لنقتطف منها ثمارًا:

أ. إن نقل الإمام أبي عبد الله الصادق وهو المعصوم، عن أبي ذرّ (شيئًا من العلم) ليدل على مرتبة أبي ذر الغفاري رضوان الله عليه العالية في مدرسة أهل البيت ولدى أئمتهم عليهم السلام، في مقابل الاتجاه الرسمي للخلفاء الذي يحاول اظهار أبي ذر الغفاري باعتباره شخصية فوضوية مسببة للمتاعب، ولم يكن له حظ من العلم حتى أن بعض الصحاح اقتصرت على نقل حديثين (!) عنه، في الوقت الذي نسب لأمير المؤمنين عليه السلام قوله إنه (وعاء ملئ علمًا)!

ب. إن أبا ذر يعلم أن (العلم كثير) ولكنه يعظه بما هو مناسب له في مسيرة حياته، فإننا في الوقت الذي نرى البعض لا يرى (العلم) في غير الأمور النظرية المجردة، التي لا تؤثر في حياة الإنسان الاخلاقية ومصيره الأخروي.. يرى أبو ذر أن هذا هو العلم الطريف!

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) الكليني؛ الكافي ٢/ ٤٥٨.

ج. نصيحته السائل بأن لا يسيء إلى أحب الناس إليه ولا يؤذيها! وهذا من الأساليب المثيرة للاهتمام والمبقية للموعظة في الذهن ولذلك أعاد السائل الكلام متعجبا: ويؤذي الإنسان أحب الناس إليه؟! قال: بلى، نفسك التي بين جنبيك. لا تؤذ نفسك، لا تظلمها بأن تأتي يوم القيامة وقد عملت أعمالًا سيئة، فتعرضها للعذاب.

وقد أشار القرآن الكريم صراحة إلى أن الظالمين لا يظلمون غيرهم في الواقع، وإن كان الظاهر يشير إلى ذلك، وإنما يظلمون أنفسهم بتعريضها للعذاب الأبدي! وقد كان ينبغي أن يحرصوا على نجاة أنفسهم. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.[1] وكذلك فإنه سبحانه وتعالى حين ينفي عن ذاته المقدسة الظلمَ ينسبه إلى فعل العاصين بأنفسهم ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.[2]

القسم الثالث:

قد يكون الظلم للغير في الحياة الاجتماعية. وهذا هو ميدان الحياة، والإنسان معرض فيه للامتحان طيلة عمره وربما على مدار اليوم! ففي داخل الأسرة قد يظلم الزوج زوجته، أو الزوجة تظلم زوجها، والأب أبناءه، أو يظلم الأبناء أباهم. والأخ الأكبر سائر اخوانه أو عكس ذلك، وفيما بين الأقارب..

وكذلك الحال في خارج الأسرة، فقد يكون لديك عامل، (أو لديكِ عاملة) فيؤخر راتبه عن وقته، أو أسوأ من ذلك حين يجحده حقه، أو يستعمله بما لم يكن في ضمن الاتفاق بينهما من غير رضاه! أو يمنعه من الترقي المستحق له في الرتبة

---

(١) البقرة: ٥٧.

(٢) يونس: ٤٤.

والراتب.. وقد تنعكس المسألة في بعض الأحيان بظلم العامل رب العمل، عندما يقصر في العمل الموكل إليه، أو بالغش فيه، أو وهو الأسوأ بسرقة شيء من المتاع.

وقد يكون الظلم بين الرعية وحاكمها عندما يستبد بالأمر دونها، أو يحتجب أموالها.

أين تمت لعنة الظالمين؟

من الطبيعي أن نجد في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي توبخ الظالمين وتحذر من الظلم، إلا أن من الأمور الملفتة للنظر والمستوقفة للتأمل، هي أنه تم ذكر الظالمين باللعنة في مواضع هي أوج تجلي قدرة الله سبحانه مع أنه –بحسب الظاهر– لا توجد مناسبة ظاهرية بين هذا النداء والذكر وبين المناسبة والموقف، ولنورد بعض الأمثلة على ذلك:

ما ورد في الآية المباركة، في قصة الطوفان. إذ بعدما انتهى الطوفان، ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1]، فإن الآية هي أشبه بإسدال الستار على قصة الطوفان بأن ابتلعت الأرض المياه التي كانت بحجم موج كالبحار، وجفت بينما توقفت السماء عن الإمطار، واستوت السفينة راسية على جبل الجودي.. فيكون المناسب الآن مثلا؛ أن يحمد المؤمنون الواصلون إلى هذا المكان سالمين غانمين ربهم، ويقولوا: الحمد لله رب العالمين! أو أن يشار مثلا إلى نصر الله عز وجل لنبي الله نوح والمؤمنين معه. لكن الذي حدث هو أن تم النداء بـ: ﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾!.

بُعدًا وطردًا ولعنة للظالمين! هل هم أولئك الذين تجاوزوا الحد مع ربهم

---

(١) هود: ٤٤.

سبحانه وتعالى، وأشركوا به هل هم الكافرون ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، أو المشركون حيث: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أو هم الظَلَمَة، لأقاربهم والأبعدين أو هم من ظلموا أنفسهم؟ أو هم كل هؤلاء؟

والموضع الثاني: في يوم القيامة: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[1]، وعدنا الله الرحمة والمغفرة والجنة وصدقنا الله وعده ورأينا كل ذلك صحيحًا، وكنتم موعودين بالعذاب وجهنم، فهل رأيتم هذا الوعيد حقًا ووجدتموه حاضرًا؟ فقال أولئك: نعم، نحن أيضًا وجدنا ذلك ورأيناه، حينها ربما كان بادئ النظر يناسب أن يكون النداء مرتبطًا بما يثبت صدق الله في وعده ووعيده، وإنه لا يخلف الميعاد، لكن الغريب هنا أن المؤذن[2]أخبر الناس وأعلمهم بـ ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

في هذه المواقع، في مثل الانتصار في طوفان نوح، حيث تتجلى فيه عظمة الله وقدرة الله، في مثل يوم القيامة، يوم الجزاء والقصاص، في ذاك المكان، النداء الأصلي: (أن لعنة الله على الظالمين)، أو (بعدا للقوم الظالمين). وهناك موارد

---

(١) الأعراف:٤٤.

(٢) الطباطبائي؛ السيد محمد حسين: الميزان ٨/ ١٤٠ قال: في الكافي، وتفسير القمي، بإسناده‌هما عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ قال المؤذن أمير المؤمنين عليه السلام. أقول: ورواه العياشي، عنه عليه السلام ورواه في روضة الواعظين، عن الباقر عليه السلام قال: المؤذن علي عليه السلام.

وفي المعاني، بإسناده عن جابر الجعفي عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام قال: خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالكوفة منصرفه من النهروان وبلغه أن معاوية يسبه ويعيبه ويقتل أصحابه فقام خطيبا، وذكر الخطبة إلى أن قال فيها: وأنا المؤذن في الدنيا والآخرة قال الله عز وجل: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أنا ذلك المؤذن.

أخرى متعددة. لا نشير إليها الآن.

وأما الظلم في الروايات:

بالطبع لا نستطيع أن نستعرض كل ما جاء من الروايات في ذم الظلم والظالمين بل ولا عشر معشارها فإنها من الكثرة ما يمكن من وضع كتاب كبير في استقصائها، ولكن نورد شواهد منها فمن ذلك:

ما روي عن رسول الله ﷺ: بين الجنة والعبد سبع عِقاب[١]، أهونها الموت، قال أنس: قلت: يا رسول الله فما أصعبها؟ قال: الوقوف بين يدي الله عز وجل إذا تعلق المظلومون بالظالمين!

ولعل هذا الحديث يشرح ما ورد في الدعاء: «كيف وما بعد الموت أعظم وأدهى»، فالموت على صعوبته وشدته وخوف الناس منه إلا أنه يعتبر الحلقة الأسهل، والعقبة الأهون.. وأما الأصعب فهي: إذا تعلق المظلومون بالظالمين!

فهل تستحق (ألف ريال أو دولار) تظلم لها غيرك، وتسلبها منه، أن تقف ذلك الموقف حين يتعلق بك مظلومك ولا يتركك حتى يستوفي منك أضعافها مضاعفة في يوم أنت أحوج فيه لمن يزيد في ميزانك لا أن ينقص منه! وليس الأمر في شخص واحد وإنما هو بعدد من أخذت منهم طول عمرك تجمعوا عليك! وليس فقط في الجانب المالي بل في كل ظلم ظلمته، وكل مظلمة اجترحتها! فهنا شهادة زور! وهناك شتيمة شخص! وهناك إسقاط شخص عن موقعه! وهناك تآمر عليه! وهنا إيذاء له وضرب! وجحد حق له وإخفاء ميراث! وأمثال ذلك وكلها تجتمع؛ خصومك يجتمعون عليك؛ والدعاوى والشكاوى تجتمع عليك!

---

(١) جمع عقبة.

ومن أجل ماذا؟ يقول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام معلِّما ومهذِّبا (واللّه لأن أبيت على حسك السّعدان مسهّدًا، وأجرّ في الأغلال مصفّدًا أحبّ إليَّ من أن ألقى اللّه ورسوله يوم القيامة ظالمًا لبعض العباد، وغاصبًا لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحدًا لنفس يسرع إلى البلى قفولها ويطول في الثّرى حلولها..)؟[١]

لو حسبت الأمر حتى بالحساب التجاري لوجدت الأمر غير مناسب! فهذه الألف اشتريت بها مثلا عشر وجبات طعام! أو صرفتها في دعوة جماعة للطعام! فإذا بك تطالب في مقابلها بأحقاب ودهور في سجن جهنمي! هذا غير الخزي أمام الخلائق.

إن هذه الظلامات هي التي تستنفد رصيدك من الحسنات والصالحات، فإذا بهذه الأعمال تذهب أدراج الرياح في يوم كنت أحوج ما تكون إليها كما عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (إنه ليأتي العبد يوم القيامة وقد سرته حسناته، فيجيء الرجل فيقول: يا رب ظلمني هذا، فيؤخذ من حسناته فيجعل في حسنات الذي سأله، فما يزال كذلك حتى ما يبقى له حسنة، فإذا جاء من يسأله نظر إلى سيئاته فجعلت مع سيئات الرجل، فلا يزال يستوفى منه حتى يدخل النار)![٢]

وثالث الأحاديث؛ ما عن النبي المصطفى أيضًا: (الدواوين عند الله ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وديوان لا يغفره الله فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك) فإن هذا ذنب لا يغفره الله ذلك: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾.[٣]

---

(١) الإمام علي عليه السلام: نهج البلاغة - ط دار الكتاب اللبناني ١ / ٣٤٦.

(٢) الريشهري: ميزان الحكمة ٢ / ١٧٧١.

(٣) المائدة:٧٢ .

(وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئًا فظلم العبد نفسه، فيما بينه وبين ربه، من صوم يوم تركه أو صلاة تركها، فإن الله يغفر ذلك إن شاء ويتجاوز). والغريب أن هذا الديوان الذي لا يعبأ الله به -مثل سائر الدواوين- هو الذي يدقق فيه العباد كثيرًا، وتحصل لهم الوسوسة بشأنه، فبعضهم يكون كثير الشك بل وسواسيًا فيما يرتبط بأمر الطهارة من النجاسة، والوضوء والغسل والصلاة! ويفكر ساعات في الأمر لتضبيط ذلك.. لكنه لا يهتم بمقدار شعرة في حقوق الخلائق عليه، وظلمه لمن حوله! مع هذا الثاني لا يكون مهما بتلك الأهمية الكبرى عند الله بعكس سائر الدواوين! هذه كلها (من صوم يوم تركه أو صلاة.. فإن الله يغفر ذلك إن شاء ويتجاوز عنه).

بعض هؤلاء يسأل عن أدق تفاصيل إيصال الماء إلى البشرة! وأفعال الغسل والوضوء! ويفترض افتراضات لا تخطر على بال الجن في السؤال! ولكنه لتوه قد ظلم زوجته! وأخذ مال أخيه! وظلم عامله! وأفسد ما بين فلان وأبيه! وزوجة وزوجها! ولا يتوقف ليتساءل هل هذا عمل صحيح؟ بل هل يستحق السؤال عنه أو لا يستحق؟

لهؤلاء يقال: سل عن ذلك الديوان الذي لا يترك الله منه شيئا! (وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئًا) سل كثيرًا عن إيجار أخّرته ولم تدفعه لصاحب الدكان أو المنزل ولا يرضى بتأخيرك إياه! وسل عن مهر زوجتك الذي لم توفها إياه كاملًا! وسل عن صاحب الدَّين الذي بخسته حقه! وامثالهم..

الظلم في حياتنا الأسرية

روي في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيَّ يَا أَخَ الْمُرْسَلِينَ يَا أَخَ الْمُنْذِرِينَ أَنْذِرْ قَوْمَكَ أَلَّا يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بُيُوتِي إِلَّا بِقُلُوبٍ سَلِيمَةٍ وَأَلْسُنٍ صَادِقَةٍ وَأَيْدٍ نَقِيَّةٍ وَفُرُوجٍ طَاهِرَةٍ وَلَا يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بُيُوتِي وَلِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِي عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُم ظُلَامَة فَإِنِّي أَلْعَنُهُ مَا دَامَ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيَّ يُصَلِّي حَتَّى يَرُدَّ تِلْكَ الظُّلَامَةَ إِلَى أَهْلِهَا»[1].

وفي حديث آخر، قريب من مضمون السابق، أنه أوحى الله عز وجل إلى داوود عليه السلام أن: «قُلْ لِّلظَّالِمِينَ لَا يَذْكُرُونَنِي، فَإِنَّهُ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أَذْكُرَ مَنْ ذَكَرَنِي وَإِنَّ ذِكْرِي إِيَّاهُم –يعني الظالمين– أَنْ أَلْعَنَهُم»[2].

---

(١) ورد هذا الحديث في كتب الفريقين إلا انه ضعفت أسانيده في كتب مدرسة الخلفاء كما ذكر الالباني ذلك في كتابه السلسلة الضعيفة. وأما في المصادر الشيعية المتأخرة كالبحار للمجلسي والمحجة البيضاء للفيض الكاشاني والجواهر السنية للحر العاملي فقد اعتمدت في نقله على (عدة الداعي) لابن فهد الحلي ت ٨٤١ هـ. وكيف كان فباعتبار انه يدخل في الاخلاقيات والوعظ فلا يكون تحقيق سنده لازمًا لقبوله وانما المدار على صحة المضمون. ونفس الكلام يأتي في الحديث التالي.

(٢) السبزواري؛ محمد: جامع الأخبار ١ / ٤٣٨.

والحديث الأول: يفيد بأن الله أوحى إلى رسوله أن يحذر الناس، من دخول بيوته وهم على غير قلوب طاهرة، وعلى غير ألسن صادقة، وعلى غير أيد نظيفة. وبالطبع ليس المقصود هنا ألّا يعني ذلك أن من كان على قلب غير طاهر، يمنع من دخول المسجد، فإن هذا لو كان المقصود لما دخل المسجد إلا المعصومون، ومن الواضح أن المجيء إلى المسجد مطلوب من عامة الناس، وإنما معنى الحديث، أن يطهر قلبه قدر إمكانه ويدخل المسجد، وأن يسعى ليكون لسانه صادقا، وأن تدفعه الحاجة إلى دخول المسجد لتكون يده نظيفة من السرقة والاعتداء والظلم.

ونؤكد على هذا المعنى لأن هناك فكرة شائعة عند بعض غير الملتزمين، فهو يزعم قائلا: إن الله يريدني أن أكون خاشعا في الصلاة، ولأنني لا أخشع في الصلاة؛ لذلك لا يريد الله هذه الصلاة فأنا أتركها لذلك! وهذا كلام باطل وغير صحيح. إنما المقصود، هو أن يُقبل الإنسان على الصلاة والمسجد بقدر استطاعته خاشعًا خاضعًا، ويسعى للتكامل، من مرحلة (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) إلى مرحلة (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) قدر الامكان.

ولهذا نظائر مثل أن يقول (لا تصل إلا على طهارة) لا يعني ذلك أن اترك الصلاة وإنما تطهر وصلِّ، وهذا ما يسمونه بالمقدمات الوجودية[1] للواجب. ارفع الظلم فيما بينك وبين الخلق، وصلّ أدِّ أمانتك، ونقِّ قلبك، ونظف لسانك، واذهب إلى بيت من بيوت الله.

---

(١) قسم العلماء مقدمات الواجب الى وجوبية ووجودية؛ والأولى لا يجب السعي لها او تحصيلها وانما لو حصلت وتوفرت يكون الواجب فعليا على المكلف؛ مثل البلوغ والاستطاعة المالية في الحج فلا يجب عليه السعي لتحصيل المال ولا البلوغ. وأما المقدمات الوجودية فهي ما لا يوجد الواجب الا بها ولهذا يجب تحصيلها وتهيئتها مثل اعداد الراحلة ووسيلة النقل في الحج للوصول الى مكة. والطهارة والستر وامثالها هي من المقدمات الوجودية.

وأما الرواية الأخرى، التي تروى عن ابن عباس: أن الله أوحى إلى نبيه داوود، أن قل للظالمين: لا يذكرونني ما داموا ظالمين. أي لا ينبغي منهم الذكر. ليذهبوا ويتركوا الظلم، ويذكروا ربهم فيما بعد ولو بمقدار الاستغفار منه. لماذا؟ لأنه توجد قاعدة حسب هذه الرواية، وهي: أن الله يقول: إذا ذكرني أحد ذكرته.[١] أي: أنا أذكر المؤمن بإيمانه، والمحسن بإحسانه، والمتصدق بصدقته، فأثيبه. أما هذا الظالم، فبماذا أذكره؟ إن ذكرته فلابد أن أذكره بظلمه. فإذا ذكرته بظلمه حلت عليه اللعنة

فالأفضل له أن يذهب سريعًا، ويتخلص من الظلم، حتى يذكر ربه وهو غير ظالم.

ذكرنا هذين الحديثين؛ ليكونا مدخلا للحديث عن الظلم في حياتنا القريبة، أعني الأسرية. ذلك أن قسمًا منا حين يتم الحديث عن الظلم مثلا يتبادر إلى ذهنه ظلم فرعون لبني اسرائيل أو ظلم يزيد وبني أمية أو حتى بعض الحاكمين المتسلطين في هذه الأزمنة!! كلا.. بل يقال لهذا انظر في داخل دائرتك القريبة منك لا تبتعد وتغوص في أعماق التاريخ أو تُنجد أو تُتهم[٢] في الجغرافيا! فقد تكون أشكال من الظلم متحققة فيك ومن حولك! فلنعرض بعض الأمثلة:

١/ . الزوجان في الأسرة، يمكن أن تكون العلاقة بينهما عادلة، كما يمكن أن تكون ظالمة بمعنى أن أحدهما ظالم فيها، والآخر مظلوم، ومن أشكال تلك العلاقة الظالمة قيام أحد الطرفين بالإساءة اللفظية إلى شريكه، كشتمه أو السخرية منه أو الصراخ في وجهه، وهذه الاساءة لا جنس لها، فكما يمكن

(١) قد تشير إليها (فاذكروني أذكركم) وإن كان ربما يستشكل في شمول الآية لهذا المورد أن الآية هي في موضع الامتنان والرحمة دون المورد.

(٢) يقال: أنجد أو أتهم يعني قصد منطقة نجد أو تهامة!

أن تكون من الزوج يمكن أن تكون من الزوجة، إحداهن كانت تتشكى، وتقول: أن زوجي أبا فلان لا يسميني إلا البقرة. «قومي يا البقرة، وقعدي يا البقرة، وجت البقرة، وراحت البقرة»، وأنا أبدي له أني لا أرتاح إلى هذا، فإما أن تسميني باسمي العادي، أو أم فلان.. ولا ريب أن هذا ظلم وإيذاء متعمد لمؤمنة وهو يستوجب العقوبة الالهية! أو أن يخاطبها بـأمثال ذلك (يا غبية، يا حمقاء، يا حيوانة..) أو لو فعلت هي ذلك معه!

وأسوأ من ذلك عندما تتعدى الإساءة اللفظية إلى أن تكون قذفًا بما هو معروف من ألفاظ القذف ونسبة الفاحشة، فهذا بالإضافة إلى كونه ظلمًا هو مع توفر شروطه يوجب الحد الشرعي.[1]

وبالرغم من أن الكثير من النساء المؤمنات يصبرن على هذه الاساءات، فلا يرددن على أزواجهن، ولا يصعدن درجة المواجهة، حفاظًا منهن ـ جزاهن الله خيرًا ـ على بقاء الأسرة، وألا يتشتت أطفالهن، وهنا يحصلن على ثواب نظير ثواب آسية بنت مزاحم التي صبرت على أذى فرعون (مَنْ صَبَرَتْ عَلَى سُوءِ خُلُقِ زَوْجِهَا، أَعْطَاهَا اللهُ مِثْلَ ثَوَابِ آسِيَةَ بنتِ مُزَاحِم) كما في الحديث.

إلا أن هذا لا يعني أن الطرف الظالم ينجو بفعلته تلك من الحساب الالهي. وقد يكون الأمر ـ ولو في أحيان أقل ـ من طرف بعض الزوجات السيئات، عندما يكون الشتم والإساءة اللفظية لزوجهن هو العمل اليومي لهن.. فهذا أيضًا ظلم للزوج واعتداء عليه.

٢. وأسوأ من هذا، الظلم بالتعدي بالضرب. وهذا لا يزال موجودًا ـ للأسف ـ في بعض البيئات الاجتماعية، وإن كان أقل مما كان في السابق؛ نظرا لمعرفة

---

(١) مر الكلام في حد القذف وما يترتب عليه.

الناس، أن ضرب الزوجة والاعتداء محرم شرعًا، وأنه يعاقب عليه القانون. فأما في الشرع فإن الحديث عن النبي ﷺ يقول: «إِنِّي لَأَتَعَجَّبُ مِمَّنْ يَضْرُبُ امْرَأَتَهُ وَهُوَ بِالضَّرْبِ أَوْلَى مِنْهَا». هو أولى منها بالضرب لأنه معتد وغير حكيم فهو الذي يحتاج إلى تأديب بالضرب. إنه قد تزوج امرأة وشريكة حياة، ولم يأخذها جارية أو أمة يتحكم فيها. وإنما ربط بينهما عقد كما فرض له حقوقا فرض لها كذلك، وكما أوجب عليها التزامات أوجب عليه ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[١] وليس من حقه أن يعتدي عليها بالضرب.

٣. ومن الظلم؛ السيطرة على أموال الزوجة: وبينما قد أوجب الدين على الزوج الإنفاق على زوجته حتى لو كانت غنية وواجدة للمال، نجد عكس ذلك في بعض الرجال، فهو يعمل المستحيل والممكن للسيطرة على أموالها، لا سيما إذا كانت وارثة أو موظفة ذات دخل جيد! فبعضهم يبدأ أولا بحرمان الزوجة من نفقتها[٢] فلا يؤمن لها احتياجاتها العرفية باعتبار أنها موظفة ولا تحتاج إلى ماله! ثم يتقدم خطوة إلى الأمام بمطالبتها بالمشاركة في مصاريف البيت أو دفع الايجار إن كان مستأجرًا أو وضع جزء من راتبها تحت يده أو شراء الأثاث مما عندها.. وبعضهم يقوم بالاقتراض بكفالتها ثم يترك التسديد لتتورط به، وربما هدد بعضهم زوجته بالطلاق -بالصراحة أو التلميح- إن لم تساعده في النفقات! أو ذكّرها بأن من حقه الزواج بالثانية.. وهكذا فلهم في هذا الميدان السيء فنون وجنون! وهذا كله مخالف للمعاشرة بالمعروف،

(١) البقرة / ٢٨٨.

(٢) الخوئي؛ السيد أبو القاسم: منهاج الصالحين ٢/ ٢٧٨: نفقة الزوجة الدائمة فتجب على الزوج وهي الإطعام و الكسوة والسكنى والفراش والغطاء وآلة التنظيف وسائر ما تحتاج إليه بحسب حالها ومنه الدواء وأجرة الطبيب ومصاريف الولادة على الأقوى ومع العقد الدائم بشرط أن تكون عنده.

وبعضه غير جائز ويعد تعديًا وظلمًا لها!

نعم نحن نرى أن من المناسب جدًا ومن المستحب أن تساعد الزوجة زوجها في حياتـ(هما)، فهذه ليست حياته وحده وإنما حياتهما، ولا يعقل أن يكدح الزوج ليل نهار ليوفر شيئًا من المال يصرفه، بينما تنام هي على وسائد الحسابات المصرفية المتضخمة، من دون أن تشارك في شيء! فليس معنى (لا يجب عليها) أنه يجب عليها ألّا تفعل أو أنه يحرم عليها أن تفعل ذلك.

٤. ومن الظلم: الامتناع عن الحق في الاشباع الجنسي، وهذا قد يكون من الطرفين؛ فإن بعض النساء بزعم أنهن أصبحن كبيرات في السن ولا يناسب منهن ذلك! أو أن بناتهن أصبح عندهن أطفال! وقد صارت هي جدة [١]، فلا تقوم بأداء حق الزوج في الجماع.. مع أن الزوج ـ وهذا هو الغالب ـ يكون

---

(١) في استفتاء للسيد السيستاني جاءت مثل هذه الاعذار في سؤال السائل، وجاء الجواب واضحا: السؤال: هناك زوج وزوجة ولديهما أولاد متزوجون في دار واحدة ضيقة والأب يطلب زوجته للمضاجعة إلاّ أنها تمتنع بحجة الحياء وكبر السن والزوج يشعر بالمحرومية وهو يرى الأولاد يمارسون حقهم المشروع سراً وعلانية. ولكن الزوجة (الأم) تتحجج بحجج واهية كسلاً وعجزاً او تمارضاً او مرضاً او معصية للزوج وأكثرها (هي انهم صاروا كبار السن). فهل يحق لها هذا التصرف والزوج يتحمل سوء خُلقها لكي لا تتهدم الاسرة وهو ينفق عليها وله القدرة والاستطاعة؟ وهل يجوز للزوج ان يشكل ذمتها بخصوص ذلك لأنه لا يستطيع الزواج لعدم القدرة مع العلم بأنها مؤدية للخدمة البيتية بضرورة صحيحة استحباباً؟

الجواب: من حق الزوج على زوجته ان تمكّنه من نفسها للمقاربة والمضاجعة وغيرهما من الاستمتاعات في أي وقت شاء ولا تمنعه عنها إلاّ لعذر شرعي وقد ورد في كثير من النصوص والروايات توجيه المرأة وحثها على مراعاة هذا الجانب، والوعيد والذم على عدم رعاية هذا الحق. وأما ما تتذرع به المرأة مما ورد في السؤال فلا يُعد عذراً مسوّغاً شرعاً.. موقع المرجع الديني الاعلى سماحة السيد على السيستاني. استفتاءات الحقوق الزوجية. قرئت بتاريخ ٢٨/ ٨/ ١٤٤١ هـ.

https://www.sistani.org/arabic/qa/0446/

في ذلك الوقت لا يتجاوز الخمسين ولا يزال في قوة رغبته! أو أن بعضهن مع كونها في سن الشباب تتعلل بالتعب والارهاق في أغلب الأوقات، أو عدم الرغبة في الممارسة، أو كأنها تريد أن تعاقبه لغضبٍ منه أو زعلٍ. ولعل لمثل هؤلاء خاطب النبي ﷺ بعض النساء محذرا، كما جاء في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام: (إنَّ امرَأَةً أتَت رَسولَ اللّهِ ﷺ لِبَعضِ الحاجَةِ، فَقالَ لَها: لَعَلَّكِ مِنَ المُسَوِّفاتِ؟ قالَت: ومَا المُسَوِّفاتُ يا رَسولَ اللّهِ؟ قالَ: المَرأَةُ الَّتي يَدعوها زَوجُها لِبَعضِ الحاجَةِ (الجنسية) فَلا تَزالُ تُسَوِّفُهُ حَتّى يَنعُسَ زَوجُها ويَنامَ، فَتِلكَ لا تَزالُ المَلائِكَةُ تَلعَنُها حَتّى يَستَيقِظَ زَوجُها).[1]

وقد يكون الظلم ببعض درجاته في جهة الاشباع الجنسي من الزوج لزوجته؛ فيترك فراشها، الشرعي. إما لأنه متزوج بغيرها أو لأنها قد تخطت مرحلة الشباب والجمال أو لأنه يريد عقابها مغاضبا لها أو لغير ذلك من الأسباب.

نعم لا بد من إيضاح نقطتين هنا:

الأولى:

أنه في حالة زواجه بأكثر من زوجة فإن عليه القَسم بينهن، بحيث يبيت عند كل منهن ليلة، والمبيت لا يقصد منه الممارسة الجنسية بالضرورة وإنما ان يكون موجودًا مع هذه الزوجة في منزلها كما يكون مع تلك. وأما الممارسة الجنسية فيأتي الكلام فيها. وإذا أخل بذلك بأن كان مبيته كل الليالي أو أكثرها مع إحداهن دون الأخرى من غير رضى هذه فإن ذلك غير جائز وهو خلاف العدل والانصاف وظلم لها. وورد انه يأتي يوم القيامة مائل الشدق (الفم).

---

(١) الكافي ط دار الحديث ١١ / ١٦٧.

الثانية:

في مقدار المدة التي يستطيع الزوج فيها الانقطاع عن تلبية الحاجة الجنسية لزوجته.. فإن الرأي السائد بين العلماء السابقين أنه لا يجوز لها أن يتركها أكثر من أربعة أشهر، إلا أن الرأي السائد بين العلماء المعاصرين يميل باتجاه أن يلبي الزوج حاجة زوجته الجنسية متى احتاجت بالمقدار المتعارف.[١]

فإذا احتاجت حاجة عرفية لذلك، يجب أن يقوم بهذه الحاجة فماذا تصنع امرأة راغبة ضمن الحدود المتعارفة، وهي زوجة فلان، وهو لسبب من الأسباب عازف؟! وربما يشير الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام إلى توبيخ مثل هؤلاء الأشخاص الذين قد يتسببون بإهمالهم زوجاتهم بانحرافهن: «مَنْ جَمَعَ مِنَ النِّسَاءِ مَا لَا يَنْكُحُ، فَزَنَا مِنْهُنَّ شَيْءٌ، فَالإِثْمُ عَلَيْهِ».[٢]بالطبع لا يريد الحديث أن يقول أنها معذورة أو أن يوجد تبريرا لها، فـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٣]. وإنما بأن يقال له أنك تتحمل جانبا من المسؤولية، فلا أنت أشبعت حاجتها ولا تركتها لحال سبيلها لعلها تتزوج وتعيش حياة جنسية مستقرة! إنها لو انحرفت لا سمح الله فإنها تتحمل المسؤولية كاملة وتعاقب كذلك لكن الزوج هذا أيضًا عليه قسط من الإثم والمسؤولية.

٥. ومن الظلم الشنيع إيذاء الزوجة لتفتدي نفسها بالخلع منه؛ فترى بعضهم

---

(١) الطباطبائي اليزدي؛ السيد محمد كاظم: العروة الوثقى ط جماعة المدرسين ٥ / ٥٠١: مسألة: إذا كانت الزوجة من جهة كثرة ميلها وشبقها لا تقدر على الصبر إلى أربعة أشهر بحيث تقع في المعصية إذا لم يواقعها فالأحوط المبادرة إلى مواقعتها قبل تمام الأربعة، أو طلاقها وتخلية سبيلها. ولم يعلق عليه العلماء مما يفيد موافقتهم إياه.

(٢) الحر العاملي؛ محمد بن الحسن: وسائل الشيعة ١٤ / ١٧٨.

(٣) المدثر: ٣٨ .

يفعل هذا مع سبق التخطيط والاصرار والتعمد فلأنه يعلم أنها صاحبة مال، من ميراث أو وظيفة فيعمد بعد الزواج منها إلى إيذائها ويسيء معاملتهما، ولأنها لا تصبر على مثل هذه الحياة فتطلب الطلاق، فلا يرضى إلا بفدية كبيرة في الطلاق الخلعي! هذا بالرغم من أن الفقهاء ردوا كون هذا المورد من موارد الطلاق الخلعي![1]

مثل هذا ينطبق عليه إذا جاء للصلاة في المسجد ومع الجماعة، أو حضر للزيارة في المشهد «لَا يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بِيُوتِي وَلِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِي عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُم ظُلَامَةٌ فَإِنِّي أَلْعَنُهُ مَا دَامَ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيَّ يُصَلِّي حَتَّى يَرُدَّ تِلْكَ الظُّلَامَةَ إِلَى أَهْلِهَا».

وما جاء في الحديث الآخر، أن يا داود: «قُلْ لِّلظَّالِمِينَ لَا يَذْكُرُونَنِي، فَإِنَّهُ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أَذْكُرَ مَنْ ذَكَرَنِي وَإِنَّ ذِكْرِي إِيَّاهُم -يعني الظالمين- وَإِنَّ ذِكْرِي إِيَّاهُم أَنْ أَلْعَنَهُم».

وينبغي أن نشير هنا إلى أن الظلم قد يكون من طرف الزوج كما يمكن أن يكون من طرف الزوجة في كثير من الموارد.

وسواء كان منه أو منها فإنه ظلمات يوم القيامة! فإنه مثلما يكون الايذاء

---

(١) الخوئي؛ السيد أبو القاسم: منهاج الصالحين ٢/ ٣٠٧: (وهي في الأصل عبارة السيد محسن الحكيم) الكراهة المعتبرة في صحة الخلع أعم من أن تكون لذاته كقبح منظره و سوء خلقه أو عرضية من جهة بعض الأعمال الصادرة منه التي هي على خلاف ذوق الزوجة من دون أن يكون ظلما لها واغتصابا لحقوقها الواجبة كالقسم والنفقة و أما إذا كان منشأ الكراهة شيء من ذلك فالظاهر عدم صحة البذل فلا يقع الطلاق خلعا.. انتهى. وقد وافقه في ذلك السيد محمد الروحاني، والشيخ الوحيد الخراساني، وصرح السيد السيستاني، بما أشرنا إليه فقال: واما إذا كان منشأ الكراهة وطلب المفارقة ايذاء الزوج لها بالسب والشتم والضرب ونحوها فأرادت تخليص نفسها منه فبذلت شيئاً ليطلقها فالظاهر عدم صحة البذل وبطلان الطلاق خلعاً بل مطلقاً على الاقرب.. يراجع منهاج الصالحين للأعلام.

منه لها بغرض الحصول على مالها ظلمًا وحرامًا، فإن تصرفها في أمواله بغير رضاه، يعد سرقة وظلما له، ولو كان بعضهن تبرر ذلك بتبرير أنها لا تريد أن تترك عنده قرشًا حتى لا يفكر أن يتزوج عليها! فهذا تبرير بائس وسقيم! حتى بالمقاييس العادية وغير الأخلاقية، فإنه ربما كان سببًا لاقدامه على الزواج من غيرها، لأنها قد أصبحت محرقة لأمواله بينما كان المفروض كما ورد في روايات الصفات الحسنة للزوجة أنها (تحفظه في ماله) لا أن تحرق أمواله بالصرف والتشتيت!

٦. وكما أن هناك زوجات يتعرضن لأذى وظلم أزواجهن فإن العكس أيضًا قد يكون موجودًا عندما يكون الزوج هو المظلوم إما بسبب أن زوجته تحتمي بأسرة شرسة أو أن شخصيته ليست بالمقدار الذي يدفع عنه أذى وسلاطة لسانها أو لأن ظرفه الاجتماعي والأسري لا يسمح له بمواجهتها أو لا يستطيع طلاقها والتخلص منها لأجل وجود أولاد (بنين وبنات) ويخشى عليهم من التشتت.

وهنا كما قلنا بأن من تصبر على أذى زوجها فإن لها ثواب آسية بنت مزاحم، فإن من يصبر على أذى زوجته، كما ورد في حديث عن رسول الله ﷺ: (مَنْ صَبَرَ عَلَى سُوءِ خُلُقِ امْرَأَتِهِ، وَاحْتَسَبَهُ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى بِكُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مقدار ما أعطى أيوب على بلائه وَكَانَ عَلَيْهَا مِنَ الْوِزْرِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، مِثْلُ رَمْلِ عَالِجٍ)[1].

وأما هي فقسم من عقابها هو بهذه الصورة: (مَنْ كَانَ لَهُ امرأةٌ تُؤْذِيهِ لَمْ يَقْبَلْ اللهُ صَلَاتَهَا وَلَا حَسَنَةً مِنْ عَمَلِهَا حَتَّى تُعِينَهُ وَتُرْضِيَهُ، وَإِنْ صَامَتْ الدَّهْرَ).

وهل هذا خاص بالمرأة الظالمة المؤذية؟ أو هو شامل للرجل الظالم المؤذي

(١) بابويه الصدوق؛ محمد بن علي بن: ثواب الاعمال ٢٨٧. وكذلك الحديثان الآخران.

لزوجته أيضًا؟ يقول الحديث: (وَعَلَى الرَّجُلِ مِثْلُ ذَلِكَ الْوِزْر وَالْعَذَاب إِذَا كَانَ لَهَا مُؤْذِيًا ظَالِمًا).

مظاهر الظلم بين الوالدين والأولاد:

قد يقوم بعض الآباء والأمهات بممارسات تصنف في دائرة الظلم لبعض الأولاد؛ فمن ذلك:

١. التمييز الظاهري بينهم من غير جهة مسوِّغة، وإظهار تفضيل بعضهم على بعض مما يؤدي إلى ايقاع الخلاف والفتنة بينهم فلا يجوز ذلك وإنما قيدناه بالإظهار لأن التفضيل القلبي في المحبة ليس باختيار الإنسان. وإنما إظهار ذلك بأن يهبه أرضا مثلا دون باقي الأولاد، أو يقسم له ضعف ما قسم للباقي.

وفي بعض روايات مدرسة الخلفاء، حكت عن أن النبي ﷺ قد رفض أن يشهد على وثيقة كان فيها تفضيل لبعض أبناء الصحابة على الباقين، وعللت رفضه بأن هذا جور والنبي لا يشهد عليه، فعَنِ النُّعْمانِ بْنِ بَشِيرٍ[1]، قالَ: تَصَدَّقَ عَلَيَّ أَبِي بِبَعْضِ مالِهِ، فَقالَتْ أُمِّي -عَمْرَةُ بِنْتُ رَواحَةَ- لا أَرْضى حَتّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فانْطَلَقَ أَبِي إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُشْهِدَ عَلى صَدَقَتِي، فَقالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفَعَلْتَ هَذا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟»، قالَ: لا، قالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ واعْدِلُوا فِي أَوْلادِكُمْ»، فَرَجَعَ أَبِي، فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ).[2]

---

(١) النعمان بن بشير الخزرجي الأنصاري: من الانصار القلائل الذين تحالفوا مع الدولة الأموية، وكان في صف معاوية من أيام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام « فقد استعمله معاوية عَلَى حمص، ثُمَّ عَلى الكوفة، واستعمله عليها بعده ابنه يزيد، وَكَانَ هواه مع معاوية وميله إليه وإلى ابنه يزيد، فلما مات معاوية بن يزيد دعا الناس إلى بيعة عبد الله بن الزبير بالشام، فخالفه أهل حمص، فخرج منها، فاتبعوه وقتلوه، وَذَلِكَ بعد وقعة مرج راهط، سنة أربع وستين» كما في أسد الغابة.

(٢) النيشابوري؛ مسلم : صحيح مسلم ٥/ ٦٥، كتاب: الهبات، باب: كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة.

وقد استفاد بعض شراح الحديث[١] من علماء مدرسة الخلفاء أن تخصيص بعض الأولاد بشيء دون البعض الآخر، هو بحسب هذه الرواية جور وهذا التعبير يعني الحرمة، لا سيما وأن النبي رفض أن يشهد عليه، وأمر بالتقوى والعدل في الأولاد، بينما استفاد قسم آخر الكراهة المشددة، ورأوا أن مقام النبي لا يسمح له أن يشهد على ما فيه حيف وميل ولو لم يكن بمقدار الحرمة، خصوصًا وأنه في نقل آخر أمرهم بأن يستشهدوا غيره ولا معنى لأمره إياهم أن يستشهدوا غيره لو كان حرامًا.

وأما عند الإمامية[٢] فإنه يمكن فرض «صور متعددة: ١ـ لو تميّز أحدهم ببعض المرجّحات فقد يستحبّ الترجيح، بل قد يجب مع الأمن من المفسدة، كما لو كان أحدهم فقيرًا، أو مريضًا، أو عاجزًا عن الكسب، أو مشغولًا بطلب العلم، أو نحو ذلك من المميّزات.

٢. ترجيح الورثة على بعض-في الهبات والتمليكات الصلحية أو البيوع المحاباتية- جور وإجحاف على باقي الورثة، كما في كثير من الأخبار، وهو مكروه كراهة شديدة تكاد تلحقه بالحرام.

٣. قد يبلغ الحرمة إذا استلزم حصول الشحناء والبغضاء بين الإخوة و الأولاد.

ربما لا يستطيع الإنسان أن يساوي بالضبط في عواطفه بين كل أولاده، فقد يجد في بنته عاطفة أكبر تجاهه وحنانا أعمق، وقد يجد في ابنه فلان يده المعينة وعينه المبصرة، بينما قد لا يمتلك باقي الأولاد هذه الميزات أو غيرها ومن الطبيعي أن يميل إلى ذوي الميزات، ولكن هذا لا يبرر له إظهار هذا لا سيما في بعض صوره

---

(١) رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام ٤/ ٤٦٢ تاج الدين الفاكهاني.

(٢) كاشف الغطاء؛ الشيخ محمد حسين: تحرير المجلة ٣/ ١٠٦ ١٠٨

الفاقعة التي ربما جلبت الحسد في نفوس الباقين، أو أثارت بينهم الخلاف والشقاق والأحقاد. بل إن هذه الممارسة لتصل في بعض درجاتها إلى مستوى الظلم، لا سيما إذا ترافقت مع تعمد حرمان أحد الأولاد (ابنًا أو بنتًا) كأن يكون مبغضا لأمه فيقع الظلم على ابنها!

لقد نقلت بعض الجرائد أن أحدهم، ولمناكفة أم الولد وبغضه لها، عطّل استخراج الوثائق الرسمية والمستندات الشخصية لذلك الولد حتى بلغ خمس عشر سنة! مع ما يترتب على ذلك من مشاكل في التعليم والتطبيب والسفر وغير ذلك.

وأسوأ من ذلك حين ينكر أبوته له، مع أنه مولود على فراشه، ومع أن أمه كانت زوجة لهذا الأب، فهذا يجعله في حياته معذبًا ومهزوز الشخصية. نعم لو كانت الأم غير صائنة لنفسها ـ لا سمح الله ـ وقامت قرائن عند زوجها على ذلك، فلا يجبر على الاعتراف به بل هناك طريق شرعي لنفي الولد عن نفسه، وهو ما يعرف في الفقه بـ(المُلاعَنة).[1] أما أن يقول ذلك أو يتعامل على هذا الأساس لمجرد كراهته لأم الولد ورغبته في إيذائها فهذا ظلم مضاعف.

وأحيانا يتم ظلم البنات من الأولاد[2] لا لشيء إلا لسبب كونها أنثى، وهي من بقايا الفكر الجاهلي الذي كان ﴿(إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ

---

(١) الفياض؛ الشيخ محمد اسحاق: منهاج الصالحين ٣ / ١٢١: سبب اللعان قذف الزوجة بالزنا مع ادعاء والمشاهدة و عدم البينة، ولا يجوز قذفها بالزنا مع الريبة ولا بالظن ببعض الأسباب والقرائن المريبة، ولا بالشياع ولا بإخبار الثقة ولا مع اليقين بذلك من دون المشاهدة.. وكيفيته: ان يقول الرجل، أربع مرات: اشهد بالله اني لمن الصادقين فيما قلته عن هذه المرأة، ثم اشهد الخامسة ان لعنة الله علي ان كنت من الكاذبين. ثم تقول المرأة أربع مرات: اشهد بالله انه لمن الكاذبين ثم تقول الخامسة: ان غضب الله علي ان كان من الصادقين، فتحرم عليه أبدا.

(٢) في اللغة يعبر عن الذكور والاناث بالأولاد كما قال الله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ النساء: ١١.

كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[١]، ونحن في هذا الزمان نزري على أولئك أفكارهم المتخلفة، ونجد في قصة أبي حمزة المشهورة موضعا للتندر[٢]إلا أن بعضنا قد يمارس شيئا قريبا منها، فعندما يعتبر الأب نفسه مسؤولًا عن أبنائه إلى ما بعد زواجهم، فيتعهد بالإنفاق عليهم وإسكانهم وهبتهم لكن إلى جانب هؤلاء بنته التي قد تكون حالتها المادية صعبة مع زوج قليل المال، لكنه لا يرى نفسه مسؤولا بأي مقدار عنها!

هذا من أنحاء التمييز الذي يجانب العدالة والانصاف.

كذلك مما يحسب من الظلم: عدم القيام بحقه، في التعليم. ذلك أن التعليم أصبح من الحقوق المتعارفة ولا سيّما في هذه الأزمنة، خاصة وأنه لا يكلف الأب شيئا صعبا مع تكفل الحكومات غالبا. ولذا مع اهمال الأب هذا الحق لابنه قد ينشأ

---

(١) النحل:٥٨ـ ٥٩ وفي الرواية عن الجارود بن المنذر قال: قال لي أبو عبد الله الصادق عليه السلام: (بلغني أنّه ولد لك ابنة فتسخطها! وما عليك منها؟ ريحانة تشمَّها، وقد كُفيت رزقها..) وعنه (البنات حسنات، والبنون نعمة، فالحسنات يثاب عليها، والنعمة يُسأل عنها) الوسائل: ١٤ / ٣٦٧.

(٢) الجاحظ؛ عمرو بن بحر: البيان و التبيين ١ / ١٦٥: .. ولبغض البنات هجر أبو حمزة الضبّي خيمة امرأته، وكان يقيل ويبيت عند جيران له، حين ولدت امرأته بنتا، فمرّ يوما بخبائها وإذا هي ترقصها و تقول:

ما لأبي حَمزةَ لا يَأتينا
يَظلّ في البيتِ الّذي يَلينا
غَضبان أَن لانلدَ البَنينا
تَاللّه ما ذلكَ في أَيدينا
وَإنّما نَأخذُ ما أُعطينا
وَنَحنُ كَالأرضِ لِزارِعينا
ننبتُ ما قَد زَرعوهُ فينا

جاهلا، ولا يستطيع أن يتعايش مع المجتمع أو يكسب رزقه بنحو حسن.

ظلم الأولاد لوالديهم:

قد تنعكس الصورة، فيكون الأب والأم مظلومين من أولادهما! وأول أمثلة الظلم: التحكم فيه عندما يكبر، فيتصور بعض الأبناء أنه ما دام الأب قد كبرت سنه، فلا بد أن نديره ونعين له ما يريد وما لا يريد..

نعم عند ما لا يلاحظ الأب أو الأم مقتضيات الصحة، فيما يضره وما ينفعه، فهنا لا بأس من العناية به والشفقة عليه، لكن هذا شيء وأن أعتبره مثل الأطفال، وآمره وأنهاه! وأتحكم فيه كما أصنع ببعض ولدي فهذا مخالف للإنصاف والاحترام لمقام الوالد.

ومن أمثلة الظلم التي قد تحصل: حرمان الأبوين من حياتهما الزوجية. إذ يحصل أن الوالد مثلا، تتوفى زوجته أم الأولاد، وعمره الآن سبعون سنة مثلا، فيفرض هؤلاء الأولاد على أبيهم ألّا يتزوج. (وفي بعض الحالات تكون البنات أشد)؛ فكيف تأتي امرأة وتأخذ مكان أمنا الغالية العزيزة؟!

هذا من الظلم الشنيع فإن أباهم كأيّ رجل له حاجات في الرعاية والعناية، بل وفي الرغبة الجنسية، ولو بمقياس عمره! فمنعه من ذلك والوقوف أمامه يعتبر عقوقا له وتعديًا على حقه وظلمًا في شأنه! وقد يطوي هذا الرجل رغبته وإرادته لسبب أو لآخر إلى أن تنهدم صحته وتتداعى وتتراجع رغبته في الحياة.

ولا سيما إذا كان اعتمادهم في ذلك على الحجة السخيفة والباطلة: ماذا يقول الناس عنا؟ فهم يتحكمون في رغبات والديهم وطريقة حياتهم لا لأن مصلحة الوالدين هكذا ولا لأن الفكرة سيئة وإنما لأن فلانا سيقول كلامًا عنهم هم!! أرأيت

عزيزي القارئ كيف يحطمون حياة والديهم ومشاعرهم لسبب تافه؟

وأما بعض الامهات لو أبدت رغبة في الزواج بعد وفاة زوجها (والدهم) فلها الويل وعليها التثريب والتقريع! وكأنها تقوم بجريمة الزنا![1]

لقد تزوج كثير من النساء العظيمات ذوات الشأن الكبير في الاسلام بعدما توفي أزواجهن ولم يتحكم فيهن أبناؤهن ولم تمنعهن بناتهن، ونورد مثالًا على ذلك المرأة الصالحة أسماء بنت عميس رضي الله عنها فهي زوجة جعفر الطيار عليه السلام وهو أبو عذرها، وكانت معه في الحبشة إلى أن جاءا المدينة واستشهد جعفر في غزوة مؤتة، وكان عمر ابنها عبد الله حينئذ بحدود تسع سنوات، فتزوجت الخليفة أبا بكر وبعدها بخمس سنوات، توفي عنها زوجها، وكانت قد أنجبت ابنها محمدا بن أبي بكر. فتزوجها أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام وكان عمر عبد الله ابنها آنئذ بحدود خمس عشر سنة ولم يأت عبد الله ليقول لأمه: ليس لك أن تتزوجي! وأنك كم تتزوجين وإلى متى؟.

لهذا نقول إننا عندما نتحدث عن الظلم وشناعته والوعيد بالعقوبة على فعله، فإننا لا ينبغي أن نفكر فقط في ظلم فرعون ونمرود، وإنما قد نكون نحن مرتكبين للظلم وممارسين لها، ونحن من الظلمة الذين يبغضهم الله ولا يحبهم ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فهذا من الظلم في حق الآباء والأمهات.

وقد يتحكم الإخوة في مصير أخواتهم بنفس الطريقة السابقة. ولا سيما إذا

---

(١) شكت إحدى النساء، قائلة: عمري ٤٥ سنة، حينما اختار الله زوجي وتوفي، لدي أبناء بعمر ٢٢ سنة، و٢٣ سنة، أنا بحاجة من الناحية المادية والرعاية، ومن الناحية الجنسية أيضا، والمال مهما وفره الأولاد فهم يفكرون في الزواج به.وحين فكرت في الزواج لأن أحد الأشخاص تكلم فيه، قال أحد الأولاد، بهذه الصفاقة: أي أحد يتقدم لخطبتك سأشق بطنه بالسكين!.. أقول: هذا ليس ظالما فحسب بل هو مجرم! هذا مجرم خلط الجاهلية بالحماقة!

تقدمن في السن. مع أنه لا ولاية من الناحية الشرعية للأخ على أخته ولا بمقدار قلامة ظفر وسواء كان والدها أو جدها موجودًا أو لم يكونا، وسواء كان الأخ كبير السن أو شابًا.. لا ولاية له في أن يقبل أو يرفض زواجها أو تصرفها في نفسها، وهو في هذه الحالة مساوٍ لأي شخص آخر، فإذا كان المورد من موارد الأمر بالمعروف فهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وحاله وحال غيره سيان. هذا على مذهب الإمامية.(١)

مع ذلك، قد تجد أحدهم وعمره ٢٥ سنة، يتحكم في مصير أخته التي بلغ عمرها ٣٥ سنة وتأخر بها الزواج يقول: لا، لا أسمح بذلك، وكيف أقبل أن تتزوج أختي رجلًا متزوجًا؟ هذا لا يمكن! ينبغي أن يقال له: ليس لك حق أن ترفض ولا ينتظر منك الإذن، هذا بنظر الشرع.

نعم يحبذ للأخت أن تتداول مع أخيها في امرها حماية لها من الاستغفال او الابتزاز لا سيما إذا كان الاخ يقوم بشؤونها ويرعاها، وعليه تحمل بعض الروايات التي أشارت إلى أنها « تؤامره». لكن هذا حكم أخلاقي وليس واجبًا شرعيًا.

وقد يكون الظلم خارج العلاقة الأسرية، وإن كان في داخل البيت، مثلما ما يرتبط بالعاملين تحت يد الإنسان: كالعاملة المنزلية. وقد تحدثنا في موضع آخر عنه وعن العلاقة مع الموظفين وحقوقهم على رب العمل وحقوق رب العمل عليهم وأن الاخلال بأي من تلك الحقوق مع التعمد يعد ظلما من المتعدي على المتعدى عليه.

وبالمناسبة دعنا نلفت النظر إلى ملاحظة مهمة، منتشرة هذه المدة بفعل وسائل

(١) الحكيم؛ السيد محسن: مستمسك العروة الوثقى ١٤/ ٤٣٧: في تعليقه على مسألة: لا ولاية للأم، ولا الجد من قبلها، ولو من قبل أم الأب، ولا الأخ.. علق على لا ولاية للأخ، بقوله: إجماعا ظاهرا.

التواصل الاجتماعي، وهي أننا نلاحظ انتشار قصص وصور وفيديوهات عن (جرائم) بعض العاملات المنزليات، فهذه كيف تدوس على بطن الطفل وتصفعه! وتلك تضع أشياء قذرة في الطعام! وثالثة تسرق وتخبئ السرقة هنا وهناك! وأمثال ذلك، وينبغي أن نشير إلى أن إعادتك نشر هذه المقاطع والصور قد يسهم في ظلم عاملة بريئة.. لأن رسالة هذا الفيديو ـ وإن كنت لم تلتفت ـ هي: أن كل العاملات هن من هذا النوع، مجرمات وسارقات، وينبغي تفتيشهن ومراقبتهن!

نتساءل: ماذا عن رب العمل؟ وماذا عن ربات البيوت؟ هل أنهن ملائكة نزلن من السماء؟ أو أن فيهم وفيهن من يظلم العاملة؟ ويحرمها من راتبها؟ ويجلدها؟ ولا يطعمها إلا الفتات؟ لماذا لا تجد فيديوهات في هذا؟ ولماذا لا تنتشر قصص من هذا النوع؟ ولماذا لا تظهر هذه الأمور إلا في احصائيات وتقارير مؤسسات حقوق الإنسان؟ وأما فيما بين الناس فلا يتناقل إلا القسم الأول؟

إن بعضنا لينشغل بنشر وإعادة نشر هذه المقاطع، وتكرار ارسالها بين مدة وأخرى وقد يتسبب ذلك في إشعال نار التشنج تجاه عاملة فقيرة مستضعفة تركت أهلها، وأبناءها، وعائلتها مغتربة من أجل أن تكدح من الساعة السادسة صباحا إلى نصف الليل، من أجل تحصيل القوت لأهلها.

هذا مع علمنا أيضًا بأن العمال من هم سيئون وسيئات من العاملات وأن من بين مئات الآلاف من هذه العاملات توجد نسبة لا تستحق أن تدخل بيوتنا، لكن تصوير الأمر وكأن أرباب العمل هم ملائكة مقربون، وأنهم دائما هم المظلومون غير صحيح.

لماذا يظلمون غيرهم؟

روي عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «اتَّقُوْا دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَى الغَمَامِ، يَقُولُ اللهُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِين».[1]

وفي حديث مروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «اتَّقُوْا دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ يَسْأَلُ اللهَ حَقَّهُ، واللهُ سُبْحَانَهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حَقًّا إِلَّا أَجَابَ»[2].

لماذا يقوم إنسان بظلم آخر؟ الأسباب متعددة، إلا أننا نتناول ما هو قريب منا في الحالة الاجتماعية؛ لكي نتجنب تلك الأسباب.

١. فمن تلك الأسباب: أن الإنسان الظالم لغيره يرى نفسه المحور، ويرى ذاته الأفضل، إنه يلاحظ أن تحصيل الأشياء لنفسه، وسلبها من الآخرين، ولو كان من غير حق، أمرٌ طبيعيٌ؛ لأنه يرى نفسه ذات أهمية.

إن غريزة حب الذات موجودة في كل مخلوق، لكن هذا المخلوق يحب ذاته،

---

(١) الطبراني؛ الحافظ سليمان: المعجم الكبير ٤/ ٨٤.

(٢) النجفي؛ الشيخ هادي: موسوعة أحاديث أهل البيت ٦/ ٣٥٦.

ويرى لنفسه التقدم على غيره والفضل عليهم فلا يمكن أن يساويه أحد في زعمه! ولعله لهذا السبب جاءت التعاليم الدينية أولا لكي تفهم البشر أنهم جميعا (عباد الله) وأنهم لا يتقدم أحدهم على الآخر بذاته وإنما بعمله وكسبه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.[١]

في المقابل حاول البشر أن يجعلوا لأنفسهم مبررات تبيح لهم ظلم غيرهم، تارة على أساس عنصري وأخرى على أساس ديني وهكذا فاليهود - مثلا - اعتقدوا بحسب تعاليمهم المحرفة بأنهم أفضل من سائر البشر، لماذا؟ لأنهم أبناء الله، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[٢]، فإذا كان أحدهم ابن الله، وحبيبه فمن الطبيعي أن يكون أفضل من غيره ممن ليس ابنا لله ولا حبيبا له. ويترتب على هذا أن يعتقدوا أن من كان من غير أبناء الله، إنما خلقوا لخدمة أبناء الله. وأنه لو أخذ أبناء الله أموال الغرباء عن الله والبعداء عنه ولم يؤدوا إليهم ديونهم فـ ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾.[٣]

نعم عندما تتجسد صفات الخير والفضيلة في فئة من الناس فبمقدار ما تكون حاملة لتلك الصفات تفضل غيرها، ولذلك فإن ما ورد في تفضيل أمة الإسلام، فليس لأن اسماءها فلان وفلان أو لأن قبائلها كذا أو لأن منطقتها الجغرافية.. وإنما ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ والسبب هو ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[٤]ولذلك لو فرضنا أن هذه الأمة تركت تلك الصفات أو

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) المائدة: ١٨.

(٣) آل عمران: ٧٥.

(٤) آل عمران: ١١٠.

أن جيلا منها تركها في وقت من الأوقات ما هي النتيجة؟ ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.(١)

المشكلة أن الظالم وهو يظلم غيره يرى الأمر طبيعيًا، فإنه الأفضل والأحسن والأحق بالحياة وإمكاناتها! ويرى نفسه أولى بالخير من غيره. ولو استغربت من هذا فلك أن تمتحن نفسك لترى كم هو المقياس عندك وهل هو مختل أو متعادل: أنا وأنت نقود السيارة، فنريد الطريق أمامنا خاليًا ليكون سيرنا منسابًا، فإذا عبر المشاة أمامي تذمرت من ذلك قائلا إن المشاة يفسدون النظام، ماذا يضرهم لو تأخروا لدقيقة حتى تعبر السيارات؟ أما في اليوم الثاني فينعكس الموضوع، وأكون من المشاة ويقود أحدهم سيارته في نفس المشهد الذي كنت فيه بالأمس قائدًا! ويريد قائد السيارة أن يمر بها فأتبرم منه قائلا: ما لهؤلاء السائقين؟ ماذا يضرهم لو تأخروا دقيقة حتى نمر نحن المشاة؟ لماذا لا يسمحون لنا بالمرور؟

هنا جعلنا أنفسنا المحور.. فإذا كنا مشاة فالمفروض أن تتقدم حقوق المشاة! وإذا كنا سائقين فحق السائقين!

ومثال آخر: حين نكون في صف الانتظار (لاين كما يقال) في المخبز أو الدائرة الحكومية أو غيرها، ويأتي شخص من نهاية الصف ليتقدم على الآخرين.. هو يفكر أنه لن يضرهم لو تقدم شخص واحد فالمسألة لا تستغرق سوى دقائق! خاصة وأنه في عجلة من أمره ولديه ظرف خاص! فيتعجب ممن يعترض على تقدمه في الصف وربما تبادل الشتائم معهم..

وفي اليوم الثاني: ينعكس الموضوع، هو في المقدمة بحسب تبكيره في المجيء للصف، فيأتي أحدهم من آخر الصف ويتقدم على الجميع ليصبح الأول، فلا يقبل

---

(١) محمد: ٣٨.

منه! ويصرخ في وجهه ألا تعرف النظام؟ ألست متحضرًا؟ لماذا تأخذ حق غيرك! اذهب وقف آخر الصف!.

يقال له: لماذا لم تقل هذا الكلام لنفسك بالأمس؟ ولماذا عندما تجاوزت الصف، وتخطيت من كان منتظرًا، لم تقل: أن الناس أيضًا لديهم التزامات، لم تقل: أن الالتزام بالنظام حالة حضارية؟ لكن لما تجاوزوا عليك، قلت هذا كله.. معنى هذا: أنه يجعل نفسه المحور.

فإذا كان غنيًا يلوم الفقراء، وأنهم تنابلة ويكون الواحد منهم كَلّا على الناس، وعالة عليهم.! فنحن لم نحصل على هذه الأموال إلا بعرق جبيننا. أنت أيضًا اذهب واعمل، لتحصل عليها.

ثم تدور الدائرة ويصبح هو الفقير، فيرى الغني - مثلا - لا يعطيه العطاء الذي يطمح، فينتقده بأن هؤلاء البشر هم الذين يكنزون الذهب والفضة! فلمن يخزن هذه الأموال، وهي في يوم القيامة، وبال عليه؟ وماذا يضره لو أعطى كل فقير ألف ريال!

كذلك يقال له: لماذا لم تقل هذا الكلام في الماضي، وقلته اليوم؟ عندما كنت غنيًا، كان همك مهاجمة الفقير فلما صرت فقيرًا، عدت تهاجم الغني! كل هذه التحولات يختصرها شيء واحد؛ هو: أنا المحور!

لعل هذا يفسر لنا ما ورد في أحاديث من؛ أن حب الدنيا رأس كل خطيئة.. فهل يعني حب الدنيا: حب الشارع أو حب الأشجار؟ أو هو حب البحر؟ كلا بل إن معناه: أني أحب ذاتي، وأحب أن تكون هذه الأشياء لي وأسر بالنظر لها..

وحب الذات هذا إذا لم يسيطر عليه الإنسان؛ في حدوده يكون مقدمة لظلم الآخرين..

٢. من الأسباب: الشعور بالقوة وأنه فوق الحساب والعقوبة: فإذا كان في بيته فهو السيد الذي يضرب هذه الزوجة ويعاقب الأولاد، ولا تستطيع أن ترد عليه خوفا من الطلاق أو أن يعاقبوه خوفا من انقطاع صرفه عليهم.. والمعلم يظلم الطالب عنده ويهدده بأنك إن أخبرت أحدًا، سترجع علامتك إلى نصف الدرجة!.

وهذا النمط من الناس، عندما يُرفع أمره إلى جهة أقوى منه وأقدر، تراه، يخنع ويركع، ويصبح أذل من الذليل. فهو يعنف أسرته بالضرب، فإذا أخبرت عنه جهة رسمية تهتم بالحماية الأسرية تراه يأتيهم خاضعًا خانعًا.

إن شعور هؤلاء بالقوة، وأنه لا أحد يستطيع أن يقف أمامهم يصنع حالة الطغيان عندهم، وهذا كما يصدق على رب الأسرة، ورب العمل، يصدق على الحاكمين.

سلوبودان براليك؛ قائد عسكري كرواتي حوكم في محمكة الجنايات الدولية، على جرائم ارتكبها ضد المسلمين البوسنيين في الحرب الكرواتية الصربية البوسنية، ولما أحس بأنه سيدان تناول السم في المحكمة وأنهى حياته!

فهو عندما كان صاحب القدرة والقوة، لم يكن يرتدع عن ارتكاب الجرائم ولكنه لما أصبح أمام قوة أكبر منه، وقانون قادر على تنفيذ ارادته فيه، انتهى ذلك الشجاع القوي إلى ضعيف منهزم يرى أن حياته لا تستحق شيئا فينتحر!

إنهم يرون أنفسهم أقوياء وضحاياهم ضعفاء غير قادرين على المواجهة والمقاومة، فيظلمونهم.. من هنا ورد في الأحاديث التذكير بقدرة الله تعالى على الظالم حين يظلم، لا أن يفكر في ضعف المظلوم (إذا ذكرت مقدرتك على الناس فاذكر مقدرة اللَّه جل وعز عليك غدًا ونفاد ما أتيت إليهم عنهم وبقاء ما أتيت إليهم

عليك).[١] كما عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «للظالم البادي غدا بكفه عَضَّة»[٢].

٣. ومن أسباب الظلم الشعور باللذة والانتعاش في إيذاء الغير وظلمهم، وهي أشبه شيء بالحالة السادية[٣] في ما يصنفه علماء النفس والسلوك من أنحاء الاضطرابات النفسية. وهذا وإن كان أصله في الموضوع الجنسي إلا أن البعض لديهم هذا الاضطراب النفسي في عموم حياتهم، فتراهم يرتاحون كثيرا عندما يؤذون غيرهم، ويضطهدونهم، ويستشعر أحدهم اللذة عندما يرى غيره ذليلا بين يديه يستعطفه ويتوسل إليه، ويسكر بهذه الخمر حتى الثمالة!

إن النفوس الطبيعية هي التي تحب للآخرين ما تحبه لنفسها، والنفوس الأسمى هي التي تسعى لتصنع الخير للغير وتعينها على أن تكون بوضع أفضل وتشعر براحة ما بعدها راحة حين تسعف إنسانًا أو تغيث مكروبًا أو تشبع جائعًا.. لكن هذا القسم الذي نتحدث عنه منتكس تمامًا، لذته هي في أذى غيره، يسعى شهورًا لإخراج رجل من عمله بل وحتى توريطه في سجن لو استطاع! ويرتاح عندما يعمل على إفلاس شخص ويراه قد انتكست أموره! أو حتى أصيب على أثر ذلك بجلطة قلبية!

---

(١) الفيض الكاشاني؛ محسن: الوافي ١٧ / ١٦٦.

(٢) الإمام علي؛ نهج البلاغة ٤/ ٤٣.

(٣) (نسبة إلى فرانسوا دي ساد الروائي الفرنسي ت ١٨١٤ م الذي كان أبطال رواياته في هذا المنحى، ويرى بعض الباحثين أنه كان يعبر عن نفسه فيها، وأنه كان لديه هذا الانحراف النفسي. فكان لا يستمتع بالجنس؛ إلا بضرب شريكته ضربًا شديدًا إلى أن تدمى. أي لا بد أن تسيل منها الدماء حتى يرتاح، يستمتع، أي تصيبه النشوة في الجنس بهذه الطريقة. هو انحراف جنسي، وموجود إلى الآن، ويصاب به بعض الناس. فأحيانًا هذا يخرج من الحالة الجنسية إلى عموم الحياة عند قسم من الناس.

هذه من السادية في الحالة العامة إن صح التعبير عنها.

ولكي تقمع هذه الخصلة السيئة فقد تم التحذير من التعرض لدعوة المظلوم، لكي لا يستمرئ البعض ظلمه للضعفاء ويستريح إلى صوت عظامهم تتحطم! فإن المظلوم له دعوة مجابة؛ ففي الحديث، عن نبينا المصطفى محمد ﷺ (اتَّقُوْا دَعْوَةَ المَظْلُوم فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَى الغَمَامِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُ اللهَ حَقَّهُ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَمْنَعْ ذَا حَقٍّ حَقَّهُ).[١]

ولعل قائلا يقول: إذا كان كذلك فلماذا لا نرى انتقام الله للمظلوم من ظالمه؟ ونصره المظلوم؟

والجواب عنه: ما يدريك أن الله لم ينتقم من الظالم؟ أنت تقول وأنت صادق: لم نرَ انتقام الله! لكن لا تستطيع القول لم ينتقم الله منه! هل ذهبت له وقت نومه لترى كم يتعذب؟ وهل نظرت إلى كوابيسه التي تنكد عليه تلك الساعات؟ بينما المظلوم نائم ملء عينيه، ذاك يعاني قلق الضمير وعذاب الروح والخوف! إن ما تسرب من القليل عن الظلمة[٢] والطواغيت ليشير إلى ما يحصل للباقي منهم! بالطبع ليس من مصلحتهم ولا من الطبيعي أن يخبر هؤلاء عن عذابهم وما يحصل لهم بسبب مظالمهم ودعاء المظلومين عليهم.

---

(١) الطبراني؛ الحافظ سليمان: المعجم الكبير ٤/ ٨٤.

(٢) الدمشقي؛ ابن كثير: البداية والنهاية ط احياء التراث ٩ / ١١٥:..أُتِيَ الْحَجَّاجُ بِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَهُوَ يُرِيدُ الرُّكُوبَ وَقَدْ وَضَعَ إحدى رجليه في الغرز، فقال: والله أَرْكَبُ حَتَّى تَتَبَوَّأَ مَقْعَدَكَ مِنَ النَّارِ، اضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ قَالَ: وَالْتَبَسَ الْحَجَّاجُ فِي عَقْلِهِ مَكَانَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: قُيُودَنَا قُيُودَنَا، فَظَنُّوا أَنَّهُ يُرِيدُ الْقُيُودَ الَّتِي عَلَى سَعِيدٍ، فَقَطَعُوا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنْصَافِ سَاقَيْهِ وَأَخَذُوا الْقُيُودَ.. فَلَمْ يَلْبَثِ الْحَجَّاجُ بعده إلا أربعين يوماً، وكان إِذَا نَامَ يَرَاهُ فِي الْمَنَامِ يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ ثَوْبِهِ وَيَقُولُ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ فِيمَ قَتَلْتَنِي؟ فيقول الحجاج: مالي ولسعيد بن جبير، مالي وَلِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؟

وثاني نصر الله للمظلوم: أن ترى الظالم يعمل فيك بمعاصي الله عز وجل. فالظالم ماذا يفعل؟ يسلبك مالك، أو يؤذيك! هذه كلها سيئات، وعقاب مجتمِع محمول على ظهره، وفي الآخرة تعلم ما يصنع الله به.

وثالث الأمور: أن يخبو ويخمد ذكر الظلمة، ويتنكر لهم بحيث لا يوجد سويُّ عقل من البشر يتشرف بالانتماء إلى الظالم. كأن يقول: أنا ابن يزيد بن معاوية، ويرفع رأسه شامخا! لكن الملايين من البشر يفتخرون قائلين: نحن أبناء الحسين! وهذه هي الحياة الحقيقية والاستمرار والبقاء. أما الظالم فلا يبقى سوى مدة عمره لتلاحقه اللعنات والبراءة من أفعاله حتى من أهله وأقاربه ونسله. أليس هذا نصرا للمظلوم؟

وأما ما تجرعه المظلوم من كأس مصبّرة من الأذى والعذاب فلا يبتئس فإن (يَوْمُ العَدْلِ عَلَى الظَّالِمِ أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الجَوْرِ عَلَى المَظْلُومِ)[١] وشتان بين يوم ينتهي بأربع وعشرين ساعة، وبين آخر ﴿عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[٢] فليحذر كل ظالم -بمن فيهم ظالمو أسرهم وموظفيهم وجيرانهم وأولادهم أو والديهم- ذلك اليوم الذي يقف فيه بين يدي الله عز وجل، الذي تهدد الظلمة صريحا ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾.[٣]

---

(١) البروجردي؛ السيد حسين: جامع أحاديث الشيعة: ١٣/ ٤١٢ عن أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) الحج: ٤٧.

(٣) ابراهيم: ٤٢-٤٣.

الكسل في أمر المعيشة

عن أبي الحسن، موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: (قَالَ أَبِي لِبَعْضِ وِلْدِهِ، إِيَّاكَ والكَسَلَ والضّجَرَ، فَإِنَّهُمَا يَمْنَعَانِكَ مِنْ حَظِّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)[1].

الكسل كما عرفه علماء اللغة: التثاقل عن الشيء الذي يحسن الانبعاث إليه.

فمثلا يفترض أن ينبعث الإنسان إلى رزقه بالحركة والسعي، لكنه يتكاسل عنه ويتثاقل. والعلم هو كذلك من الأمور التي يحسن الانبعاث إليها، فإذا تثاقل الإنسان عن طلب العلم والمعرفة، عد ذلك كسلا. ومثلهما في لزوم الانبعاث أو أكثر، العبادة والتوجه إلى الله عز وجل فإذا تثاقل المرء عنها، عد ذلك كسلا. وهكذا.

أما لو لم يكن يحسن الانبعاث إليه كالمعصية، فلا يعد ذلك كسلًا ولا مذمومًا، بل يمدح المتثاقل عن المعصية والرافض للانبعاث إليها.

ويرتبط تقبيح الكسل وذمه، وتقريع الكسول بالثقافة السائدة في المجتمع. فربما يكون الكسل عند بعض الناس شيئًا حسنًا، وتعبيرا عن الراحة في الحياة،

---

(١) البروجردي؛ السيد حسين: جامع أحاديث الشيعة ١٤ / ٧٨.

فقد ترى أحدهم عندما يريد أن يصف حياته الهانئة يقول: الحمد لله أكل ونوم، فأنا مرتاح لدي من الأموال ما يكفي فلا أسعى لشيء! بينما هذا المفهوم نفسه في الثقافة الدينية مذموم، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام الذي يقول (فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها أو المرسلة شغلها تقممها).[١]

وقد تكون هذه الفكرة من بقايا الثقافة الجاهلية، التي كان الكسل فيها بالنسبة لبعض فئاتها مدحا فإذا بالمرأة عندهم تمدح بأنها مِكسال أو أنها نؤوم الضحى!، بل لعل طابع الحياة العربية قبل الاسلام كان على هذا النحو يتساوى في ذلك الرجال والنساء؛ فإن «حياة البادية في غاية البساطة ساذجة إلى أقصى حدّ من السذاجة. تذهب وتأتي على وتيرة واحدة ونمط واحد. فليس للرجل في البادية من عمل سوى رعي الإبل والإشراف عليها. وهو عمل لا يستوجب مجهودًا ولا يتطلب بذل طاقة، لذلك يعهد به إلى الأحداث في الغالب، أما الرجال، فليس لهم عمل مهم يذكر. لذلك يقضون معظم وقتهم جلوسًا بغير عمل، أو في التحديق بعضهم إلى بعض. وحياة على هذا النحو تجبل الإنسان على الكسل والخمول. فصار الأعرابي خاملًا كسولًا على صحة جسمه وتوقد ذهنه وذكائه. يحسن الكلام ويجيد تنميق الحديث ويتلاعب في كلامه وفي إيجاد معانٍ وحيل ومخارج له».[٢] فما دام لا يوجد هدف دنيوي واضح يتم السعي له كما هو الحال في المجتمعات التي تتنافس في العلم والمعرفة[٣]، أو هدف ديني يشحذ الهمم والإرادات.. فما الذي يغير حياة الكسل؟

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب: نهج البلاغة - ط مطبعة الإستقامة ٣ / ٨١.

(٢) علي؛ د. جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٨ / ١٩٧.

(٣) من جملة ما ذم به الحطيئة جرول، الزبرقان بن بدر أن قال له: دع المكارم لا تذهب لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي.

إلا أنه مع مجيء الاسلام تغير الحال، وصار النشاط هو طابع المؤمنين به، والحيوية علامة لهم، ولهذا استطاعوا مع قلة عددهم وضعف قواهم أن يهزموا المجتمع والنظام الجاهلي لصالح النظام الذي جاء به القرآن.

إن الآيات القرآنية المؤكدة دائما على (اعملوا) وما يشتق من مفردة العمل، جاءت لتغير النظرة تجاه الحياة. فلم يكتف الدين الاسلامي بأنه « إيمان واعتقاد» وإنما هو دعوة إلى «عمل الصالحات» وهذه مظلة واسعة، تنضوي تحتها عشرات العناوين من الإنجازات الفردية والاجتماعية والعلمية الطبية والصناعية والعبادية وغيرها مما ينتهي إلى نفع الناس. واقترنت علامة المسلم بأنه (مؤمن يعمل) وليس أي عمل (وإنما عمل صالح)! والمتتبع لآيات القرآن يجد عددا كبيرا منها محرضا على العمل الصالح.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[1]

وفي المقابل فقد ذمت التوجيهات الدينية الكسل وقبحت فعله وقرعت فاعله، وطلبت اجتنابه، سواء على المستوى الفكري أو العملي، فللوقاية من الكسل الفكري دعت للنظر والتفكر والتأمل والتدبر؛ سواء في الطبيعة وقوانينها والمخلوقات وأسرارها[2] أو تدبر آيات القرآن ومفاهيمه ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

وكذلك على المستوى العملي والعضلي البدني، في الحياة العامة لطلب الرزق وأمور المعيشة، أو الكسل في طلب العلم، أو أمر العبادة، وسنتناول هذه الجهات بالتدريج.

---

(١) البقرة: ٢٥.

(٢) يوسف: ١٠٥ ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

الكسل عن أمر المعيشة:

ورد في الحديث عن أبي جعفر، محمد بن علي الباقر عليه السلام: «إِنِّي لَأُبْغِضُ الرَجُلَ أَنْ يَكُونَ كَسْلَانًا عَنْ أَمْرِ دُنْيَاهُ فَإِنَّ مَنْ كَسَلَ عَنْ أَمْرِ دُنْيَاهُ، فَهُوَ عَنْ أَمْرِ آخِرَتِهِ أَكْسَلُ»، وفي نسخة «لَأُبْغِضُ لِلرَّجُلِ» ويختلف المعنى. فإذا كان النص «إِنِّي لَأُبْغِضُ الرَجُلَ»، يعني: أني أبغض هذا الكسول بذاته، يعني أن متعلق البغض والكراهة هو ذات الرجل الكسول. وأما أذا كان النص «إِنَي لَأُبْغِضُ لِلرَّجُلِ» فيكون المعنى أن الإمام يبغض عمله.

وعلى أي حال فإن الكسل عن أمور الدنيا وتحصيل المعاش قد يكون راجعا إلى خلل فكري، حين يقول بعضهم في تبرير ذلك: ما قيمة الدنيا؟ ليس لها قيمة، وإنما خلق الإنسان للآخرة، فعليه أن يسعى لتلك الباقية بدلا من هذه الفانية! ينتج عن هذا أن يكسل عن أمر معاشه وإن نشط في أمر عبادته، وربما أضاف إلى هذه الفكرة، فكرة أخرى غير صحيحة من أن الرزق لما كان من عند الله فإذا عبدت الله وتوكلت عليه فقد تكفل برزقك، ولعل قسما غير قليل من المتصوفة والدراويش يعتقدون بهذا، فهم لا يسعون في أمر معاشهم ويتمثلون بالقول:

إن الـــذي شـــق فـمـي كافل ... بـــالـــرزق حـتـى يـتـوفـانـي[1]

---

(١) ولا ريب أن الله سبحانه وتعالى خلق الكائنات وجعل رزقها عليه ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وبالنسبة للبشر ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾، وهذا لا يختلف فيه أحد من أهل الدين، وإنما الكلام أنه هل وضع قواعد في ذلك وسننا أو لا؟ لقد ربط الله سبحانه رزقه بأن جعل الأرض ذلولا، وطلب من خلقه أن يمشوا في مناكبها حتى يأكلوا من رزقه.. وبلغ الأنبياء والأوصياء عن ربهم أن من جملة من لا يستجاب دعاؤهم من يجلس في منزله ويدعو ربه بالرزق.. فعن الإمام الصادق (أ رأيت لو أنّ رجلا دخل بيتا وطيّن عليه بابه. ثمّ قال. رزقي ينزل عليّ كان يكون هذا أحد الثلاثة الّذي لا يستجاب لهم قلت: من هؤلاء قال:.. والرجل يكون عنده الشيء فيجلس في بيته فلا ينتشر ولا يلتمس ولا يطلب حتّى يأكله. ثمّ يدعو فلا يستجاب له).

وفي تتمة الحديث يغلّط الإمام الكسالى عن أمر معاشهم، ويقول إن من كان كسولا عن أمر دنياه فهو عن أمر آخرته أكسل.

أما لماذا كون هذا الشخص عن أمر الآخرة أكسل؟ فذلك قد يكون لأنه إذا كان عن متطلبات الدنيا واحتياجاتها وضغوطها الحاضرة والفعلية (من الحاجة للطعام والكساء، والانفاق على الزوجة والعيال) لم تكن دافعا له للنشاط والعمل والكسب، فإن الآخرة والمفروض أن ضغوطها ومتطلباتها مؤجلة لن تكون دافعا له، وإذا كان عن هذه الحاجة الفعلية عاجزا فهو بلا ريب عن الحاجة المستقبلية البعيدة أعجز!

وفي حديث الإمام موسى الكاظم والذي نقله[1] عن أبيه الإمام جعفر الصادق عليهما السلام «قَالَ أَبِي لِبَعْضِ وِلْدِهِ، إِيَّاكَ والكسَلَ والضّجَرَ، فَإِنَّهُمَا يَمْنَعَانِكَ مِنْ حَظِّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ» فالكسل والضجر يمنع الإنسان من حظ الدنيا والآخرة.

وأما إذا وصل الكسل إلى حد الفراغ والنوم بحيث لا يكاد صاحبه يستيقظ إلا لكي ينام! فإن هذا مهدد في أن يذهب دينه ودنياه! ففي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كَثْرَةُ النَّوْمِ مُذْهِبَةٌ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا»[2] أو « مَذهبة». فحتى العبادات تحتاج إلى مستيقظ، وأما من يغط في نومه فلا هو حائز حظ الدنيا ولا الآخرة.

وفي آخر عن الإمام الكاظم: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبْغِضُ الْعَبْدَ النَوَّامَ الفَارِغَ».

---

(١) أحيانا ينقل الإمام حديثا عن النبي صلى الله عليه وآله، أو عن أحد آبائه من الأئمة، ومع اعتقادنا بأن كلامهم واحد من حيث حجيته ولزوم الأخذ به قد يثير سؤالا عن الهدف من نقله عمن سبقه ! والجواب عن ذلك متعدد؛ أحد أوجهه أن الإمام عليه السلام يريد بيان أن هذا المضمون مما هو من الخطوط المشتركة في التأكيد عليها، والاهتمام بها سواء بين الأنبياء أو بين الأوصياء.

(٢) الكليني؛ الكافي- ط الاسلامية ٥ / ٨٤.

وفي مقابل ذلك فقد تم التأكيد على التبكير في الاستيقاظ بما يحمل من معنى النشاط والاستعداد للعمل. التبكير بذاته ـ بغض النظر عن أن وقت عمله الرسمي سيبدأ بعد ساعة ونصف من ذلك الوقت المبكر مطلوب ومرغوب فيه، وقد حثت عليه الروايات، وربطته بسعة الرزق وأن قسمة الأرزاق هي بين الطلوعين -الفجر والشمس-. وقد يكون الأمر غيبيًا بمعنى أن الله سبحانه قد قضى لمن يستيقظ في ذلك الوقت مقدارًا من الرزق أكثر مما لو لم يكن قد استيقظ! وقد يكون الأمر طبيعيًا وعاديًا مما يشاهده الإنسان بالوجدان من أن الناجحين في حياتهم (من العلماء والتجار وغيرهم) هم الذين يبكرون في عملهم ويبادرون إلى نشاطهم العلمي أو الاقتصادي ويكتشفون الفرص، ويكون لديهم الوقت الكافي لإنجاز مشاريعهم بخلاف أولئك الذين يستيقظون بعدما مضى ثلث النهار![1]

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُم الحَاجَةَ فَلْيُبَكِّرَ إِلَيْهَا. فَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُبَارِكَ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا» وهو راجع إلى أحد الأمرين السابقين.

كما تم التأكيد على السعي في طلب الرزق بل والحركة والاغتراب لو تطلب الأمر، على خلاف ما يريده البعض من أن يكون عمله عند بيته وإلا فلا يعمل! وبدلا من ذلك يريق ماء وجهه بالسؤال لأنه يريد عملًا مفصلًا على مقاسه وفي منطقة قريبة من بيته! ويقول لك بعد ذلك بحثت عن عمل فلم أجد! ويقصد أنه لم يجد

---

(١) أحدهم كان يعلق تعليقا لطيفا، يقول: أنا أتعجب من بعض الناس ممن يبقى نائما إلى الساعة الثامنة صباحا، ثم يكتب في عنوانه، أو حالته، في تويتر، والفيسبوك او غيرها: اللهم ارزقني قصرا في الجنة! هو نائم للساعة الثامنة، ويريد قصرا في الجنة. فيعلق هذا عليه بقوله: إذا وجدت موقفا فارغا لسيارتك في دوام عملك فاحمد ربك، وليس قصرا في الجنة. إنك مع هذا التأخر في النوم قد لا تجد موقفا لسيارتك! وأنت تفكر في قصر الجنة؟

عملًا بالمقاييس التي وضعها هو وإلا فالأعمال موجودة في كل مكان، والله جعل الأرض ذلولًا لكن طلب من عباده أن يمشوا في مناكبها[١] ليأكلوا من رزقه.

وفي الرواية، عن الإمام الصادق عليه السلام، «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيُحِبُّ الاغْتِرَابَ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ».

نعم وردت روايات تجعل من سعادة المرء أن يكون رزقه في بلده وعند أهله،[٢] وهذا لا ريب فيه لمن كان مخيرا بين أن يكون رزقه بعيدًا عن داره وأهله وعياله وبين أن يكون بينهم وعندهم! فلا يوجد عاقل يختار البعد على القرب، ولكن لو كان الرزق ـ لأسباب مختلفة ـ مرتبطًا بالاغتراب، كأن تكون أرباح التجارة في ذلك المكان أكثر أو فرص الأعمال أكثر! أو لغير ذلك، فلا معنى هنا أن يختار الإنسان بلده مع قلة الرزق وشحة الموارد إذا كان بإمكانه الاغتراب وتحصيل أضعاف ذلك في نفس المدة.

وفي رواية أخرى تشير إلى الأثر المترتب على الشخوص والاغتراب في طلب الرزق: « اشْخَصْ، يَشْخَصُ الرِّزْقُ لَكَ»![٣].

ونلاحظ في الحديث أنه بينما كان الله « يبغض» من يكون كسلانا عن أمر دنياه ورزقه، هنا «يحب» الاغتراب.

---

(١) قال بعضهم أن (مناكبها) تعني طرقها وأطرافها، وقال آخرون أن معناها جبالها، وأيا كان فلا بد من الحركة في أطرافها وأكنافها صعودا ونزولا حتى يحصل المرء على رزقه!

(٢) بل ورد في تعقيب الصلاة: اللهم فاجعل رزقي واسعا ومطلبه سهلا ومأخذه قريبا

(٣) الحر العاملي؛ محمد بن الحسن: وسائل الشيعة – ط الإسلامية ١٢/ ٥٠.

طلب الرزق أو الاعتماد على المساعدات؟

ومما يكرس حالة الكسل عند البعض هو الاعتماد على مساعدات الآخرين له، واستسهال هذا مع أنه من الأمور المكروهة جدًا في الشرع أن يتعرض الإنسان للمسألة والطلب من غيره، مع قدرته على طلب رزقه والسعي في ذلك، وربما يتصور بعضهم أن الأمر لا يكلفه سوى رسالة واتساب يرسلها إلى عشرة ممن يعتقد بأنهم سيساعدونه، فلو لم يفعلوا لم يخسر شيئًا! لكنه لا يدري كم خسر! ولا يعلم ماذا صنع بنفسه في يوم القيامة! وعندما يأتي للحساب كيف سيأتي؟(١)

لقد علّم النبي أصحابه أن السعي هو الطريق الأشرف للثروة بل والأقل تكلفة من طلب المساعدة والتعود عليها. ففي ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: اشتدت حال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله فقالت له امرأته، لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله فسألتَه فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فلما رآه النبي صلى الله عليه وآله قال: من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله، فقال الرجل: ما يعني غيري فرجع إلى امرأته فأعلمها، فقالت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله بشرٌ فأعْلِمه فأتاه فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله، حتى فعل الرجل ذلك ثلاثا ثم ذهب الرجل فاستعار معولا ثم أتى الجبل، فصعده فقطع حطبًا، ثم جاء به فباعه بنصف مد من دقيق فرجع به فأكله، ثم ذهب من الغد، فجاء بأكثر من ذلك فباعه، فلم يزل يعمل ويجمع حتى اشترى مِعوَلًا، ثم جمع حتى اشترى بكرين (جملين صغيرين) وغلاما ثم أثرى حتى أيسر

---

(١) قد عنون الحر العاملي في وسائل الشيعة ٩/ ٤٣٦ بابا بعنوان تحريم المسألة من غير احتياج، ذكر فيه عددا من الأحاديث منها: ما عن علي بن الحسين عليه السلام: ضمنت على ربّي أنّه لا يسأل أحد من غير حاجة إلاّ اضطرّته المسألة يوماً إلى أن يسأل من حاجة. وعن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: اتّبعوا قول رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّه قال: من فتح على نفسه باب مسألة فتح الله عليه باب فقر وعن أبي عبد الله عليه السلام: ما من عبد يسأل من غير حاجة فيموت حتى يحوجه الله إليها ويكتب الله له بها النار. وكذلك عنه: من سأل الناس وعنده قوت ثلاثة أيّام لقي الله يوم يلقاه وليس على وجهه لحم.

فجاء إلى النبي ﷺ فأعلمه كيف جاء يسأله وكيف سمع النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: قلت لك: من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله.(١)

وفي نص آخر منقول عن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قالَ: «أَسْرَحَتْنِي أُمِّي إلى النَّبِيِّ ﷺ يَعْنِي لِأَسْأَلَهُ مِن حاجَةٍ شَدِيدَةٍ، فَأَتَيْتُهُ، وقَعَدْتُ فاسْتَقْبَلَنِي، فَقالَ: مَنِ اسْتَغْنى أَغْناهُ اللَّهُ، ومَنِ اسْتَعَفَّ أَعَفَّهُ اللَّهُ، ومَنِ اسْتَكْفى كَفاهُ اللَّهُ، ومَن سَأَلَ، ولَهُ قِيمَةُ أُوقِيَّةٍ، فَقَدْ أَلْحَفَ، فَقُلْتُ: ناقَتِي خَيْرٌ مِن أُوقِيَّةٍ، فَرَجَعْتُ ولَمْ أَسْأَلْهُ».

وفي نص ثالث، إن الراوي للحديث طلب من النبي مساعدة، فقال له النبي: ماذا تملك؟ فقال: لا أملك شيئًا غير مسح وقِعْب. المسح، يعني: الحصير المتهالك، وقِعْب، يعني: إناء أو ما شابه ذلك. فأمره النبي ﷺ أن يأتي بهما، وقال للحاضرين: من يشتري هذين بدرهمين؟ فقال أحد الحاضرين: أنا أشتريهما بدرهم. قال النبي: لا. فباعهما له من آخر قال: أنا أشتريهما بدرهمين. فاشتراهما منه بدرهمين

ثم أعطى الرجل -طالب المساعدة- درهمًا، وقال له: خذ هذا، واشتر لأهلك طعامًا. واشتر بالآخر قدُّومًا، ثم قال له: اذهب واحتطب خارج المدينة، فثمة شجيرات، ولا تأتني إلا بعد ١٥ يومًا.

بحسب هذه الرواية ذهب واحتطب في اليوم الأول، وباع الحطب في السوق، فحصل على درهم. وفي اليوم الثاني: ضاعف الكمية، وهكذا، إلى أن جاء بعد ١٥ يومًا، ومعه ١٠ دراهم. غير التي أكل منها خلال الأيام الخمسة عشرة. وقال: يا رسول الله، هذا ما بقي عندي. فقال له: أهذا خير أو أن تسأل وتأتي يوم القيامة ونكتة بين عينيك؟. أي: هناك نكتة، إن أنت تمد يدك إلى زيد وعمرو، مع أنه أنت عندك قدرة، وعندك إمكانية أن تكسب رزقك بنفسك.

(١) الكافي- ط الاسلامية ٢ / ١٣٩).

هذه ثلاثة أنحاء من نقل القصة، ويحتمل أن تكون قصة واحدة لكن اختلفت كيفيات نقلها، ويحتمل أن تكون قصصًا متعددة لأشخاص مختلفين، ومما يؤيد الثاني أن تفاصيل القضية مختلفة، كما أن كون النبي في موقع الحاكم المالك للمال وأنه مقصد للمحتاجين ومن يطلبون المساعدة والعون يقوي الفكرة الثانية، وأن النبي مع كل هؤلاء يسعى لتعليمهم منهج الكسب في الحياة والنشاط وعدم الاعتماد على مساعدات الغير!

إن تحويل (المِسح والقِعب) إلى رأسمال ينطلق منه في العمل والتجارة، هو ما تقوم به اليوم كبار الشركات التي تعمل على إعادة التدوير (من النفايات والأشياء المهملة) لتتحول إلى أموال وثروة.

الكسل في العبادة والعلم

ورد في الحديث: «لِلْكَسْلَانِ ثَلَاثُ عَلَامَات: يَتَوَانَى حَتَّى يُفَرِّطَ، وَيُفَرِّطُ حَتَّى يُضَيِّعَ، وَيُضَيِّعُ حَتَّى يَأْثَمَ»[1]

يتوانى عن الشيء حتى يفرط فيه حيث لا تبقى الأشياء بانتظاره دائما، وإنما هي مرهونة بأوقاتها، وهي فرص محدودة بحدودها الزمانية والمكانية ولا تبقى إلى الأبد وفي كل الأماكن!، فلنفترض: صلاة الجمعة. فإن النشط يقوم قبل وقتها بمدة كافية فيغتسل غسل الجمعة، ويتطيب، ويتهيأ، ويبادر للذهاب وقد حسب مقدار المسافة لكي يكون مع أول وقتها في المسجد.

وأما الكسلان فإنه يتوانى ويتأخر إلى أن يقترب وقت الآذان، فيضيق عليه الوقت أن يغتسل إذ الوقت لا يتوقف ولا ينتظره، وهكذا ضاع عليه الاغتسال، لكنه لما كان متعودا على التواني والتأخر فهو يتوانى حتى عن الوصول إلى الصلاة وربما

---

(١) البروجردي؛ السيد حسين: جامع أحاديث الشيعة ١٤/ ٨٠ عن أمير المؤمنين علي ﷺ ورواه الصدوق في العيون عن أبي عبد الله ﷺ وكذلك هو مروي عن الإمام علي بن الحسين السجاد ﷺ وعن لقمان الحكيم.

فاته أكثرها أو فاتته كاملة!. فرط حتى فقد الثواب، لكنه في موارد أخر قد يفرط حتى يأثم عندما تفوته الواجبات كصلاة الفجر. فهو يجعل المنبه على ما قبل طلوع الشمس بدقائق، حتى إذا رن جرسه على ذلك الوقت توانى عن الاستيقاظ بزعم أنه سينهض بعد قليل وهكذا يفرط حتى يأثم بتأخيره صلاته إلى ما بعد طلوع الشمس!

وفيما مر من الصفحات تناولنا جانبا من كسل المرء في أمور معاشه وحياته الاقتصادية، ونتناول في هذه ما يرتبط بالكسل في المجال العلمي.

ما هو الأسوأ من الكسل هو التبرير الذي يسوقه هؤلاء لحالتهم! وهو عندما يقول: أنا هكذا، طبيعتي على هذا النحو! شخصيتي هكذا.

كلا! ليس هذا صحيحا. لم تكن شخصيتك هكذا، بل هكذا أردت لشخصيتك أن تكون. وإلا فإن الله لم يخلقك كسولًا وخلق غيرك نشيطًا! أردت الكسل فصار وضعك هكذا. ولو أردت النشاط لتغيرت طبيعتك. لو عودت نفسك على الحركة والنشاط لاعتادت عليها. ولو تعودت على القيام فجرًا، والذهاب باكرًا إلى العمل أو العلم. لصار برنامج حياتك هكذا. لكنك لم ترد ذلك.

وبشكل عام فإن من أسوأ التبريرات أن يعتمد شخص على قوله: أنا طبيعتي هكذا! ويتخذ هذا مبررا له في وقت الغضب لأنه طبيعته كما يقول إنه إذا انتقد أحد تصرفه أن يغضب! أو إذا تأخر عليه يشتم! أو إذا جاع يصرخ على غيره! أو ما شابه.. التبرير لكل هذه الأخطاء بأن طبيعته هكذا قد يكون أسوأ من الفعل السيء نفسه. وذلك لأن التبرير ينبئ عن كونه متعايشًا مع الخطأ وقابلًا به، ويراه طبيعيًا! وهذا من معاني (كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفًا)! ويستبطن أنه لا ينوي تغيير هذه (الطبيعة) ولا إعادة النظر فيها إنه لا يبرر لها كخطأ وقع فيه وإنما يبرر بها سائر الأخطاء!

لا بد من فضح هذا التبرير السقيم وعدم القبول به أبدا. كيف صارت طبيعتك هكذا مع أن أخاك وشقيق نفسك ومن تربيت معه في بيت واحد وبيئة واحدة، نشط وسباق في مجالات العلم والعمل والرزق؟ هل عندما عجنت طينتك وضع فيها محلول الكسل والتواني والتضييع؟

إن نظرة في حياة العلماء العظماء لتشير بوضوح إلى أن هؤلاء لم يكونوا أصحاب ذكاء خارق بالضرورة وإنما كانوا نشطين في طلب العلم، تاركين للكسل وعوامله. ذلك أنه حتى أصحاب الذكاء الخارق إذا كانوا كسالى لا ينفعهم ذكاؤهم ذاك في صنع شيء مهم، بخلاف ما إذا كانوا نشطين رافضين للكسل فإن ذلك النشاط يوصله إلى مبتغاه حتى لو لم يكن ذكيا بشكل كبير.

وسنأتي بذكر مثال من علمائنا وهو المولى صالح المازندراني[1]نقل عنه القول: «أنا حجة على جميع طلبة العلم فإنني لا أتصور أحدا أضعف حافظة مني ولا أكثر فقرا». ومع ذلك فقد وصل إلى أعلى المراتب، وله شرح كبير على كتاب الكافي للكليني (الأصول والروضة) في اثني عشر مجلدا وفيه بحوث دقيقة كما له شرح على من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق.

ونتناول جوانب من حياته المباركة، لنبدأ مما نسب إليه من أنه ممن يحتج بهم على طلاب العلم، فإنه ينقل عنه: أنه ما تعلم القراءة والكتابة إلا في الثلاثين من

---

(١) توفي في اصفهان سنة ١٠٨١ أو ١٠٨٦ هـ، ونقل عنه المحدث النوري في خاتمة المستدرك ٢/ ١٩٧ أنه كان يقول: وكان (رحمه الله) يقول:

أنا حجّة على الطلّاب من جانب ربّ الأرباب؛ لأنّه لم يكن في الفقر أحد أفقر منّي، وقد مضى علَيّ برهة لم أقدر على ضوء غير ضوء المستراح. وأمّا في الحافظة والذهن فلم يكن أسوأ منّي، إذا خرجت من الدار كنت أضلّ عنها وأنسى أسامي أولادي، وابتدأت بتعلّم حروف التهجّي بعد الثلاثين من عمري، فبذلت مجهودي حتّى مَنّ اللّٰه تعالى عليَّ بما قسمه لي...

العمر! وذلك لأنه كما قيل كان كثير النسيان، فما يدرسه اليوم ينساه في اليوم الذي بعده، بل كان نسيانه إلى حد أنه يخرج من بيته، ثم ينسى أين هو، فيظل حائرا كيف يعود إليه. أو يذهب اليوم إلى بيت أستاذه. ثم اليوم الثاني ينسى أين البيت! بل أحيانا ينسى طريق منزله هو! ولكنه وصل إلى مرتبة قيل عنه فيها «كان ماهراً في المعقول والمنقول، جامعاً للفروع والأُصول».[1] ويتحدثون عن فقره فيقولون إنه كان قبل زواجه لا يملك غير ثوب واحد، فإذا تنجس أو اتسخ غسله وظل ينتظر حتى يجف، ثم يذهب فيه إلى الدرس. وأما وسائله في الكتابة والتحرير فكان يجمع الأوراق الموجودة في الطريق ويكتب عليها.

مع أن الحالة كانت في زمن أستاذه العلامة المجلسي الأول محمد تقي ووالد زوجته حالة يسر، وكان الورق فيها منتشرا. واستمر به الحال هكذا إلى أن تزوج ابنة المجلسي الأول وأخت العلامة المجلسي الثاني محمد باقر، فتغيرت حالته بالتدريج.

ومحل الشاهد في هذه القصة: أن هذا الذي كان ينسى إلى حد أنه لا يتذكر طريق منزله الشخصي، وطريق منزل أستاذه، والذي تعلم القراءة والكتابة وهو في الثلاثين من العمر، هو نفسه بسعيه ونشاطه واستمراره صار أحد أعاظم علماء الطائفة. مع أنه لم يكن لديه حافظة استثنائية بل ولا عادية.

أما النموذج الآخر في النشاط والسعي والدأب وعدم الكسل، وهو نموذج معاصر فهي المرأة الأمريكية المعروفة: هيلين كيلير.

هيلين كيلير، كاتبة وأديبة وناشطة سياسية، توفيت سنة ١٩٦٨ عن عمر يقارب ٧٩ سنة كانت فيها صماء وبكماء وخرساء! فهي قد أصيبت بعد ولادتها بـ ٢٠ شهر

---

(١) روضات الجنات / محمد باقر الخوانساري.

تقريبا، بمرض أفقدها السمع والبصر، وهذا يعني أن اثنين من منافذ المعرفة الثلاثة (السمع والبصر والفؤاد) قد ذهبا. لكن الذي لم يذهب عنها مساعدة والديها، وعزيمة بقيت تغذي طموحها باستمرار وتقدح ارادتها! ولولا ذلك لكان أقصى ما ستحققه أن تكون متسولة على قارعة طريق!

بمساعدة مدرسة جلبها والدها لها، تمكنت من تعلم الأشياء بالإحساس، باللمس، وبحركة الشفة حتى دخلت المدرسة الابتدائية بعد ذلك، والمدرسة المتوسطة، والمدرسة الثانوية، ثم الجامعة (هذا كله وهي لا ترى ولا تسمع) وتخرجت في تخصص العلوم والفلسفة! وهي أول جامعية كفيفة البصر وصماء في تاريخ الجامعات.

ولأن (المرء يطير بهمته كما يطير الطير بجناحيه) فقد تعلمت بالإضافة إلى لغتها الانكليزية اللغتين الألمانية والفرنسية، ومارست أدوارا سياسية وأسست جمعيات في هذا الاتجاه! وتعد داعية للحريات المدنية وقضايا النساء. كما ألفت ونشرت ثمانية عشر كتاباً، ترجم بعضها إلى خمسين لغة منها قصة حياتها.

إن مثل هذه المرأة لتكون حجة على أولئك الشباب أصحاب الأسماع والأبصار والقوى العضلية، والذين يحارون بأنفسهم كيف يتدبرون أمر قوتهم وطعامهم!!

إن هذه الشخصيات تعلم الإنسان ألّا يتزيّا بزي الكسالى، بل أن يطلب العلم الديني او الدنيوي بجد وأن يبعد التواني من حياته حتى لا يفرط فيضيع فيأثم.

إن الكسلان يضيع عمره ويخسره بالتدريج بينما هو مطالب بأن يستثمر كل ساعة فيه، فإنما عمره هو أيام فإذا مضى يوم فقد مضى بعضه، ولذلك فينبغي في هذه الفترة الزمنية أن يكون كادحا جادا سواء كان في أمر العبادة ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ أو العلم أو الكسب والمعاش.

ولقد صدق الشيخ حسن الدمستاني حين قال:

أنفاس عمرك أثمان الجنان فهل تشري بها لهبًا في الحشر يشتعل

أرأيتم الساعة الترابية؟ فيها كرتان، علوية وسفلية والعلوية مملوءة رملًا، ينساب بالتدريج في فتحة صغيرة للكرة السفلية، وكلما مر زمان نزلت حبات الرمل حتى تنتهي بالكامل. وهي بهذا تلخص عمر الإنسان الذي تمر دقائقه وساعاته من فتحة ضيقة إلى كرة أخرى لا يمكن استرجاعها، فإذا مضت هذه مضى عمر الإنسان! «إنما أنت عدد أيام فكل يوم يمضي عليك يمضي ببعضك»[1].

والطريق الوحيد لتعويض العمر المتصرم هو الانتاج والانجاز فيه، سواء كان في أمور العبادة أو العلم أو الانجازات الدنيوية والمعاشية، وهذا ما لا يحصل للكسلان فإنه «يَتَوَانَى حَتَّى يُفَرِّطَ، وَيُفَرِّطُ حَتَّى يُضَيِّعَ وَيُضَيِّعُ حَتَّى يَأْثَمَ».

(١) ميزان الحكمة ٣/ ٢١١٢ عن غرر الحكم.

عوامل الكسل عن العبادة وفيها

جاء في الدعاء المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي، المنقول عن سيدنا زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام، هذه الفقرة: «اللهُمَّ إِنِّي كُلَّمَا قُلْتُ قَدْ تَهَيَّأْتُ وَتَعَبَّأْتُ وَقُمْتُ لِلصَّلَاةِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَنَاجَيْتُكَ، أَلْقَيْتَ عَلَيَّ نُعَاسًا إِذَا أَنَا صَلَّيْتُ، وَسَلَبْتَنِي مُنَاجَاتَكَ إِذَا أَنَا نَاجَيْتُ. مَالِي كُلَّمَا قُلْتُ قَدْ صَلُحَتْ سَرِيرَتِي، وَقَرُبَ مِنْ مَجَالِسِ التَّوَّابِينَ مَجْلِسِي عَرَضَتْ لِي بَلِيَّةٌ أَزَالَتْ قَدَمِي وَحَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ خِدْمَتِكَ سَيِّدِي. لَعَلَّكَ عَنْ بَابِكَ طَرَدْتَنِي، وَعَنْ خِدْمَتِكَ نَحَّيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي مُسْتَخِفًّا بِحَقِكَ فَأَقْصَيْتَنِي أَوْ لَعَلَّكَ وَجَدْتَنِي فِي مَقَامِ الكَاذِبِينَ فَرَفَضْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي غَيْرَ شَاكِرٍ لِنَعْمَائِكَ فَحَرَمْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ فَقَدْتَنِي مِنْ مَجَالِسِ العُلَمَاءِ فَخَذَلْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي فِي الْغَافِلِينَ فَمِنْ رَحْمَتِكَ آيَسْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي آلَفُ مَجَالِسَ البَطَّالِينَ، فَبَيْنِي وَبَيْنَهُم خَلَّيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ لَمْ تُحِبَّ أَنْ تَسْمَعَ دُعَائِي فَبَاعَدْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ بِجُرْمِي وَجَرِيرَتِي كَافَيْتَنِي أَوْ لَعَلَّكَ بِقِلَّةِ حَيَائِي مِنْكَ جَازَيْتَنِي».

نشير في البداية إلى أن راوي هذا الدعاء هو ثابت بن دينار المعروف بأبي حمزة الثمالي، والذي شُبه من قبل الإمام جعفر الصادق عليه السلام، بأنه كسلمان في زمانه. بينما شبهه الإمام علي الرضا عليه السلام بأنه كلقمان في زمانه؛ وعلل ذلك: « أَنَّهُ خَدَمَ مِنَّا أَرْبَعَةً»:

علي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر. أي: أدرك أربعة من الأئمة، وانتفع من علمهم، وأخذ من هداهم. وتوفي سنة ١٥٠هـ. بداية زمان إمامة الإمام موسى الكاظم عليه السلام. وكان هو وأبناؤه على خط أهل البيت، وقد استشهد ثلاثة من أبنائه مع الشهيد زيد بن علي بن الحسين.

وأما الدعاء، فهو نموذج من أدعية الأئمة المعصومين عليهم السلام في مناجاتهم لله تعالى، ومخاطبتهم إياه سبحانه، لأنفسهم من جهة وتعليم أصحابهم وأتباعهم آداب التخاطب مع باريهم وخالقهم. وقد احتوت هذه الأدعية بالإضافة إلى التضرع والتعبد، على معارف دينية وأخلاقية عميقة وعظيمة، بل كانت هذه الأدعية أحد أساليب الأئمة عليهم السلام في بث المعرفة والوعي الديني بين الناس.

والناظر في الأدعية المنقولة عن المعصومين عليهم السلام يلحظ الفرق بينها وبين المنقولة عن غيرهم، فليس الدعاء عنهم مجرد طلبات: يا رب اعطني كذا، واصرف عني كذاك.(١)

وفيما يرتبط بالفقرة المنقولة من دعاء الإمام عليه السلام، فإنه يذكر أولا يذكر حالة تعرض للإنسان، وهي الكسل والفتور في العبادة، وعدم القيام بحق الله عز وجل ويصفها أولا ببيان بعض أعراضها، ثم يذكر العوامل التي قد تسببها، والعجيب أن كل ذلك يتم بصيغة الدعاء والمناجاة والاعتراف.

إنه لا ريب أن العبادة هي غاية خلق الإنسان كما قال تعالى: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ والمراد بالعبادة هنا: معناها الشامل. أي أن يكون كل عمل تقوم به منبعثا عن طاعتك لله وتعبدك بأوامره، حتى ترفيهك لنفسك، وكسبك للمال، وصرفك على العيال، فلو كان ذلك من خلال انطلاق الإنسان من عبوديته

(١) للتفصيل يراجع كتابنا تأملات في شرح دعاء الندبة.

لله، فإنه يكون عبادة، وليس معنى العبادة خصوص المعنى المصطلح، الذي يعني القيام بأعمال مخصوصة أو أذكار معينة، كالصلاة أو الصيام أو الحج..

لكنه هنا في الدعاء يتكلم عن خصوص الأمور العبادية، والصلاة منها بالتحديد، فالداعي هنا يخاطب ربه أنه كلما تهيأ واستعد للقيام بين يدي خالقه لمناجاته والصلاة له، فإذا به يشعر بالنعاس ويأكله التثاؤب! ولا يستشعر قربه من الله حال المناجاة حتى وإن تلفظ بألفاظ الدعاء، فاللسان ذاكر والقلب ساهٍ!

فهو في العبادة سريع الملل، كثير الكسل، سريع الانصراف، بعكس ما لو كانت جلسة مباسطة مع الأصدقاء فلا مانع أن تطول ساعات مشرقة ومغربة! بل حتى لو كان وحيدا مع هاتفه الجوال فإنه لا مشكلة لديه في البقاء فترة طويلة.. أما مع خالقه وفي رحاب ربه، وضمن التعبد له والتذلل، فإنه لا يلبث أن يمل وينعس.. لماذا؟ لا ريب أنه هذه حالة غير طبيعية، جاءت من خلال أسباب استثنائية، وإلا فإن اللازم أن يقبل الإنسان على خالقه حامدا شاكرا معترفا سائلا!

ما لي؟ وما الذي حدث علي حتى صرت هكذا؟

لماذا تعرض عليّ المشاكل والعوائق التي تحول بيني وبينك يا رب؟ ولماذا أصبحت خارج مجالس التوابين وبعيدا عن حلقات العابدين؟

ما هي العوامل والأسباب؟

ينبغي أن نلاحظ هنا تعابير الإمام عليه السلام بأنه يبدأ في ذكر السبب بكلمة (لعلك)، وهذه تستوقفنا في طريقة تحليل الأمور والظواهر، وأنه لا ينبغي الجزم في نسبة النتائج إلى أسباب محددة، فإن النتيجة الواحدة قد تكون مرتبطة بعشرات الأسباب والعوامل المشتركة في إنتاج تلك النتيجة! بينما نحن في الغالب عندما نذكر قضية

نذكر سببا أو سببين على سبيل الجزم والقطع أن هذه هي الأسباب المنتجة لتلك النتيجة! كأن الإمام عليه السلام يريد أن يقول: إن ظاهرة الكسل في العبادة لها أسباب كثيرة ومتشابكة ومترابطة.. منها ما هو نفسي ومنها ما هو اجتماعي ومنها غير ذلك.

لاحظوا هذا التعبير الدارج عندنا.. من لا يقبل الأمر الفلاني إما هو جاهل أو مغرض! ويستخدمه الكثير من الناس في الكثير من القضايا.. مع أن الموضوع يحتمل أكثر من هذين الشقين.

فهل أحطنا علما بكل الأسباب والعوامل والجهات حتى نأتي ونقول: هذا هو فقط! أو إما هذا أو ذاك؟.

وهناك نقطة أخرى قد تشير إليها كلمة (لعل) التي تكررت عشر مرات، يعني تم ذكر عشرة أسباب محتملة لحصول الكسل والتواني في العبادة، وهي أن الأسباب تختلف باختلاف الناس، فما قد يكون سببا أساسيا في حياتك للكسل قد يكون فرعيا في حياة غيرك، وبالعكس. وربما لم يكن عند ثالث موجودا، ولأن الدعاء ناظر إلى جميع الأفراد المفرطين في العبادة، فهذا يناسب أن يستعمل كلمة (لعل) من أن تكون الأسباب مرتبة ترتيبا نهائيا بالنسبة لجميع الأفراد.

إن من لا يذهب إلى المسجد أصلا، هذا قد نُحي عن باب بيت الله عز وجل، فلم يوفق لأن يقف بين يدي خالقه في بيته! وهذا حرمان مضاعف، أي أنه محروم حتى من الحضور الجغرافي والبدني في بيت الله فضلا عن الحضور القلبي والخشوع بين يدي الله. إن أقرب باب لله تعالى هو باب بيوته وبيوته في الأرض المساجد[1]،

---

(١) البروجردي؛ السيد حسين: جامع أحاديث الشيعة ٤/ ٤٤٥ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله تبارك و تعالى: ان بيوتي في الأرض المساجد تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض ألا طوبى لمن كانت المساجد بيوته ألا طوبى لعبد توضأ في بيته ثم زارني في بيتي.

فإذا حرم منها فقد حرم من خير كثير.

(وعن خدمتك نحيتني) إن كون الإنسان في مقام العبودية لله، والخدمة والطاعة، هو مرتبة عالية لا ينالها كل أحد بل خاصة أنبيائه وأصفيائه، فإن فخر نبينا المصطفى سيد الخلائق هو أنه (عبد الله ورسوله) وأحسن صفة للأنبياء وُصفوا بها في القرآن (نعم العبد)،[١] وكان أمير المؤمنين عليه السلام يفتخر قائلا (إلهي كفى بي عزا أن أكون لك عبدا وكفى بي فخرا أن تكون لي ربا).

فإذا خرج إنسان عن هذه المرتبة فقد خرج عن إحدى المراتب العالية، وقد لا يشعر بذلك أو يشعر! وفي هذا تذكر القصص الأخلاقية أن رجلا من بني إسرائيل، كان مستقيما صالحا وعابدا لله، ثم تأثر بالدنيا وتيار الشهوات، وترك كل هذا المسار، ولم يتغير عليه شيء من أمر الدنيا، من أموال ومتع! فجاء إلى نبي ذلك الزمان، وقال له: ألا تقولون أن من أعرض عن ذكر الله تكون حياته ضيقة متعبة؟ إنه لم يتغير علي شيء! فأوحى الله إليه أن يخبره، أن الله عاقبه بأن سلبه حلاوة ذكره، ولذة مناجاته.

لا تعني العقوبة بالضرورة أن يصفعك الله بالبلاء على وجهك!. يكفي أنه يجعلك غير مقبل على الدعاء، وغير راغب في الوقوف بين يديه! يكفي أنك تتسكع على أبواب الخلق، وتفر من باب الخلاق! يكفي ألّا ترتاح إلى ذكر الله، بينما تهش إلى ذكر أعداء الله!.

إن البعض من الناس يتسابقون إلى خدمة السلطان، ويتوسلون بهذا وذاك ليقتربوا من قصره أو يكونوا من حاشيته ومن ينظر إليهم بعطفه! فما ظنك بمن يكون خادما لملك الملوك وسلطان السلاطين! بينما يفتخر أشخاص بأنهم يعرفون

(١) وصف بها نبي الله سليمان، ونبي الله أيوب.

الرئيس الفلاني، والوزير الكذائي، يتعلق عباد الله بأنهم يعرفون خالقهم وخالق كل شيء، ويتعلقون به ويرتبطون به.

ومن الأسباب التي يذكرها الدعاء الاستخفاف بحق الله سبحانه «أوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي مُسْتَخِفًّا بِحَقِكَ فَأَقْصَيْتَنِي» وهو أسوأ درجة من العصيان. الاستخفاف بحق الله عز وجل يعني تصغير مقدار الله وشأنه، ما هو حق الله تعالى؟ فقد يعصي العبد ربه ولكنه خائف معترف، فهذا وإن عصى إلا أنه يختلف عن ذلك الذي جعل ربه (أهون الناظرين)، ولأجل هذا فرق دعاء آخر بين المرتبتين فقال «إِلَهِي مَا عَصَيْتُكَ حِينَ عَصَيْتُكَ وَأَنَا بِرُبُوبِيَّتِكَ جَاحِدٌ، وَلَا بِعَظَمَتِكَ مُسْتَخِفٌّ، وَلَكِنْ بَلِيَّةٌ عَرَضَتْ لِي وَغَرَّنِي سِتْرُكَ الْمُرْخَى عَلَيَّ». فأنا لا أستخف بعظمتك يا رب، ولا أهوّن من نظرك إلي.. وفي موضع آخر من دعاء أبي حمزة يقول: «فَلَوِ اطَّلَعَ الْيَوْمَ عَلى ذَنْبي غَيْرُكَ ما فَعَلْتُهُ، وَلَوْ خِفْتُ تَعْجيلَ الْعُقُوبَةِ لاَجْتَنَبْتُهُ، لا لاَنَّكَ اَهْوَنُ النّاظِرينَ وَاَخَفُّ الْمُطَّلِعينَ، بَلْ لاَنَّكَ يا رَبِّ خَيْرُ السّاتِرينَ، وَاَحْكَمُ الْحاكِمينَ».

وقد يكون السبب أعظم من الاقصاء، وهو بغض الله وكراهيته للعبد على أثر اعراضه المستمر عن ربه «أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي مُعْرِضًا عَنْكَ فَقَلَيْتَنِي». القِلى، يعني: الكره والبغض. فإن الله سبحانه وتعالى من رأفته بعبده لا يعرض عنه بمجرد عصيانه، بل يظل يواتر عليه نعمه، ويفتح له باب التوبة والعودة، بما لا يفتحها والد لولده ولا حبيب لحبيبه.. مع غنى الله عن عبده، وعدم تضرره من معصيته، لكنها رحمته التي وسعت كل شيء. لكن هذا إذا فهمه العبد بنحو خاطئ فإن الله سبحانه لا يظل «يتوسل» بهذا العبد الجاهل المعرض، بل يقليه ويبغضه، ومتى أبغضه أبعده عن رحمته وإن اتسعت لكل شيء. ينتهي الاعراض إلى أن تكون معيشته الدنيوية ضنكا ويحشر يوم القيامة أعمى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا

فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[١].

من أسباب الكسل عن العبادة، رفض الله لعبده على أثر كذب العبد واستمراره في مقام الكاذبين: «أَوْ لَعَلَّكَ وَجَدْتَنِي فِي مَقَامِ الكَاذِبِينَ فَرَفَضْتَنِي»، كيف يكون الشخص في مقام الكاذبين؟ إنه لا يتحقق بمجرد كذبة أو كذبتين وإنما أن يكون موقفه الدائم، ومقامه المستمر هو في ذلك الموقف وذلك المقام يعني أن طريقة حياته صارت بهذا النحو، فهو دائم الكذب! ومقيم عليه، وموضعه ومقامه هو في تلك الدائرة!، فبينما تمدح النصوص الدينية (قرآنية وروائية) من خاف (مقام) ربه وتعده بجنة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[٢] بل بجنتين ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[٣] فإن من يقيم نفسه مقام الكاذبين يستحق أن يرفض! فهو وإن ادعى الايمان أو الخضوع إلا أنّ الله يعلم أنه كاذب، وهو نفسه يعلم أنه كاذب؟ فأين هي علامات وآثار العبودية؟ وأين ما يصدق هذا الادعاء؟

وهكذا يستمر الدعاء في تعداد ما يمكن أن يكون سببا للكسل في عبادة الله سبحانه، كما وكيفا، فهو لا يعبد الله ولا يصلي له بمقدار ما يصلي غيره من العباد، كما أنه لا يعبده بالكيفية التي يعبدونه بها، من الخضوع والخشوع والالتفات إلى معاني العبادة.. فيقول «أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي غَيْرَ شَاكِرٍ لِنَعْمَائِكَ فَحَرَمْتَنِي..» وذلك أن الشكر لله عز وجل يستدعي المزيد والبركة.

«أَوْ لَعَلَّكَ فَقَدْتَنِي مِنْ مَجَالِسِ العُلَمَاءِ فَخَذَلْتَنِي» والمصداق الأكبر لهم أئمة

---

(١) طه : ١٢٤ـ١٢٦.

(٢) النازعات:٤١.

(٣) الرحمن:٤٦.

الهدى ﷺ. فإذا فُقِد الإنسان من مصاحبة الأئمة، ومجالستهم، يكون مخذولا، وفي زمان غيبتهم صلوات الله على خاتمهم وعلى آبائه يكون العلماء الربانيون السائرون على منهاجهم خلفاء لهم، وهم الذين ورد فيهم أنهم من يذكركم اللهَ رؤيتُه ويزيد في علمكم منطقُه، ويرغبكم في الآخرة عملُه».

«أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي فِي الْغَافِلِينَ فَمِنْ رَحْمَتِكَ آيَسْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي آلَفُ مَجَالِسَ البَطَّالِينَ، فَبَيْنِي وَبَيْنَهُم خَلَّيْتَنِي»، ففي مقابل مجالس العلماء والعباد، قد يألف الشخص مجالس الغافلين وديوانيات الكلام الفارغ الذي لا يزيد المرء علمًا ولا عملًا! وأما مجالس البطّالين والبطال صيغة مبالغة من الباطل، بمعنى ما يقابل الحق فيدخل فيه: مجالس أحاديث الغيبة، والنميمة، والمزح غير المفيد، والكلام غير النافع، وتضييع العمر في قيل وقال، فضلا عن ما يأتي به اللسان من سائر الكبائر.

كل هذه العوامل، وقد ذكر الدعاء كما قلنا عشرة منها يمكن أن تنتهي بالإنسان إلى الكسل في عبادته وعنها.

كيف نواجه الكسل في الحياة؟

عن رسول الله ﷺ: «وَعَلَى العَاقِلِ ألّا يَكُونَ ظَاعِنًا إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ، أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ».[1]

وفيما يرتبط بهذا الحديث، نلاحظ أولا: أن النبي ﷺ أوصى اثنين من أهم أصحابه، وأكثرهم إخلاصًا له: وصيه أمير المؤمنين عليه السلام ويكفيه هذا الوصف، والآخر الذي وصفه بأنه الْأَصْدَقُ بَيْنَ الناس، في ما يستفاد من قوله ﷺ «مَا أَظَلَّتْ الخَضْرَاءُ وَمَا أَقَلَّتْ الْغَبْرَاءُ عَلَى ذِي لِهْجَةٍ، أصدقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ»[2]، فهو جزء من وصية لشخصيتين استثنائيتين، ومن خلالهما لأبناء الأمة جميعًا.

كما أن هذا الحديث نفسه، ينقله الإمام الصادق عليه السلام عن حكمة آل داوود. وكأنه بهذا يريد التأكيد على أن هذا المعنى مذكور في وصايا الأنبياء السابقين

---

(١) ورد عنه ﷺ في وصيته لأمير المؤمنين عليه السلام وأيضا في لأبي ذر الغفاري. كما نقل أيضا عن أبي عبد الله، جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، أنه قال: في حكمة آل داوود: «يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ العَاقِلِ، ألاّ يُرى ظَاعِنًا إِلَّا فِي ثَلَاثٍ، مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ».

(٢) حنبل؛ أحمد: مسند أحمد ٢/ ١٧٥.

في وصايا داوود الذي آتاه الله الحكمة.[١] وقد يشير هذا إلى أن هذا المعنى الذي توارثه الأنبياء، وكان محط وصيتهم، وتلقفه الأوصياء ينبغي أن يكون خريطة عامة للإنسان في حياته.

ونلاحظ ثانيًا أنه ورد في الحديث الذي عنونه الإمام الصادق، أنه: في حكمة آل داوود، ورد لفظ «يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ الْعَاقِلِ». وقد يثير هذا التعبير سؤالا وهو: هل كان لفظ «المسلم» في زمان النبي داوود عليه السلام وغيره من الأنبياء السابقين، أو أنه استعمل في الألسنة والثقافة الدينية بعد بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله؟

والجواب على ذلك، أننا نعتقد أن دين الله الذي نزل عند جميع الأنبياء والمرسلين، هو الإسلام. كما قال القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[٢]، فالإسلام بمعنى التسليم لله، والاستجابة لأوامره، هو خلاصة كل الرسالات السماوية. نعم عنونت الرسالة المحمدية بعنوان الاسلام لأن فيها كمال التسليم والاستسلام لله عز وجل فيما لا يتوفر في سائر الديانات.

وبعد أن ألقينا نظرة على هذا الحديث من الخارج، فلندخل إلى مضمونه حيث أنه يتميز بأنه يكاد يرسم برنامج حياة الإنسان المسلم، وإجمالي حركته. وخطوطها العامة. ومن المهم جدا أن يتميز للإنسان ما هو خط عام وبرنامج حياة وبين ما هو من التفاصيل الحياتية، ومن يخطئ في التمييز بين هذين قد يخسر الكثير من عمره في تفصيل من التفاصيل بينما لا يصرف شيئا مهما من عمره في المهمة التي خلق من أجلها! وقد يتجه عكس الهدف المطلوب ويبذل جهدا كبيرا فيه فإذا أتعبه الجهد ومضى به العمر يعلم بعد مدة من الزمان أنه كان في غير الاتجاه السليم!

---

(١) البقرة: ٢٥١ ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾.

(٢) آل عمران: ١٩.

الخريطة السليمة للحياة

ومن الناس من يكون كسولا لأن خريطته الحياتية خريطة خاطئة، ربما على مستوى العقيدة مثل أولئك الذين قالوا ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[1] ومثلها آية أخرى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾. إن من يعتقد بهذه الفكرة عن الحياة ـ وهم للأسف ـ ليسوا قلة، بل إن تيار اللهو والعبث يعتقد بهذا عمليا وإن لم يصرح به لفظيا، لكنه يعيش بهذا النحو، ولسان حاله: الدنيا ساعة قصيرة فاستمتع فيها.

ولذلك ترى هؤلاء لا يستفيق من شهوة إلا لكي يسكر بلذة، وهكذا يستفرغ أيام عمره، وقوة بدنه، ووفرة ماله في هذه الدائرة!

أين هذا؟ وأين ذاك الذي يؤمن بأنه لا ينبغي أن تكون حركته (الفكرية، العضلية، المالية) إلا في احدى ثلاث: «مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ» أي: ترميم، وإصلاح حياتك المادية عن طريق الكسب الحلال، والانشغال الجدي بالعمل الاقتصادي؛ لأنه يغنيك عن غيرك، ويصونك ألّا تكون كَلًّا على الآخرين. إنك بهذا السعي تصون ماء وجهك وكرامة نفسك ألّا تقطره وتتلفها بالسؤال والاستعطاء وكما في الرواية: «مَاءُ وَجْهِكَ جَامِدٌ يُقَطِّرُهُ السُّؤَالُ».

وقد مر شيء من الحديث في هذا في موضوع الكسل في الجانب المالي والمعاشي. فهذا أول ضلع من أضلاع المثلث الحياتي لحركة الإنسان.

«أَوْ تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ»، تزود يأتي بمعنى افتعال من الزاد تهيئة الزاد وتجميعه ليوم المعاد، وهو استجابة لأمر الله تعالى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وبالطبع

---

(١) الجاثية: ٢٤.

فإن من محققات التقوى؛ العبادات ولذلك شرعت كالصلاة والصيام، والحج، وغيرها.. بل هذا التزود يشمل كل حركات الإنسان المباحة بل لذاته إذا قصد بها وجه الله، فأكله الطعام يمكن أن يتحول إلى عبادة عندما ينوي به التقوي بالطعام على عبادة الله وطاعته، وذهابه للعمل وكسبه يمكن أن يجعله طاعة وتزودا للمعاد إذا كان بهذا القصد.. وهكذا.

«أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ». إن الله سبحانه لم يخلق شيئا وبخل به على الخلق، ولذلك لا مانع أن يرفه الإنسان عن نفسه بالذهاب مع الإخوان لمشاهدة الطبيعة وما خلق الله فيها من مناحي الجمال والمتعة، سواء في بلده أو خارج بلده، برا وبحرا، كل ذلك بشرط ألّا يخلط ذلك بتجاوز ما حرمه الله، لذلك شرطت اللذة بأن تكون في غير محرم!

والغريب في بعض الناس أن الله جعل لهم ما في الأرض ﴿حلالًا طيبًا﴾[١]، و(من حيث شئتما) لكنهم يأبون إلا (خطوات الشيطان) مع أنه ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]. فيترك الزواج بأقسامه ليذهب للزنا والمتع الجنسية المحرمة، ويترك الطعام والشراب بأقسامه ويذهب ليأكل (ما لم يذكر اسم الله عليه) ويشرب ما هو (رجس من عمل الشيطان).

هذه هي الخريطة الأساس التي ينبغي أن تكون للمسلم؛ مرمة لمعاش، تزود لمعاد، لذة في غير محرم.

(١) البقرة: ١٦٨ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

(٢) البقرة:١٦٩.

الحاجة إلى قدوة النشاط

ولا تكفي الخريطة، بل يحتاج الإنسان أيضًا إلى قدوة له في حياته، يسعى بمقدار ما يستطيع أن يتمثل سيرته ويقتدي به. وقد عين القرآن الكريم لنا القدوة الحسنة، بقول الله عز وجل ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(١). لكن هذه القدوة ليست بالادعاء! فإن من يقول أنه يقتدي بالنبي لا بد أن يقرأ: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾. لكثرة عبادته وقيامه الليل حتى تم الاشفاق عليه، فهل هذا المقتدي والمدعي يقوم شيئا من الليل؟

لم يكن النبي نشيطا في عبادته فقط وقيامه الليل فحسب، بل كان الطابع العام له ﷺ هو النشاط والحيوية، فمشيته كانت مشية النشاط والحيوية.. كما نقل واصفوه مشيته فقد نقل عن ابن عباس أنه قال: كان النبي ﷺ إذا مشى، مشى مجتمعًا، يعرف أنه ليس بمشي عاجز ولا كسلان.(٢)

ومشي المجتمع يشبه مشي الرياضي. إن البعض يتحرك متهدلًا متملّلا يسحب حذاءه على الأرض سحبًا، وربما لو دفعه أحد دفعة بسيطة، لسقط على وجهه أو قفاه.

أما النبي ﷺ كان إذا مشى يمشي مشية المجتمع المشدود، ليس بمشي عاجز ولا كسلان، وكان إذا امتطى صهوة الفرس، قفز عليه قفزة الفارس.

وينقل في أحواله ﷺ أنه طرق المدينة طارق ليلًا، وبينما الناس يخبر بعضهم

---

(١) الأحزاب:٢١.

(٢) النوري؛ الميرزا حسين: مستدرك الوسائل ٨ / ٢٣٩.

بعضا وإذا بالنبي قد رجع من أقصى المدينة، وقد ركب فرسا لأبي طلحة الأنصاري، عري عن الإكاف والبرذعة ومن غير لجام، وقد أخذ النبي بيده السيف، وهو يقول للناس لن تراعوا لن تراعوا.. يعني ارجعوا إلى منازلكم، ويشير شراح الحديث إلى أن ركوب الفرس العري عن الاكاف والبرذعة من الأمور الصعبة ولا يتقنها إلا الفرسان الشجعان الأقوياء، وأصعب منه إذا كان من غير لجام، وقد كان ذلك الفرس الذي امتطاه النبي هكذا، وكان بيده السيف وقبل أن يتحرك الناس كان النبي قد ذهب إلى مصدر الصوت واستطلع ذلك، ورجع بخبر يطمئن الناس.

وهذا الخبر -مع صحته- يكشف عن نشاط النبي وقوة قلبه وبدنه، وسرعة حركته ومبادرته!

فهل يصح أن يقول أحدنا أنه يقتدي بالنبي وهو لا ينهض من فراش نومه لصلاة الفجر، بينما المنبه بكاد يختنق جرسه من كثرة صياحه بصاحبه للتنبه من النوم!

ومثل النبي ﷺ، تلميذه أمير المؤمنين عليه السلام.

نعم ينبغي أن نجعلهم قدوات لنا وأمثلة عليا، ونسعى قدر إمكاننا للسير على منهاجهم، ونتعلم قصصهم ونعلم أبناءنا قصصهم، وإلا فإن قصص لاعبي الرياضة وفناني التمثيل هي التي ستشكل ثقافتنا ومفهومنا عن الحياة.

اتخذ قدوة وتعلم منها النشاط والحيوية، وابتعد بقصصها عن الكسل والخمول.

الوقت رأسمال عظيم

بالإضافة إلى ما سبق نؤكد أمر الاهتمام بالوقت؛ فوقت الإنسان هو رأس ماله، ورصيده الذي لا يعوض. بينما قد يستطيع تعويض الكثير مما ضاع من أمواله! أما وقته فلو ضاع منه وذهب فلا يعوضه شيء إلا إذا كان قد استثمره فيما ينفع. وأما لو

لم يفعل فقد ضاع جزء من عمره من دون تدارك!

وللأسف فإن قسما من الناس يستشعرون الخسارة الكبرى عندما يخسرون مقدارا من المال! ويمرض بعضهم لو نزلت قيمة أسهمه التي اشتراها، مع أنه قد يستطيع تعويضها في صفقة أخرى أو بارتفاع جديد لقيمتها، لكنه لا يتأسف على سنوات عمره التي تنفد وتتلف من دون أن يستطيع استرجاع أي شيء منها! ولقد أصاب الحديث عين الحقيقة بقوله: (كُلُّ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَى ابْنِ آدَمَ يُنَادِيهِ يَا بْنَ آدَمَ، أَنَا يَوْمٌ جَدِيدٌ، وَغَدَا عَلَيْكَ شَهِيدٌ، فَقُلْ فِيَّ خَيْرًا، وَاعْمَلْ فِيَّ خَيْرًا، فَإِنَّكَ لَا تَرَانِي بَعْدَ هَذَا أَبَدًا). ومثله -بوَجْه- ما نسب لأمير المؤمنين عليه السلام من الشعر:[1]

أَبُنيَّ إنَّ مِنَ الرِجالِ بَهيمَةً ... في صورَةِ الرَجُلِ السَميعِ المُبصِرِ
فَطِنٌ بِكُلِّ رزيّةٍ في مالِهِ ... وَإِذا أُصيبَ بدينهِ لَم يَشعُرِ

إذا كنت حريصًا على حسابك المالي في البنك باعتبار أنه رصيدك الذي تعتمد عليه، فقد تكون واهمًا، إنما عمرك هو رصيدك الأعظم، فلا تتلفه بالتضييع! كما يقول بعضهم: نقتل الفراغ! الصحيح أن الفراغ هو الذي يقتلك لأنه يسلبك وقتك ويقضي على عمرك بالتدريج.. إن كبار التجار والملوك وغيرهم لو أتيح لهم أن يشتروا سنوات إضافية بنصف ثروتهم لفعلوا ذلك لكنه غير ممكن حتى الآن! لأنهم يعلمون أن الوقت يأتي بالمال ويصنعه لكن لا يوجد مال يصنع الوقت ويمدد العمر!

نعم وعد الله سبحانه عباده أن ينسئ في آجالهم وأن يزيد في أعمارهم لو قاموا ببعض الأعمال الخيرة والصالحة، لكن هذا مختلف عما نحن فيه.

البعض من الكسالى يقول: ماذا أفعل عندما أصحو مبكرًا؟ والسؤال: هو ماذا

---

(١) النقدي؛ جعفر: الانوار العلوية ١ / ٤٨٤ وقد نسبه آخرون إلى غير الإمام عليه السلام.

تفعل حين تنام فوق ما يحتاجه بدنك؟! السؤال ينبغي أن يكون هنا أما الاستيقاظ مبكرًا فلا ينبغي أن يسأل عنه لماذا؟ فإنه في ذلك الوقت يتعرض الإنسان لرزق الله إذا كان من أهل العمل والتجارة والسعي، ويبدأ العلم والمطالعة والتحقيق إذا كان من أهل العلم والمعرفة.. وهذه بعض الأحاديث[١] التي أكدت على المبادرة والتبكير في بدء الإنسان يومه، لطلب الرزق..

فقد أورد الحر العاملي في الوسائل[٢] في مقدمات التجارة والمعاملات أبوابا متعددة في ما يرتبط بالسعي وراء الرزق استحبابا، ووجوبه في بعض الصور، والاستعانة بالدنيا على الآخرة وكراهة ترك طلب الرزق وحرمته مع الاضطرار له، وغير ذلك من المواضيع في ما يقارب ٨٠ صفحة..

فمن ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) قال: رضوان الله والجنة في الآخرة، والسعة في الرزق والمعاش، وحسن الخلق في الدنيا.

وعن المعلى بن خنيس قال: رآني أبو عبد الله عليه السلام وقد تأخرت عن السوق، فقال: أُغدُ إلى عزّك.

عن فضيل الأعور قال: شهدت معاذ بن كثير وقال لأبي عبد الله عليه السلام: إنّي قد أيسرت فأدع التجارة؟ فقال: إنّك إن فعلت قلّ عقلك!

---

(١) الحر العاملي؛ محمد بن الحسن :وسائل الشيعة ١٧/ ٦٧- ٨٦.

(٢) الحر العاملي؛ محمد بن الحسن : وسائل الشيعة ١٧/ ١٠.

اليأس والقنوط

﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[1]

اليأس والقنوط، هو المقابل المضاد للرجاء والأمل. فالذي يرجو رحمة ربه، يقابله اليائس منها وهكذا فمن يمتلك الأمل بالفرج وانكشاف الهموم، يقابله القانط الذي لا يتوقع الخير أبدا! واليأس والقنوط من الأمراض تكشف عن نقص إيماني كبير عند من تعرض عليه.

وربما يتصور البعض أن اليأس والقنوط مختص بالذنب وما يترتب عليه من العذاب، أو شمول الرحمة الإلهية. بحيث يرى الشخص نفسه مذنبا فييأس من شمول رحمة الله له، ويقنط من ذلك. إلا أن المتأمل في المعنى يرى أن القنوط واليأس قد يكون عاما في الحياة، وأن هذه الصفة عندما تتملك إنسانا تفسد عليه أمور حياته كلها، وأنه لا اختصاص بها بالأمر الديني.

بل إن السياق الذي جاءت فيه الآية المباركة هو في أمر دنيوي! على أن رحمة

---

(١) الحجر:٥٦.

الله التي وسعت كل شيء واليأس منها يعني اليأس من انفتاح أبواب الخير في كل المجالات؛ من الرزق والعلم والذرية والرفاه وغيرها..

إن السياق[١] الذي جاءت فيه الآية المباركة هو أن الملائكة بشرت نبي الله ابراهيم بغلام، فكأن هذا كان تذكرة له بأن عمره بات كبيراً! وعندما أشاروا إليه بأن لا يكون من القانطين نفى ذلك لهم، وعلله بأنه إنما يقنط من رحمة الله ونعمته ورزقه لا بد أن يكون ضالا غير مصيب للمعرفة الصحيحة بالله.

وبشكل عام. فإننا بملاحظة اجتماعية قد نجد أناسًا، يطبع حياتَهم التفاؤل، ويعيشون مع الرجاء، ويتميزون بالتوكل على الله، والثقة بتقديراته، فهم حتى لو كانوا في أسوأ المشاكل، وأعقد المعضلات يعتقدون جازمين؛ أن رحمة ربِّهم قريب من المحسنين. وأن الله سبحانه وتعالى هو فارج الهم وكاشف الكرب من حيث كان يحتسب هؤلاء أو لا يحتسبون.

عندما يواجه أحد هؤلاء مشكلة، يفكر لها في حلول، ويجرب احداها، والثاني وهكذا، حتى يستنفد حلوله الخاصة، وهنا لا ينتهي الأمر به إلى اليأس والقنوط من جراء محاولة الحلول التي لم تنجح وإنما يبقى عنده في الأخير أمل كبير في أنه بعدما عجز عن اجتراح الحلول الخاصة به لم يبق إلا (رحمة الله).

وقد نقل عن بعض العلماء وأصحاب الأذكار، أنه إذا ضاقت به السبل: سبل المعيشة وغيرها، وانسد أمامه الحل البشري، يلجأ إلى ذكر معروف بينهم، فيقرأ بعد الصلاة: آية الكرسي، ثم تسبيح الزهراء عليها السلام ثم سورة التوحيد ثلاثا، وهي بمثابة ختم للقرآن - كما ورد في روايات متعددة - ثم يصلي على محمد وآله

(١) الحجر: ٥٣ـ ٥٦ ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

ثلاثًا. اللهم صل على محمد وآل محمد. ويختمها بالآيتين المباركتين: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[1] ثم يقرأ هذا الدعاء: «يَا مَنْ إِذَا تَضَايَقَتْ الأُمُورُ، فَتَحَ لَهَا بَابًا لَا تَذْهَبُ إِلَيهِ الأَوْهَام، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَافْتَحْ لِأُمُورِي المُتَضَايِقَةِ بَابًا لَم يَذْهَبُ إِلَيهِ وَهْمٌ»[2].

فحتى لو انسدت الأبواب المحتسبة، والحلول المقترحة في ذهني. فينبغي أن أفكر في أن هناك أبوابا وطرقا لم يصل إليها وهمي وخيالي، وأنها عند الله سبحانه، وهذه هي إحدى المسافات بين العبد الناقص والرب الكامل، بين العبد العاجز وبين السميع البصير ومن هو على كل شيء قدير.

إن هذا النمط من التفكير ناشئ عند هؤلاء من حسن الظن بالله، والثقة به وينتج كما وردت به روايات كثيرة: «أَنَا عِنْدَ حسْنِ ظَن عَبْدِي بِي».

كما تتيح لنا النظرة الاجتماعية في الطرف المقابل أشخاصًا يائسين متشبعين بالقنوط، يقيدهم عن الشعور بالأمل، ويلون لهم الحياة باللون الداكن! فهو مع أول مشكلة تراه محبطًا متعبًا يتساءل: لماذا أنا؟ وليس غيري؟ وكأنه كان ينبغي أن تذهب المشاكل إلى الآخرين وتتخطاه، حتى إذا اقترح عليهم أحدهم حركة أو حلًّا راح هذا يقنعه بأنه لا فائدة في ذلك ولا منفعة! فإن حظه ـ هكذا يقول ـ سيء وأنه لو ذهب إلى ماء البحر لجفّ! ثم يبدأ بالبرهنة لمخاطبيه ومحرضيه على أنه جرب الحلول كلها في موضع سابق فلم تزد المشكلة إلا تعقيدًا! وهكذا.. حتى ليحس الجالس معه أن عليه أن يفارقه لئلا يفسد عليه متعة الحياة بالأمل! إن طبيعة هؤلاء

---

(١) الطلاق: ٢ـ٣.

(٢) نسب هذا الدعاء للإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه كما في صحيفة المهدي ١/ ٦.

السوداوية واليائسة تجعلهم دائما يتوقعون أسوأ الاحتمالات في كل قضية تعرض لهم! ويبعدون أي بارقة أمل! وبالطبع فإن من يزرع الشوك لا يجني العنب، وأن النتائج تأتي بحسب المقدمات التي جهزت.. فلا يلقى هؤلاء غير السوء! لأنهم لم يزرعوا غير شجرته.

بل حتى عندما تذكره بأن الله على كل شيء قدير، وأن رحمته وسعت كل شيء، و﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1].. فهو وإن كان يؤمن نظريا بكل ما سبق إلا أنه بينه وبين نفسه ليس مقتنعا بأن هذا مرتبط بموضوعه! فالله على كل شيء ـ من الأشياء الأخرى ـ قدير! وإن مع العسر يسرا! لكن قضيته تختلف! ولعل هذا إذا تكرس في الإنسان كعقيدة، سيتحول هذا من (الضالين) غير العارفين بقدرة الله وسعة رحمته الذين تم وصفهم في الآية المباركة إلى (الكافرين) الذين تحدثت عنهم الآية المباركة ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

هل اليأس والقنوط شيء واحد؟

تم التعبير في آيات عن الحالة المقابلة للأمل والرجاء والثقة بما عند الله سبحانه، تارة بالقنوط وأخرى باليأس، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن القنوط هو مرحلة متقدمة ومشددة من اليأس، واستشهد على ذلك بقرينة داخلية في تركيب الحروف في كل من الكلمتين ففيما هي في القنوط ذات دلالة على الشدة هي في اليأس ذات دلالة على الرخاوة، والشاهد الآخر هو أن القنوط جاء في القرآن بعد اليأس مما يشير إلى أنه متأخر عنه وحاصل بعده![2] كما نقل قول صاحب الفروق الذي قرر في

---

(١) الشرح: ٦.

(٢) قال الشيخ المصطفوي في كتابه؛ التحقيق في كلمات القرآن الكريم ٩/ ٣٢٥: قنط « اليأس الشديد، ويدلّ على الشدّة حرفا القاف والطاء، فانّهما من حروف الجهر والشدّة والضغط والاستعلاء. بخلاف

الفرق بين القنوط والخيبة واليأس: أن انّ القنوط أشدّ مبالغة من اليأس، وأمّا الخيبة فلا تكون الّا بعد الأمل، لأنّها امتناع نيل ما أمل. وأمّا اليأس: فقد يكون قبل الأمل وقد يكون بعده[1].

أقول: هناك مجال للتأمل فيما قال، والشواهد التي أوردها، وذلك أن القرآن الكريم جعل القنوط مرتبطًا بالضلال بينما ربط اليأس بالكفر ولعل هذا مؤشر على أشدية اليأس بالنسبة للقنوط وكونه أسوأ منه ففي آية القنوط قال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ بينما في آية اليأس قال: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

سنة الحياة قائمة على الابتلاء:

إن من يتصور أن أموره دائما معقدة وأنه (وجهه وجه النحس) هو واهمٌ للغاية، فلا يوجد شخص خاص وجهه وجه نحس وآخر وجه إشراق وأن كلا منهما خلق بهذا النحو، كلا وإنما الأول قانط يائس لا يسعى لحل مشاكله بالطريق السليم، ولا يتوكل على الله فيما لا يحتسب من الحلول، وهناك من يكون في أشد المشكلات يقول (هوّن عَليّ ما نزل بي أنه بعين الله).

إن الابتلاء في الحياة بالمشاكل هو سنتها الطبيعية وقانونها الاعتيادي، ولذلك يجري على المرسلين كما يجري على الأوصياء والمؤمنين، بل لقد ورد في

السين والياء. فالياء من حروف الجهر والرخاوة والاستفال والسكون. والسين من الهمس والرخاوة والاستفال والسكون.

ويدلّ أيضا على خصوصيّة القنوط: ذكره بعد اليأس في-. وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ- ٤١/ ٤٩ وأمّا التقييد بالخير أو الرحمة: فلا وجه له، فانّ اليأس يقابل الطمع، فهو انقطاع الرجاء والطمع عن أيّ شيء كان، و إن كان الرجاء والطمع يتعلّق غالبا بما يقصد في الأمور الخيريّة.

(١) التحقيق في كلمات القرآن ٣/ ١٥٦.

الروايات أنهم أولى الناس بالبلاء والامتحان!

فانظر إلى سورة الأنبياء حيث استعرضت نماذج من ابتلاء رسل الله سبحانه بمختلف أنحاء الابتلاء، فمن ابراهيم الذي ابتلي بمجتمع كافر مضاد لدعوته يقف على رأسه طاغية جبار و﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[١] إلى لوط النبي العفيف الذي كان في وسط تلك القرية الوسخة الفاسقة ﴿الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ وكان أهلها مستعدين لاقتحام بيته والاعتداء على ضيوفه، وأما أيوب فقد ضرب به المثل في البلاء المتعدد الأطراف والجهات إلى أن ﴿نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾[٢] وابتلاء يونس في بطن الحوت ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَلَّا إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وابتلاء زكريا بوحدته بعد فناء عمره وتصرم أيامه حتى ﴿نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيرُ الْوَارِثِينَ﴾[٣]والابتلاء الأعظم للبتول مريم العذراء عندما أتهمت في شرفها، وتمنت أن يا ليتها قد ماتت وطواها النسيان!

لكن الجامع المشترك بينهم هو أنهم مع هذا الابتلاء على اختلاف صوره، حاولوا قدر استطاعتهم حل المشكلة بتخطيطهم، وعندما تجاوزت المشاكل قدراتهم لم ييأسوا وإنما توجهوا إلى ذي القدرة المطلقة، وطلبوا منه الفرج فكان! ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولهذا ينبغي للمؤمن ألّا يكون سوداويًا يائسًا، ولا منهزمًا قانطًا بل إذا رأى في محيطه أحدًا من هذا الصنف عليه أن يواجهه بما نعتقده كمؤمنين بالله، فإذا قال

---

(١) الأنبياء: ٦٨.

(٢) الأنبياء: ٨٣.

(٣) الأنبياء:٨٩.

لك: بأن أمورك ستتدهور من سيء لأسوأ قل له: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.[١]

ينبغي ألّا نتأثر بالأشخاص السلبيين بل ينبغي أن ننقل لهم روح الأمل وحيوية الرجاء وحسن الظن بالله سبحانه، حيث أنه ورد أن الله عند حسن ظن عبده به، وأن يعتقد أنه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[٢] خاصة إذا استعان العبد به بقوله الدائم في صلاته: بحول الله وقوته أقوم وأقعد، وبقوله في قراءته الفاتحة (﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٣]، وبذكره اليومي ﴿أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الأَمْرُ للهِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾.

(١) الشورى: ٢٨.

(٢) فاطر: ٤٤.

(٣) الفاتحة: ٥.

بتوكل الإيمان نهزم اليأس والقنوط

قد سبق القول إن من بواعث القنوط واليأس: عدم معرفة طريقة الله عز وجل في إدارة الكون. فعندما لا يعرف الإنسان طريقة الله في إدارة خلقه من الناحية النظرية، لا يهتدي الطريق الصحيح من الناحية العملية.

إن هناك فرقًا كبيرا بين من يتوهم أن أولياء الله لا ينبغي أن يصيبهم البلاء والمرض، وأنهم في هذه الدنيا لا يعتريهم خوف ولا حزن! وبين من يعتقد بأنهم مشمولون بقول الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1] وأنهم أولى من غيرهم بالابتلاء والامتحان!

وقد ذكرنا في صفحات سابقة أمثلة عن ابتلاء الله أنبياءه وهم أفضل خلقه!

ومن ذلك أيضًا تصور هؤلاء الخاطئ عن حقيقة فرج الله ونصره عباده الصالحين وأولياءه المؤمنين، فإنه إذا سمع ذلك يتصور أن الله لا بد أن يعطل القوانين الكونية والاجتماعية لأجل أن تتحقق حاجته وإلا فلا يوجد فرج ولا استجابة للدعاء ولا

---

(١) الأنبياء: ٣٥.

نصر للمؤمنين! وهذا ناتج عن مزيج من قلة الصبر والأنانية في وقت واحد!

فإذا قيل له أن الله يفرج عن المؤمنين وينصرهم، يتصور أنه ما دام قيل له هذا الكلام، فلا بد أن يتحقق ذلك بعد دقيقة. وإذا طال، فبعد يوم. فإذا كان في علم الله أن ذلك سيحصل بعد مدة فهو لا يرضى بما قدر الله!

وإذا قيل له إنك تشفى إن شاء الله! لأن الله تعالى يشفي المرضى؛ فإنه يتصور أنه لا بد أن تحرق المراحل حرقا ويتحقق ذلك في اللحظة! ولكي يؤمن بأنه ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1] فمعنى ذلك أن تتيسر أموره كلها بعد قراءة الآية مباشرة!

ولأن الأمر ليس كذلك لأن الكون قائم على أنظمة وقوانين، وأن المعجزة فيه هي الاستثناء! لذلك فإن مثل هؤلاء لا يلبث أن يأكلهم وحش القنوط واليأس!

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، وإنما سينتج عنه بعدما تمكن اليأس منه؛ تناقص الإيمان.

إننا نعتقد أن الإيمان كما يزيد ينقص، ومثلما يمكن أن يزداد الإنسان إيمانا بزيادة عباداته كمًّا والخشوع فيها كيفًا، ومما يقوي بنية الإيمان من العبادات هو ما فيها من قرآن وأذكار وما تحمل من معانٍ، فإذا كرر المصلي قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2] فإنه يستحضر في ذهنه رحمة الله ورحمانيته ومالكيته وحاكميته فيطلب منه العون بعد اعترافه بعبادته إياه وحده، وهذه المعاني تترسخ بالتدريج وتتكرس بمرور الأيام، كلما قرأ هذه الآيات

---

(١) الشرح:٦.

(٢) الفاتحة ٣ـ ٥.

في السورة وكلما صلى لله فريضة. وكذلك بالنسبة للأذكار التي تتضمنها الصلاة أو تتلى خارج الصلاة.

وفيما تؤدي العبادات بأنواعها، والأذكار بأصنافها إلى زيادة الايمان والاعتقاد بقدرة الله ورحمته واستجابته، فإن عنصر القنوط واليأس يأخذ اتجاها معاكسا تماما، بتشكيك المؤمن في تلك الاعتقادات، وإضعاف إرادة المؤمن أمام طلباته، ويقوم الشيطان هنا بدور مؤثر عندما يعِده الفقر، ويضخم السلبيات، ويزيد المخاوف! فهو هنا لا ينظر إلى المشاكل باعتبارها حالة طبيعية في الدنيا التي خلقت كدار ابتلاء، تتبلور فيها طاقات الإنسان في اكتشاف الحلول، وتحويل المشاكل بتحديها إلى رافعة له للتقدم وابتكار طرق جديدة لتسهيل أمور الحياة، وهكذا يحصل التقدم الدنيوي، فمن دون تحدي المشاكل والتغلب عليها بابتكار الأفكار والأدوات والوسائل لا يتقدم العلم ولا الاقتصاد ولا غير ذلك. وكذلك الحال فيما يرتبط بالناحية الدينية فإن تحدي الابتلاءات بالصبر عليها وتحقيق التوكل على الله سبحانه، يزيد إيمان المؤمن ويشعره بحلاوة اليقين ويتذوق لذه التغلب على الشيطان..

اليائس والقانط لا يفهم شيئا مما سبق، وإنما يزيده البلاء نكوصا، والمشاكل فشلا، فيقول لك بالصراحة وضعي يسوء يوما بعد يوم، وصحتي تتدهور وأمراضي تزيد، وتجارتي تخسر.. ويقرأ عليك قائمة بما يتوقعه من الأمور السيئة! مما هو تطبيق لما قاله الله سبحانه عن دور الشيطان في حياة الإنسان في أنه ﴿يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾[1] الشيطان عمله أن يسود صورة المستقبل في وجهك، وأن يخبرك –وهو كاذب– بأن السوء هو في انتظارك.

ولك أن تجرب هذا.. وقد حصل لي أن كنت أشجع أحد الأزواج الشباب على

(١) البقرة: ٢٦٨.

أن يتواصل مع زوجته التي حدث بينها وبينه سوء فهم أدى للخصام، وأن يتكلم معها كلامًا طيبًا، فإن الأمور سوف تتحسن إن شاء الله تعالى. فقال لي: كلا، لن يحدث شيء حسن، بل سيحدث العكس وستزداد المشاكل!. قلت له: لماذا؟ قال: لأني أعرفها!. قلت له: هل عندك علمٌ من الغيب بأنه سيحدث العكس ولم يطلع عليه غيرك؟ قل لي: هل تستطيع أن تخبرني ماذا سيحدث بعد عشر دقائق؟ قال: كلا! قلت: كيف تقول هي لن تفعل! لن تستجيب! لن يحصل إلا الشر! هل أخبرك أحدٌ بهذا المستقبل؟

نحن حين نقول سيكون خير إن شاء الله، فهذا أولًا مقيد بمشيئة الله تعالى، وثانيًا فإن ذلك مبني على مواعيد الله عز وجل الذي يقول ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].. فترى أحدنا يصدق أوهامه التي يغذيها الشيطان وهو ﴿يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ويترك وعد الله الذي لا يخلف الميعاد ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾!

لذلك الذي يقول: لن تتأثر زوجتي بالكلام الطيب ولن يحصل منها غير الشر! ولذلك الذي يقول أوضاعي تسير من سيء إلى اسوأ وحالي من مرض إلى أمراض! وتجارتي من كساد إلى ما هو أكثر كسادا! نقول: تركتَ قول الله تعالى الذي يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ويقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ وهي الحقائق الثابتة والذي سيجريها هو بها ربُّ الكائنات، وصدقت قول الشيطان المرجوم باللعنات الذي لا يستطيع أن يصنع شيئا إلا في حق من يطيعه من البشر.

---

(١) فصلت:٣٥.

إن من الآثار السلبية للقنوط واليأس هو تناقص الإيمان بالله وضعفه، وتطرق الخلل إليه.

كما أن من الآثار السلبية للقنوط واليأس توقف الإنسان المصاب بهذا المرض عن العمل والفاعلية، بخلاف ذلك الذي يمتلك الأمل والرجاء، وهذا واضح فإن اعتقاد الإنسان بأن عمله سينتج وبأنه سيرى ثمرته، لقد نقلوا في القصص أن أحد الأولياء مر على فلاح يحرث الأرض بجدية ويزرع فيها بحماس، فأكبر في نفسه حماس الفلاح حتى إذا مضى في شأنه ورجع في طريقه، فرآه قد ترك مسحاته جانبا واضطجع بكسل ولا مبالاة، وحين تعجب من ذلك أقبل عليه يسأله عن ذلك الحماس أول النهار وهذا الكسل في ما بعد! فأخبره بأنه في أول الصباح كان يفكر أن الله سبحانه سيطيل عمره وأن لديه عيالا يحتاجون إلى نفقات لهم، حتى يكبر الصغير ويتزوج الكبير فلذلك كنت متحمسًا.. ولكن فجأة خطرت لدي خاطرة، وهي أنه من يقول إنني سأبقى إلى يوم غد؟ فإن سني كبير، ومن هم في مثل عمري قد توفوا! فما الداعي لأن أتعب نفسي بهذا المقدار، ولن أعمر لأرى ثمرة هذا التعب؟

وسواء كانت هذه القصة حقيقية أو رمزية إلا أنها تدل على أثر الرجاء والأمل في العمل وأثر اليأس والقنوط في التقاعس عن العمل والانتاج.

الأذكار الدينية والأمل بالله:

تقوم الأذكار الدينية بدور مهم في تكريس عنصر الرجاء والأمل بفتح الله ورحمته، وتيسير الأمور لمن يتوكل عليه، ولذلك فمن المهم النظر إلى الأذكار لا على أنها ألفاظ سوف تستتبع الثواب والأجر بذكرها فقط وإنما بالإضافة إلى ذلك ينبغي النظر إليها على أنها (ثقافة) و(معرفة) أسمى بالحياة، وجزء من (التعليم) وبناء الشخصية المؤمنة.

إن من التوصيات التي وردت، أن يبدأ الإنسان يومه بالقول: أصبحنا وأصبح الملك لله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

إذا تأمل الإنسان في مثل هذا الذكر، وفهم معناه فإنه لن يقول إن المدير الذي هو فوقي يمنعني من الترقية ويحول بيني وبين النجاح.. لماذا لأن (الملك كله لله) وأنه (لا حول ولا قوة إلا بالله) فلا أحد يستطيع التصرف من غير ممانعة إلا خالق هذا الكون، وأنه لا توجد قدرة ولا قوة في الواقع إلا بالله ومن الله، وهذه الحقائق تجعل المؤمن يردد وهو مطمئن لما سيصيبه (توكلت على الله).

من الأذكار ما نقله الشيخ الكليني في الكافي، عن محمد بن الفرج (قَالَ:كَتَبَ إِلَيَّ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ الرِّضَا عليهما السلام بِهذَا الدُّعَاءِ، وَعَلَّمَنِيهِ، وَقَالَ: «مَنْ قَالَ فِي دُبُرِ صَلَاةِ الْفَجْرِ لَمْ يَلْتَمِسْ حَاجَةً إِلاَّ تَيَسَّرَتْ لَهُ، وَكَفَاهُ اللهُ مَا أَهَمَّهُ: بِسْمِ اللهِ، وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، (وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ فَوَقاهُ الله سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا)، (لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)، (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ) مَا شَاءَ اللهُ، لَاحَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، مَا شَاءَ اللهُ، لَا مَا شَاءَ النَّاسُ، مَا شَاءَ اللهُ وَإِنْ كَرِهَ النَّاسُ، حَسْبِيَ الرَّبُّ مِنَ الْمَرْبُوبِينَ، حَسْبِيَ الْخَالِقُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، حَسْبِيَ الرَّازِقُ مِنَ الْمَرْزُوقِينَ، حَسْبِيَ الَّذِي لَمْ يَزَلْ حَسْبِي مُنْذُ قَطُّ، حَسْبِيَ اللهُ الَّذِي لَا إِلهَ إِلاَّ هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ».[1]

فإذا مرر الإنسان هذا الذكر على صفحة قلبه وعقله كل يوم واعتقد جازما أنه ما شاء الله هو الذي يكون لا ما شاء الآخرون بل وإن كره الناس جميعا فإن مشيئة

---

(١) الكليني؛ الكافي- ط دار الحديث ٤ / ٤٧٨.

الله وإرادته هي التي تتحقق، أما ما يشاء بعض الناس من مدير أو رئيس فهو غير نافذ ما لم يأذن الله سبحانه.. وإذا كان كذلك فليفوض الإنسان أمره إلى الله لأن النتيجة ستكون ﴿فَوَقاهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا﴾، وإذا اجتمع الناس ضد هذا الشخص لكنه احتسب عند الله وأوكل الأمر إليه فإن النتيجة ستكون أن ينقلب ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾.

وجزء من هذا الدعاء هو الذي احترز به إمامنا جعفر الصادق عليه السلام من المنصور العباسي عندما استحضره؛ لكي يقتله.[1]

ومن الأذكار التي يروى أنها مؤثرة في الفرج والخلاص من المآزق ما نقله سعيد بن هبة الله الراوندي في كتابه[2] قصص الأنبياء عليهم السلام بإسناده فيه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: لما ألقى إخوة يوسف (أخاهم) يوسف صلوات الله عليه في الجب نزل عليه جبرئيل عليه السلام وقال: يا غلام من طرحك في هذا الجب؟ فقال: إخوتي لمنزلتي من أبي حسدوني قال: أتحب أن تخرج من هذا الجب؟ قال: ذاك إلى إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب! قال جبرئيل، فان الله يقول لك: قل: (اللهم إني أسألك بأن لك الحمد

---

(١) مما رواه الشيخ الصدوق: أنّ المنصور أرسل إلى جعفر بن محمد ليقتله وطرح له سيفا ونطعا وقال: يا ربيع إذا أنا كلمته ثم ضربت بإحدى يدي على الأخرى فاضرب عنقه، فلما دخل الإمام عليه نظر إليه من بعيد وتحرك المنصور من على فراشه وقال: مرحبا وأهلا بك يا أبا عبد الله ما أرسلنا إليك إلاّ رجا ء أن نقضي دينك ونقضي ذمامك، ثم سأله مسائل لطيفة عن أهل بيته وقال: قد قضى الله حاجتك ودينك وأخرج جائزتك يا ربيع لا تمضين ثلاثة أيام حتى يرجع جعفر إلى أهله فلما خرج قال له ربيع: يا أبا عبد الله رأيت السيف والنطع إنما كانا وضعا لك فأي شيء رأيتك تحرك به شفتيك فقال عليه السلام: (نعم يا ربيع لما رأيت الشر في وجهه قلت حسبي الرب من المربوبين وحسبي الخالق من المخلوقين وحسبي الرازق من المرزوقين حسبي الله رب العالمين حسبي من هو حسبي، حسبي من لم يزل حسبي، حسبي الله لا إله إلاّ هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم).

(٢) الراوندي؛ قطب الدين: قصص الانبياء ١/ ١٢٨.

لا إله إلا أنت الحنان المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والاكرام، أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن تجعل لي من أمري فرجا ومخرجا، وترزقني من أحتسب ومن حيث لا أحتسب).

في الفقيه عن الشيخ الصدوق ﵀ بسنده عن مسمع كردين انه قال: صليت مع أبي عبد الله ﵇ أربعين صباحا فكان إذا انفتل رفع يديه إلى السماء وقال: أصبحنا وأصبح الملك لله اللهم انا عبيدك وأبناء عبيدك اللهم احفظنا من حيث نحتفظ ومن حيث لا نحتفظ اللهم أحرسنا من حيث نحترس ومن حيث لا نحترس اللهم استرنا من حيث نستتر ومن حيث لا نستتر اللهم استرنا بالغنى والعافية اللهم ارزقنا العافية ودوام العافية وارزقنا الشكر على العافية.[١]

وهناك ذكر آخر أورده في الكافي، عن أبي عبد الله ﵇ قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا نبي الله الغالب علي الدين ووسوسة الصدر، فقال له النبي ﷺ: قل: توكلت على الحي الذي لا يموت، الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرًا». قال: فصبر الرجل ما شاء الله، ثم مر على النبي ﷺ فهتف به فقال: ما صنعت؟ فقال: أدمنت ما قلت لي يا رسول الله فقضى الله ديني وأذهب وسوسة صدري[٢].

لماذا نذكر الله ولا يتحقق مطلوبنا؟

إن من المهم الالتفات إلى أن الجزاءات الدنيوية المبينة في هذه الأذكار كأثر من آثارها لا تعني التحتيم على الله بحالٍ من الأحوال، فعندما يقال مثلا ما دعا بهذا الدعاء أحدٌ إلا قضى الله حاجته، أو فرج همه.. فلا يعني حصوله حتما وفي اللحظة

(١) النجفي؛ الشيخ هادي: موسوعة أحاديث أهل البيت ٧ / ١٨.

(٢) الكليني؛ الكافي- ط الاسلامية ٢/ ٥٥٥.

التي ينتهي فيها الدعاء أو الذكر، فإنه لو كان الأمر هكذا لاختل النظام، فما اسهل أن يقول شخصٌ ما عدة كلمات لكي تتحقق كل مطالبه ومسائله!

وإنما كما قرره العلماء في باب الدعاء، فإنه لتأثير الدعاء والذكر لا بد من شروط في الداعي والذاكر، وشروط في الدعاء والذكر، وشروط أخرى ترتبط بحكمة الله سبحانه في ادارة الكون، وأن الاستجابة هنا موافقة للحكمة أو لا، وهل الاستجابة السريعة هي المناسبة للحكمة أو الإبطاء فيها! فقد يحصل بالنسبة لمن يطلب الرزق الوفير ويلح في ذلك أنه ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ في هذا المورد بينما قد يكون في مورد آخر موافقة الحكمة تتطلب التعجيل في الاستجابة.. وهكذا.

ويبقى الالحاح على الله والاستمرار في الدعاء والذكر مطلوبًا دائمًا، إذ فيه آثار كثيرة، فمنها:

أولًا: فيها اقتضاء أن تتحقق حاجات الإنسان إذ هناك فرق بين طلب واحد وبين طلبات متعددة، ولا سيما وقد أخبرنا أن الله تعالى يحب الالحاح عليه من جهة العبد بل يحب انقطاع العبد اليه، واضطراره إلى خالقه ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.

وثانيًا: مع فرض تأخر الاجابة، فإن كثرة الدعاء والذكر تزيد إيمان الذاكر والداعي وتكمله، ذلك أن ذكر الله سبحانه يصنع طمأنينة في القلب وهدوءًا في النفس ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

صحيح أن الطلب المحدد والأثر الخاص المترتب على الدعاء أو الذكر لم يتحقق، لكن حصل ما ربما يكون أفضل من ذلك المطلوب، ألا وهو زيادة الايمان، والتعلق بالله.

وثالثًا: فإن من آثار هذا الذكر الأخروية الثواب ورفع المنزلة، فإن من يذكر الله يذكره الله طبقا لما قال الله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

المصادر

كما ذكرنا في المقدمة حيث أن أكثر المصادر التي تم اعتمادها هي نسخ الكترونية على مواقع أو تطبيقات، فسيتم الاشارة إلى اسم الكتاب والمؤلف والمطبعة وأيضا سيتم الاشارة إلى الموقع الذي تم أخذ النسخة منه وهي كالتالي: مكتبة مدرسة الفقاهة ar.lib.eshia.ir وسيرمز لها بالحرف (ف) ومكتبة أهل البيت ishia book وسيرمز لها بالحرف (ب) وبعض كتب مدرسة الخلفاء تم الاعتماد على تطبيق تراث تطبيق app.turath.io وسيرمز لها بالحرف (ت)، وسيكتب كاملا في غير هذه الحالات. ولا يخفى أن قسما من معلومات هذه الطبعات قد لا تكون موجودة بالكامل.

(أ)

١. الاحتجاج. الشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي . مطابع النعمان . النجف . العراق (ف).

٢. إحياء علوم الدين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي . دار الكتاب العربي بيروت (ف).

٣. أسباب النزول علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت الحميدان . دار الإصلاح - الدمام (ف) .

٤. أسد الغابة في معرفة الصحابة. علي بن محمد الشيباني (ابن الأثير) .دار الكتاب العربي . بيروت (ف).

٥. أعلام الإمامية من الكليني الى الطهراني. الشيخ فوزي آل سيف . دار أطياف- القطيف ٦٢.

٦. الأمالي ؛ محمد بن الحسن الطوسي. ت مؤسسة البعثة . نشر دار الثقاف . قم (ف).

٧. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. الشيخ ناصر مكارم الشيرازي . مدرسة الإمام علي بن أبي طالب . قم (ف).

٨. الأنوار العلوية جعفر النقدي. المطبعة الحيدرية . النجف (ف).

(ب)

١. البداية والنهاية. ابن كثير الدمشقي. دار احياء التراث العربي. بيروت (ف).

٢. بحار الأنوار. العلامة محمد باقر المجلسي. مؤسسة الوفاء للنشر . بيروت (ف) .

٣. البيان والتبيين عمرو بن بحر الجاحظ. دار ومكتبة الهلال (ف).

(ت)

١. تاريخ الطبري. محمد بن جرير الطبري (ف).

٢. تحف العقول عن آل الرسول. الحسن بن علي بن شعبة الحراني. منشورات

جماعة المدرسين في الحوزة العلمية. قم (ف) .

٣. التحقيق في كلمات القرآن الكريم. الشيخ حسن المصطفوي . وزارة الارشاد الاسلامي. طهران (ف) .

٤. تفسير الراغب الأصفهاني الحسين بن محمد الراغب الأصفهانى نشر كلية الآداب - جامعة طنطا مصر(ف).

٥. تفسير القرآن العظيم .اسماعيل بن كثير الدمشقي . ت سلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع. (ف).

٦. تكملة منهاج الصالحين . السيد أبو القاسم الخوئي. منشورات مدينة العلم . قم (ف).

(ث، ج، ح)

١. ثواب الأعمال . محمد بن علي بن بابويه الصدوق (ف).

٢. جامع أحاديث الشيعة . السيد حسين البروجردي . مطبعة مهر. قم (ب).

٣. جامع البيان . محمد بن جرير الطبري. ت محمد شاكر .(ف).

٤. الجامع الصحيح . الإمام مسلم القشيري النيسابوري. دار الفكر. بيروت (ب).

٥. الحدائق الناضرة الشيخ حسين آل عصفور. منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية . قم (ف) .

(د، ر)

١. الدر المنثور في التفسير بالمأثور. جلال الدين السيوطي. دار الفكر(ف).

٢. رجال النجاشي ؛ أبو العباس النجاشي. ت السيد موسى الشبيري الزنجاني. مؤسسة النشر الاسلامي . قم (ف).

٣. رسائل الجاحظ .عمرو بن بحر دار ومكتبة الهلال بيروت (ف).

٤. رسائل الشهيد الثاني. الشيخ زين الدين بن على الجبعى العاملي. مكتبة بصيرتي .قم (ف).

٥. روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات. السيد محمد باقر الخوانساري. مكتبة اسماعيليان . قم (ف).

٦. رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام . تاج الدين الفاكهاني . دار النوادر سوريا (ت).

٧. رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين. السيد علي خان المدني الشيرازي . نشر جماعة المدرسين ـ قم (ب) .

(ز، س، ش)

١. زاد المسير في علم التفسير. عبد الرحمن بن علي بن الجوزي . دار الكتاب العربي بيروت (ف).

٢. سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار. الشيخ عباس القمي . منشورات أسوة . قم (ف).

٣. سنن الترمذي . الحافظ محمد بن عيسى الترمذي. دار الفكر للطباعة والنشر (ب).

٤. شرح سنن أبي داود. الشيخ عبد المحسن العباد (ت).

٥. شرح نهج البلاغة . عبد الحميد بن أبي الحديد . منشورات مكتبة السيد

المرعشي العامة . قم (ف).

(ص، ط)

١. صحيح البخاري. الإمام محمد بن اسماعيل البخاري. دار الفكر للطباعة والنشر بيروت (ب).

٢. الصحيفة السجادية الكاملة. الإمام علي بن الحسين السجاد . منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية . قم (ب).

٣. صراط النجاة في أجوبة الاستفتاءات. الميرزا جواد التبريزي نسخة الكترونية في موقع مساحة. http://masaha.org

٤. الطبقات الكبرى. محمد بن سعد بن منيع . دار الكتب العلمية . بيروت . (ف).

(ع، ف)

١. العباس عليه السلام. السيد عبد الرزاق المقرم . مكتبة الروضة العباسية . كربلاء (ف).

٢. العروة الوثقى. السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي . منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية . قم.(ف).

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام . محمد بن علي بن بابويه الصدوق : (ف).

٤. فقه العلاقات الاجتماعية . الشيخ فوزي آل سيف . دار أطياف ـ القطيف ـ السعودية .

(ق، ك)

١. قصص الانبياء. قطب الدين الراوندي . مجمع البحوث الاسلامية (ف).

٢. الكافي. الشيخ محمد بن يعقوب الكليني - الدار الاسلامية طهران (ف).

٣. الكافي . الشيخ محمد بن يعقوب الكليني دار الحديث. قم (ف).

(م)

١. مائة قاعدة فقهية؛ معنى ومدركا وموردا. السيد محمد كاظم المصطفوي مؤسسة النشر الاسلامي .قم (ف).

٢. مجمع البحرين. فخر الدين الطريحي .ت السيد أحمد الحسيني . منشورات مرتضوي . قم (ف).

٣. المحجة البيضاء في إحياء الإحياء. الشيخ محسن الفيض الكاشاني. (ف).

٤. المستدرك على الصحيحين؛ الحاكم محمد بن عبدالله النيسابوري -دار الكتب العلمية- بيروت(ت)، مستدرك الوسائل. الميرزا حسين النوري الطبرسي. مؤسسة آل البيت لإحياء التراث . قم (ف).

٥. مستمسك العروة الوثقى ؛ السيد محسن الحكيم. دار احياء التراث العربي . بيروت (ف).

٦. مسند أحمد. أحمد بن حنبل. دار صادر. بيروت (ب).

٧. مسند الإمام السجاد أبي محمد علي بن الحسين عليه السلام الشيخ عزيز الله العطاردي، نشر عطارد (ف).

٨. مصباح الأصول. تقريرات الواعظ الحسيني البهسودي. مؤسسة احياء آثار الإمام الخوئي . قم (ف) .

٩. معاني الأخبار ؛ محمد بن علي بن بابويه الصدوق . ت علي أكبر الغفاري . دار المعرفة (ف).

١٠. المعجم الكبير. الحافظ سليمان الطبراني. (ب).

١١. معجم مقاييس اللغة احمد بن فارس بن زكريا الرازي. ت عبد السلام هارون . دار الفكر.

١٢. مفاتيح الجنان ؛ الشيخ عباس القمي.

١٣. المفردات في غريب القرآن. الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني . نشر الكتاب . قم (ف).

١٤. المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام . د. جواد علي (ف).

١٥. المناقب. ابن شهرآشوب المازندراني ط المكتبة الحيدرية . النجف . العراق (ف).

١٦. منهاج الصالحين. السيد علي الحسيني السيستاني. مكتب السيد علي السيستاني. قم (ف) .

١٧. منهاج الصالحين. الشيخ محمد اسحاق الفياض. مكتب الشيخ محمد اسحاق الفياض . قم (ف).

١٨. موسوعة أحاديث أهل البيت. الشيخ هادي النجفي. دار احياء التراث العربي. بيروت (ب).

١٩. موطأ الإمام مالك. مالك بن أنس الأصبحي .دار إحياء التراث العربي، بيروت (ف) .

٢٠. موقع الموسوعة العالمية للشعر العربي. http://www.adab.com .

٢١. موقع وزارة الصحة السعودية: https://www.moh.gov.sa .

٢٢. ميزان الحكمة. الشيخ محمد محمدي الري شهري (ف).

٢٣. الميزان في تفسير القرآن. السيد محمد حسين الطباطبائي. مؤسسة اسماعيليان قم (ف).

(ن، و)

١. نهج البلاغة – الإمام علي عليه السلام. جمع الشريف الرضي. ط دار الكتاب اللبناني. بيروت / وأيضا نهج البلاغة – ط مطبعة الإستقامة . القاهرة (ف).

٢. الوافي الشيخ محسن الفيض الكاشاني. مكتبة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. اصفهان. (ف).

٣. وسائل الشيعة محمد بن الحسن الحر العاملي. دار احياء التراث العربي بيروت. نشر الإسلامية طهران(ف) .

الفهرس

مقدمة ٧

الاستبداد بالرأي منشؤه وأثره ١٣

اَلْبُخْل وَشُحُّ النَّفْسِ ٢١

هل أنت بخيل مع الله؟ ٣٣

البخل العاطفي والبخل المالي ٤٣

بذاءة اللسان وعفته ٥١

لماذا يكونون بذيئي اللسان؟ ٦٣

النتائج المترتبة على بذاءة اللسان ٧٣

التكبر وشخصياته غير المعروفة ٨٣

الحسد: الخلق الذميم ٩١

هكذا تحدث القرآن عن الحسد. ٩٩

هل يؤثر الحسد على المحسود؟ ١٠٧
هل نحن حاسدون أم محسودون؟ ١١٧
الإصابة بالعين هل يثبتها القرآن أو الروايات أو العلم؟ ١٢٥
الحقد والبغضاء ١٤٣
التنمر مظهر الحقد ١٥٣
الخيانة رأس النفاق ١٦٥
المجالس بالخيانة أو بالأمانة؟ ١٧٥
الخيانة في المال والأعمال ١٨٥
أولياء السلطان والأوقاف.. أمانة أو خيانة؟ ١٩٥
الخيانة الزوجية ٢٠٥
هكذا نقاوم الرغبة في الخيانة ٢١٧
الشك في أقسامه والموقف منه ٢٢٧
الشك وسوء الظن في المجال الاجتماعي ٢٣٥
الشك وتدمير الحياة الزوجية ٢٤٣
الشك والوسوسة في العبادات ٢٥١
الغضب جمرة الشيطان ٢٦١
الظلم ظلمات يوم القيامة ٢٧٣
الظلم في حياتنا الأسرية ٢٨٣

لماذا يظلمون غيرهم؟ ٣٠١
الكسل في أمر المعيشة ٣٠٩
الكسل في العبادة والعلم ٣١٩
عوامل الكسل عن العبادة وفيها ٣٢٥
كيف نواجه الكسل في الحياة؟ ٣٣٣
اليأس والقنوط ٣٤١
بتوكل الإيمان نهزم اليأس والقنوط ٣٤٩
المصادر ٣٥٩

قنوات التواصل مع الشيخ

الايميل	fawzialsaif@gmail.com
الموقع الالكتروني	www.al-saif.net
قناة اليوتيوب	m.youtube.com/user/Fawzialsaif
تطبيق آيفون	bit.ly/alsaifapp
تطبيق أندرويد	bit.ly/1zPHwFh
قناة التلغرام	bit.ly/1M8Lzhk
المجموعة الصوتية الكاملة على دروبوكس	goo.gl/VMmT7X
روابط المقاطع القصيرة	goo.gl/XkTvmj
قناة الساوند كلاود	m.soundcloud.com/fawzialsaif
تطبيق الكتب اندرويد	play.google.com/store/apps/ details?id=net.alsaif.books
ايفون وايباد	appsto.re/us/_ptClb.i
الموقع الرديف	al-saif.app
الانستغرام	instagram.com/fawzialsaif_ shortclips?igshid=195mov23vh9mx
قناة بودكاست الشيخ فوزي آل سيف لجوالات الايفون	apple.co/31oqGiO